ترجمته كاملة في "سالونك" ج ٤ ص ٢٨٢

القسم الأول : الدراســــة

الفصــل الأول

الامام شرف الدين الطيبي المتوفى سنة ٧٤٣هـ

كان بودي كما قلت آنفا في المقدمة ، أن أكشف كل غموض اكتنف شخصية هذا العالم الفذ الذي ذاع اسمه ، وشاع صيته بما ترك من آراء وآثار ، في مختلف صنوف العلم وشتى فروع المعرفة ، ولكن بعد بحث دائب واطلاع مستمر في جميع ماتيسر لنا من مصادر ومراجع لترجمته (١) وجدتها قد ضنت علينا بالكثير مما كنا نريد معرفته عن الطيبي فتركت الغموض يكتنف نشأته وأطوار حياته مقتصرة على عدة جوانب من تاريخه نعرض لها فيما يأتي ـ

اسمـه ونسبه :

هو الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي ، وقد اشتهر بشرف الدين الطيبي ، أما ماذكرته من اسمه ونسبه فلم تتفق عليه كلمة المترجمين له ، بل ذكر بعضهم أن اسمه الحسن (٢) كما ذهب أكثرهم الى أنه ابن محمد بن عبد الله ، ولكن بالبحث ثبت لي أن الطيبي قد بين اسمه ونسبه بما لايدع مجالا للاختلاف ، حيث وجدت على ظهر الورقة الأولى من كتابـــــه "فتوح الغيب" المسمى بشرح الكشاف ديباجة قد سبقت بعبارة تقول : "هذه الديباجة بخط المصنف الذي هو شرف الدين الطيبي" وضمن هذه الديباجة يقول الطيبي :

"وأنا العبد الضعيف الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي" (٣) .

---

(١) هي : الدرر الكامنة جـ٢ ص ١٥٦ ، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات للخوانساري ص٢٢٣ ، ٢٢٤
هدية العارفين للبغدادي جـ١ ص٢٨٥ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ٦ ص١٣٧
البدر الطالع للشوكاني جـ١ ص٢٢٩ ، ٢٣٠ ، بغية الوعاة للسيوطي جـ١ ص٥٢٢ ، ٥٢٣
تاريخ ابن خلدون المجلد الأول المعروف بالمقدمة ص٧٨٨ ، ٧٨٩ ، طبقـــات الشافعية الكبرى للسبكي جـ١٠ ص٧٦
كشف الظنون المجلد الأول ص١٣٤ ، المجلد الثاني ص١٧٠٠ ، مفتاح السعـــادة ومصباح السيادة جـ٢ ص١٠٤ ، الأعلام للزركلي جـ٢ ص ٢٨٠ ط ثانية
تاريخ الأدب العربي لبروكلمان الطبعة الألمانية الأصل جـ٢ ص٦٤ ، الملحق جـ٢ ص٦٧
وقد قام بترجمة مايخص الطيبي عن الألمانية الأستاذ رشاد عبد المطلب سكرتير معهـــد المخطوطات بجامعة الدول العربية رحمه الله تعالى .
تراث العرب العلمي لطوقان ص٤٣٤ ، ٤٣٥ ، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة جـ٤ ص٥٣
فهرس دار الكتب المصرية ص١٢٤ ط دار الكتب ١٩٦١م ، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية وضع محمد الألباني ط دمشق ص٣٤٤ .

(٢) أنظر بغية الوعاة للسيوطي جـ١ ص٥٢٢ وشذرات الذهب جـ٦ ص١٣٧ وروضات الجنات ص٢٢٣

(٣) فتوح الغيب الورقة الأولى مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٥ تفسير .

أقول : وبهذا يكون الطيبي قد بين اسمه وتسلسل نسبه وذلك قاطع لما اختلفوا فيه من حيث اسمه ونسبه ومما يؤيد ماذكرت ماورد أيضا عن تلميذه علي بن عيسى صاحب " حدائق البيان في شرح التبيان " حيث ذكر في مقدمة كتابه أن اسم الطيبي شيخه هو شرف الملة والدين حسين بن عبد الله بن محمد الطيبي (١) هذا وقد ورد في ختام كتاب " أسماء رجال مشكاة المصابيح " لولي الدين الخطيب التبريزي مايلي : " وفرغت يوم الجمعة من عشرين من رجب سنة أربعين وسبعمائة من جمعه وتهذيبه وأنا أضعف العباد الراجي عفو الله وغفرانه محمد بن عبد الله الخطيب بن محمد بمعاونة ومعاضدة شيخي ومولاي سلطان المفسرين وامام المحققين من الملة والدين حجة الله على المسلمين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي متعهم الله بطول بقائه ثم عرضته عليه كما عرضت المشكاة فاستحسنه كما استحسنها واستجاده والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد النبي الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين الى يوم الدين " (٢) .

ومن هذه الخاتمة لكتاب " أسماء رجال مشكاة المصابيح " نستطيع أن نأخذ عدة أشياء تتمثل فيما يأتي :ـ

١ ـ اسم الطيبي ونسبه .

٢ ـ تلمذة المؤلف على الطيبي .

٣ ـ تأليف هذا الكتاب في حياة الطيبي .

٤ ـ مؤلف هذا الكتاب تلميذ الطيبي محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي وليس الامام الطيبي بل كان معاونا فقط لتلميذه .

وبهذا الاستنتاج الأخير نرد على بروكلمان حيث ذهب الى أن مؤلف الكتاب هو الطيبي نفسه ولذا نجده يعده ضمن مؤلفاته (٣) . ولعلي بهذا البيان أكون قد حققت اسم الطيبي ونسبه وبناء عليه يكون الصحيح في اسمه ونسبه ماصدرت به الحديث وهو الحسين ابن عبد الله بن محمد الطيبي . أما تسميته بالحسن بن محمد فلعلها من تصحيف النساخ واحداث قلب في تسلسل نسبه بالتقديم والتأخير لعدم الدقة والوقوف على تسمية الطيبي لنفسه كما اتضح لي بعد البحث .

---

(١) انظر حدائق البيان الورقة الأولى مخطوط بالاسكوريال رقم ٢٢٤ .
(٢) أسماء رجال مشكاة المصابيح مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٧٩ مصطلح حديث طلعت
(٣) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان جـ٢ ص٦٤ والملحق جـ٢ ص٦٧ .

شهرته وكنيتـــــه :

من اطلاعي على كتب التراجم التى اهتمت بالتعريف بالطيبى وجدت أنه اشتهـــــر بعدة ألقاب هى الامام الشيخ شرف الدين الطيبى ، ومن ألقابه العلمية الحافظ والمحدث والعلامة فى المعقول والمنقول .

وقد ذكر بروكلمان أنه كان يكنى باحدى كنيتين هما : أبو عبد الله أو أبو محمد .

مولـــــده :

لم تشر كتب التراجم التى اطلعت عليها صراحة الى متى ولا أين ولد ، ولكـــــن ابن خلدون ذكر فى تاريخه " العبر وديوان المبتدأ والخبر .. " عن الطيبى أنه من أهل توريز من عراق العجم (١) بينما صرح القلقشندى بنسبته الى الطيب فى أثناء حديثه عـــن مملكة ايران وأن لها جانبين جنوبى وشمالى والجنوبى يشتمل على ستة أقاليم منها خوزستان والأهواز ومن مدن خوزستان مدينة الطيب ثم قال عنها : " وهى بلدة بين واسط وبيـــــن الأهواز .... والى الطيب هذه ينسب الطيبى صاحب الحواشى على كشاف الزمخشرى " (٢)

ومن هنا نجد صاحب " مفتاح السعادة " عند تعريفه بالامام الطيبى يورد هـــــذه العبارة المشعرة بنسبته الى الطيب اذ يقول عنه : " الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبى الأصل بكسر الطاء الامام المشهور " (٣) ، وعلى الرغم من هذه النسبة الى بلدة الطـــيب لانستطيع الحكم بأنها مكان ولادته اذ يحتمل أن يكون أساس النسبة الى بلدة الطيب ولادته فيها كما يحتمل أيضا أنه عاشرها أو أنها الموطن الأصلى لأسرته ثم انتقل الى توريز فعـــاش بها وهذه كلها احتمالات لايساندها دليل قاطع وانما الذى نستطيع الجزم به أنه من أهـــل ايران دون تعيين لمكان ولادته ، وقلت من ايران لأن المدينتين المذكورتين ــ الطيـــب ، توريز ــ كلتيهما تقع فى دولة أيران ، فتوريز هى تبريز التى تعد أشهر بلدة فى اقلــــيم آذربيجان بايران (٤) .

ولتحقيق كون توريز هى تبريز نسوق الأدلة الآتية :

١ ــ أورد المقريزى فى أثناء حديثه عن جامع قوصون قوله " .... وكان قد حضر من بـــلاد

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر المجلد الأول ص ٧٨٨ .
(٢) صبح الأعشى جـ٤ ص٣٣٩ .
(٣) مفتاح السعادة ومصباح السيادة جـ٢ ص١٠ .
(٤) انظر صبح الأعشى جـ٤ ص٣٥٧ وتقويم البلدان ص ٤٠٠ .

توريز بناء ً نبني مئذنتي هذا الجامع على مثال المئذنة التي عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبي سعيد في جامعه بمدينة توريز " (١) .

وبذلك أفهمنا المقريزى أن الجامع الذى بناه الوزير على شاه يقع فى مدينة توريز ، واذا تركنا كلام المقريزى الى ما أوردته دائرة المعارف الاسلامية فى مادة تبريز فاننا نجد النص الآتى : " ومما يستحق الذكر أيضا أن الوزير تاج الدين على شاه الوزير من عام ٧١١هـ - ١٣١٢م قد شرع فى تشييد مسجد عظيم فى تبريز خارج حى مهاد مهين " (٢)

أقول بمقابلة هذين النصين يثبت أن تبريز وتوريز اسمان لمسمى واحد ، ومما يؤيد هذا التحقيق من مقابلتى النصين السابقين أن ابن بطوطه ذكر وهو يتحدث عن رحلته الى تبريز وصفا لهذا المسجد فقال :

" ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذى عمره الوزير على شاه ... وخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة ...... " الخ (٣) .

٢ - ذكر القلقشندى وهو يتحدث عن أقاليم الجزء الشمالى من مملكة ايران أن من أقاليم هذا الجزء الشمالى اقليم آذربيجان وبه ثلاث قواعد أردبيل والسلطانية وتبريز ثم قال عن تبريز : " والجارى على ألسنة العامة توريز بالواو بدل الموحدة " (٤) ، وكذلك ذكر أبو الفداء فى كتابه " تقويم البلدان " أن تبريز هى توريز (٥) .

أما مدينة الطيب فهى الأخرى تقع بايران كما نقلنا فيما سبق عن القلقشندى وأيضا قال أبو الفداء : " الطيب من اقليم خوزستان وهى بلدة بين واسط وكور الأهواز " (٦) .

ونخلص من هذا كله الى أن شرف الدين الطيبى من ايران التى كانت مركز مملكة المغول الايلخانيين حينذاك .

أخلاقـــه :

كان الطيبى حسن المعتقد ، شديد الحب لله تبارك وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، عظيم التواضع ، سخيا كريما فقد ذكرت كتب التراجم أنه كان ذا ثروة طائلة من

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ٢ ص٣٠٧ .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة تبريز المجلد الثامن ص١٨١ .
(٣) رحلة ابن بطوطه جـ١ ص١٤٧ .
(٤) صبح الأعشى جـ٤ ص٣٥٧
(٥) انظر تقويم البلدان ص٤٠٠ .
(٦) تقويم البلدان ص٣١٤ .

الارث والتجارة فلم يزل ينفقها في وجوه الخير حتى افتقر في آخر عمره ، وكان ملازما لتعليم الطلبة والانفاق على ذوي الحاجة منهم ، شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة مظهـــرا فضائحهم ، وكان كثير الحياء ملازما للجماعة ليلا ونهارا صيفا وشتاء مع ضعف بصره في آخر عمره ، ملازما تعليم الناس العلوم الاسلامية ، محبا لمن يعرف منه تعظيم الشريعة الغراء وكما كان سخيا بماله كان سخيا بعلمه يتمثل ذلك في اقباله على نشر العلم واعارة الكتب النفيسة لمن عرف ولمن لا يعرف ابتغاء مرضاة الله حتى كان يقسم يومه بين التفسير والحديث فهو يعقد مجلسه للتفسير من البكرة حتى الظهر ثم يعقد مجلسه لقراءة صحيح البخاري من الظهر الى العصر الى يوم وفاته عليه رحمة الله تعالى (١) .

ثقافتـــــه :

تدل آثار الطيبي فيما خلفه من كتب وآراء على أن ثقافته لم تكن محصورة في فن بعينـــه أو مقصورة على لون من ألوان المعرفة ، ولكنها تعدت هذا النطاق الضيق وتجاوزت ذلـك القدر المحدود ، فشملت عدة فروع من المعرفة شملت البلاغة والحديث والتفسير والنحـــو والقراءات ، وشملت أيضا الرياضيات من حساب وجبر وهندسة فقد ذكر بعض من ترجموا له أن له رسالة بعنوان مقدمات في علم الحساب اشتملت على الحديث في الحساب والجبـــر والهندسة .

أقول وبهذا يكون الطيبي قد استجاب لمتطلبات عصره حيث ان المغول قد اهتمـــوا من أول عهدهم بتلك العلوم العملية من رياضة وهندسة وطبيعة وغيرها (٢) .

شخصيته ومكانته العلمية :

يبدو أن الطيبي كان ذا منزلة علمية عالية ومكانة رفيعة بين أقرانه من العلماء فقـــد وصفته كتب التراجم بالامام المشهور ، العلامة في المعقول والمنقول ، وذكر ابن حجـــر العسقلاني أنه كان آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة (٣) ، كما وردت فـــي صاحبنا في طبقات الشافعية هذه العبارة : " الامام الهمام الشيخ شرف الدين الطيبي وهو

---

(١) انظر الدرر الكامنة جـ٢ ص١٥٦ وبغية الوعاة جـ١ ص٥٢٢ .
(٢) تراث العرب العلمي ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ومعجم المؤلفين جـ٤ ص٥٣
وانظر أيضا بقية مراجع ترجمته .
(٣) الدرر الكامنة جـ٢ ص١٥٦ .

كالشمس لايخفى بكل مكان " (١) ، وقال عنه الأستاذ عمر رضا كحالة : " عالم مشارك فى أنواع من العلوم " (٢) .

وجدير بمن يوسم بكل هذه السمات ويوصف بجميع هذه الصفات أن يكون علامة عصره ذا علم جم وعقل راجح وشخصية ممتازة تظهر لنا فى ثنايا كتبه بما يسوق من استنباطات وتعقيب على آراء غيره بالترجيح أو النقد .

شيوخه وتلاميذه :

لم تسعفنا كتب التراجم بشىء ذى بال عن أساتذة الطيبى وتلاميذه فلم تصرح بأسماء شيوخه الذين تلقى عليهم وأخذ منهم ، ولا بأسماء تلاميذه الذين تتلمذوا عليه ولكنى بالبحث واستنطاق النصوص استطعت التوصل الى معرفة شيخين من شيوخه وتلميذين من تلاميذه ، أما عن الشيخين فقد ورد فى طبقات الشافعية الكبرى مايفيد تلمذة الطيبى على الشيخ أحمد الجاربردى وأفدت ذلك من قول ابراهيم الجاربردى عن أبيه أحمد الجاربردى : " وأما الذين اجتمعوا عند والدى واشتغلوا عليه وتمثلوا بين يديه فهم العلماء الأبرار والصلحاء الأخيار بذلوا الأنفس والأموال منهم الامام الهمام الشيخ شرف الدين الطيبى شارح الكشاف والتبيان وهو كالشمس لايخفى بكل مكان " (٣) . والجاربردى هذا شيخ الطيبى هو الامام فخر الدين أحمد بن الحسن بن يوسف الجاربردى نزيل تبريز له من الآثار العلمية " شرح المنهاج " فى أصول الفقه وشرح تصريف ابن الحاجب وحواشى على الكشاف وقد مات بتبريز سنة ٧٤٦هـ (٤) .

هذا عن أحد شيخى الطيبى ، والشيخ الآخر هو شهاب الدين أبوحفص محمد بن محمد السهروردى كان من كبار الصوفية فى عصره كما كان فقيها مشاركا فى بعض العلوم ولد بسهرورد سنة ٥٣٩هـ بمقاطعة الجبل بفارس وتوفى ببغداد سنة ٦٣٢هـ ، له كتاب " عوارف المعارف " فى التصوف والسلوك ، بهجة الأبرار فى مناقب الغوث الكيلانى ، بغية البيان فى تفسير القرآن (٥) وقد أفدت مشيخته للطيبى مما أورده السيوطى فى ترجمته

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى جـ١٠ ص٧٦
(٢) معجم المؤلفين جـ٤ ص٥٣
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى جـ١٠ ص٦٠ ، ٧٦
(٤) انظر الدرر الكامنة جـ١ ص١٣٢ ، ١٣٣
(٥) انظر فى ترجمته : البداية والنهاية لابن كثير جـ١٣ ص١٣٨ ، النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٨٣ ، تاريخ الأدب الفارسى ص١٩٧ ، معجم المؤلفين جـ٧ ص٣١٣ كتائب أعلام الأخيار مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٤ تاريخ م الورقة ٢٨٧

للطيبي حيث ذكر أنه أخذ عن أبي حفص السهروردي معتمدا في ذلك على ماذكره الطيبي نفسه في شرح الكشاف من أخذه على أبي حفص السهروردي (١) ، وقد رجعت الى الشرح المذكور وهو مخطوط بدار الكتب المصرية فلم أعثر على ذلك صراحة وانما وجدت بعض عبارات للطيبي تفيد تلمذته على السهروردي ، منها قوله : " عظمة الكلام على قدر عظمة المتكلم فكلام الله تعالى عظيم بعظمته جليل بجلالته وكبريائه قال شيخنا شيخ الاسلام وسراج أهل الايمان أبو حفص السهروردي قدس سره كلام الله تعالى بعد ونأى بكنهه وغايته وعظيم شأنه وقهر سلطانه وسطوع نوره وضيائه مثاله من عالم الشهادة الشمس التي ينفع الخلق شعاعها ووهجها اذ لاقدرة للخلق أن تقرب من جرمها فمن قائل بأن لاحرف ولاصوت لما عظم عليه أن يحضر ومن قائل انه حرف وصوت لما عز عليه أن يغيب ولكل وجهة هو موليها .... " (٢)

ولنا أن نتساءل بعد ذلك فنقول كيف كانت هذه التلمذة وذلك الأخذ على مابين وفاة الرجلين من زمن بعيد حيث توفى الشيخ سنة ٦٣٢هـ والتلميذ سنة ٧٤٣هـ وهذا يقتضي أن يكون الطيبي عاش أكثر من مائة وعشرين عاما وهو مستبعد ولذا أرجح أن أخذه من أبي حفص السهروردي وتلمذته عليه كانا بطريق الواسطة على نمط الاجازة في رواية الحديث .

أما تلاميذه فعلى الرغم من أن الطيبي كان ملازما لتعليم الطلبة والانفاق على ذوي الحاجة منهم ، وحرصه على نشر العلم بشتى الوسائل لم تجد علينا مراجع ترجمته ومصادرها بذكر تلاميذه بل ظل أمرهم غامضا شأنهم في ذلك شأن شيوخه غير أني استطعت بالبحث والاستنتاج التعرف على اثنين منهم كما قلت آنفا أحدهم هو علي بن عيسى صاحب " حدائق البيان في شرح التبيان " ولم أعثر له على ترجمة ، وقد أفدت تلمذته على الطيبي من صاحب " كشف الظنون " في أثناء حديثه عن كتاب " التبيان " للامام الطيبي حيث قال : " ثم شرحه تلميذه علي بن عيسى وسماه حدائق البيان " (٣) ، وبالرجوع الى الشرح المذكور وجدته شرحا بالقول يذكر بعض ألفاظ كتاب التبيان ثم يعلق عليها وقد بين في مقدمته اسمه واسم شيخه الطيبي وقصة تأليفه لهذا الكتاب مبينا أن شيخه الطيبي أمره بكتابته بعد أن قرأ عليه كتاب التبيان وسجل على حواشيه بعض املاءات الطيبي كما أنه قد

---

(١) بغية الوعاة جـ١ ص٥٢٢

(٢) فتوح الغيب والكشف عن قناع الريب الورقة الثالثة مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٨٣٤ ب.

(٣) كشف الظنون المجلد الأول ص ٣٤١ .

عول على مؤلفاته الأخرى حيث اتخذها مصادر لهذا الشرح (١) ، وبذلك وضح أن الصلة الوثيقة للامام الطيبى بهذا الكتاب ولعله هو المختصر لشرح الطيبى الأصلى حيث ورد فى كتب التراجم أن الطيبى شرح كتابه " التبيان " وأمر بعض تلامذته باختصاره (٢) .

أما التلميذ الآخر فهو ولى الدين محمد بن عبد الله الخطيب بن محمد التبريزى العمرى له " مشكاة المصابيح " التى شرحها الطيبى وله كذلك " أسماء رجال المشكاة " وهو محدث (٣) .

وأفدت تلمذته على الطيبى مما ورد فى ختام كتابه " أسماء رجال مشكاة المصابيح " وقد ذكرت النص الدال على ذلك سابقا أثناء حديثى عن اسم الطيبى ونسبه .

* * *

آثاره العلمية :

ترك شرف الدين الطيبى بعد حياة علمية حافلة بالنشاط آثارا علمية وافرة لم ينشر منها سوى كتاب واحد حتى يومنا هذا هو " الخلاصة فى أصول الحديث " بل ان بعضها لم نهتد الى مكان وجوده ومن هذه الآثار :

١ ـ كتاب " التبيان فى البيان " وهو ما أقوم الآن بتحقيقه ودراسته سائلا الله تعالى العون والتوفيق .

٢ ـ لطائف التبيان فى المعانى والبيان مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦ بلاغة م .

٣ ـ أسماء رجال المشكاة ذكره بروكلمان وقال انه مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٩٠ تاريخ ، ١٧٩ مصطلح حديث طلعت ومرجوعى الى المخطوطة تحت هذين الرقمين اللذين ذكرهما بروكلمان تبين لى أن الكتاب لأحد تلامذة الطيبى وهو محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى العمرى وليس للطيبى وانما كان معاونا وموجها لتلميذه فقط وقد ذكرت ذلك سابقا أثناء حديثى عن تحقيق اسم الطيبى ونسبه مدللا بما ورد فى ختام هذه المخطوطة على صحة اسم الطيبى ونسبه .

---

(١) حدائق البيان لعلى بن عيسى اللوحة الأولى مخطوط بالاسكوريال رقم ٢٢٤

(٢) الدرر الكامنة جـ٢ ص١٥٦ والبدر الطالع للشوكانى جـ١ ص٢٢٩

(٣) انظر كشف الظنون ص١٦٩٩ ، تلفيق الأخبار جـ٢ ص ٢٢ الى ٢٤ ، معجم المؤلفين جـ١٠ ص ٢١١

٤ ـ شرح أسماء الله الحسنى • مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٦ مجاميع وهذا الشرح ضمن مجموعة تقع فى ٢٣٢ ورقة والشرح يقع فى ٥٤ ورقة من ١٤٨ الى الورقة ٢٠٢ •

٥ ـ الكاشف عن حقائق السنن (المسمى بشرح مشكاة المصابيح)

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٠ حديث قوله تنقصه عدة أوراق من المقدمة •

٦ ـ فتوح الغيب والكشف عن قناع الريب وهو حاشية على كشاف الزمخشرى تسمى بشرح الكشاف مخطوط بدار الكتب المصرية تحت الأرقام الآتية :

١٤٥ تفسير فى تسعة مجلدات وهذه النسخة كاملة ، ٢٢٨٣٤ ب فى مجلدين المجلد الأول من الفاتحة الى المائدة والمجلد الآخر من سورة مريم الى سورة فاطر ، ٤٧٣ تفسير تيمور من الفاتحة الى المائدة فى مجلد واحد ، ٥١١ تفسير طلعت من سورة مريم الى فاطر •

٧ ـ الخلاصة فى أصول الحديث مطبوع بتحقيق الأستاذ صبحى السامرائى ط بغداد سنة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م •

٨ ـ تفسير للقرآن الكريم ذكره ابن حجر العسقلانى (١) •

٩ ـ شرح لكتابه " التبيان فى البيان " ذكره ابن حجر العسقلانى والسبكى فى كتابه " عروس الأفراح " (٢) ولم نعثر على نسخة لهذا الشرح على الرغم من وجود نسخة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم ١٠ قائمة ٤ نسبها الناسخ الى الطيبى على أنها شرحه لكتاب التبيان حيث قابلتها على نسخة " حدائق البيان " لتلميذه على بن عيسى فوجدتها هى هى وبذلك تكون النسبة غير صحيحة ولعل بعض الاحالات فى هذه النسخة على كتب الطيبى الأخرى هى التى خيلت للناسخ نسبة هذا الشرح الى الطيبى ولكنها فى رأيى جاءت من الصلة الوثيقة للطيبى بكتاب تلميذه " حدائق البيان " كما بيناها سابقا •

١٠ ـ مقدمات فى علم الحساب ذكرها الأستاذ قدرى طوقان فى كتابه " تراث العرب العلمى " نقلا عن كتاب " آثار باقية " للأستاذ صالح زكى وكذلك ذكرها الأستاذ عمر رضا كحالة (٣) •

---

(١) الدرر الكامنة جـ٢ ص١٥٦
(٢) شروح التلخيص جـ١ ص٣١
(٣) انظر تراث العرب العلمى ص٤٣٤ ، معجم المؤلفين جـ٤ ص٥٣

وفاتــــه :

اتفقت كلمة المترجمين للطيبي على أنه توفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة للهجــرة (١٣٤٢م) وكما اتفقوا على تحديد زمن الوفاة نراهم لم يحددوا مكانها ، اذ لم يشــر أحد منهم الى المكان الذى لقي فيه ربه .

ومما هو جدير بالذكر أن بالقاهرة ضريحا داخل مسجد يقال له مسجد الشيخ محمد الطيبي يقع في شارع السد البراني الممتد من مسجد السيدة زينب غربا وتسمى المنطقة التى يقــع فيها مسجد الطيبي بميدان الطيبي ، وقد زرته فدهشت حين وجدت ترجمة الشيــخ شرف الدين الطيبي صاحبنا منقولة من الدرر الكامنة ، ومعلقة على الضريح كأنه صاحــب التبيان . وأظن هذا خطأ ممن نقل ذلك ، لأن الرجل رحمه الله لم يأت الى مصر حيث لم يشر أحد من مؤرخيه الى ذلك ، وفي تشابه الأسماء ماجعل هذا الناسخ يتعجل فـــى كتابة الترجمة دون تحقيق .

واذا كان الشيء بالشيء يذكر فان المرحوم على مبارك قد ذكر في الخطط التوفيقيــة (١) اسم مسجد بالدرب الأحمر يعرف بمسجد الجويني ، وقد اتجهت اليه فوجدت مكتوبا عليــه مايشعر بأن الجويني هذا هو امام الحرمين أبو المعالي عبد الملك أو والده عبد الله الجويني (٢) وهذا مما يستغرب استغرابا لاحد له ، لأن امام الحرمين ووالده كذلك قد دفنا بنيسابــور ولم يذكر مؤرخوهما أنهما حضرا الى القاهرة ، فلعل بعض من يحمل لقب الجويني في مصــر قد دفن بالدرب الأحمر ومرت الأيام فجاء من يحقق ويهتدى الى أبي المعالي امام الحرمين فيظنه صاحب الضريح ، ونحن نعلم أن بعض الصوفية والأدباء تنتهى أسماؤهم بلقـــب الجويني ومنهم شاعر صلاح الدين الشهير بأبي الحسن الجويني الذى هنأه بقصيدة ممتازة عند سقوط حطين مطلعها :

جند السماء لهذا الملك أعـوان .. من شك فيه فهذا الفتح برهـان

وقد كانت له شهرة ومكانة في عصره ، فلعله أو أحدا من نسله يكون صاحب الضريح .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ١ ص١٠٠
(٢) الجويني امام الحرمين ص٥٨

روى أن الامام الطيبى جلس فى اليوم الأخير من حياته لدرس التفسير فى الصباح فأتمه عند الظهر ، ثم توجه الى مجلس الحديث فدخل مسجدا عند بيته فصلى النافلة قاعدا ، وجلس ينتظر الاقامة للفريضة فقضى نحبه وهو متوجه الى القبلة ، وذلك يوم الثلاثاء ١٣ من شعبان سنة ٧٤٣هـ عليه رحمة الله تعالى وسلام عليه فى الخالدين (١) .

* * *

---

(١) انظر الدرر الكامنة ج٢ ص١٥٦ ، وبغية الوعاة ج١ ص٥٢٢ وبقية المصادر والمراجع المذكورة فى أول الفصل .

عصـــر الطيـــبى
سياسيا ـ اجتماعيا ـ علميـــا

سبق أن عرفنا أن شرف الدين الطيبى المتوفى سنة ٧٤٣هـ من أهل تبريز فى عراق العجم كما ذكر ابن خلدون (١) أو من بلدة الطيب لنسبته اليها كما ورد فى صبـــح الأعشى . وعلى ضوء ذلك قررنا أنه من ايران لوقوع هاتين المنطقتين فى مملكة ايـــران حينذاك (٢) والدارس لتاريخ ايران فى هذه الفترة التى عاشها الطيبى يجدها كانت تنضوى تحت لواء مملكة المغول الايلخانيين فاذا أردنا التعرف على أحوال عصر الرجـــل فلنتحدث عن ايران سياسيا واجتماعيا وعلميا فى ظلال دولة المغول مقدمين بين يـــدى ذلك كلمة موجزة عن نشأة هذه الدولة .

أولا : الحالة السياسيـــة :

فى أوائل القرن السابع الهجرى توحدت القبائل المغولية المتفرقة ، تحت زعامـــة تموجين وهو الشخص الذى قيضت الأقدار له قيادة هذه القبائل عبر آسيا متخذا لقـــب جنكيزخان ، وسرعان ما استطاع أن يقود طوائف الرعاة المتبدية وأن يكتسح البلاد جنوبا وشرقا ويسيطر على الصين المتحضرة ، ثم اتجه غربا على رأس سبعمائة ألف رجل وتوقـــف على حدود الدولة الخوارزمية ليرسل رسلا الى السلطان محمد الذى استنكف أن يتصـــل بهؤلاء البرابرة فكانت النتيجة التحطيم السريع لدولته ، وسار الجيش المغولى قدمـــا للاستيلاء على بخارى وسمرقند وبلخ ومرو فحوصرت المدن التى أبدت مقاومة ثم اجتيحـــت وأحرقت ، وقد قتل فى هذا الغزو الأول وفى موجات الغزو اللاحقة ملايين من أهـــل ايران ، ثم رجع جنكيز خان الى الشرق بعد أن أتم الاستيلاء على أغلب ايران وتوفـــى هناك عام ٦٢٥هـ وقد صمم المجلس الذى عين خليفته على ارسال جيش لقتال بقايا القوات الخوارزمية فقاد القائد خرماغون المغول حتى بلغ الشمال الغربى من ايران والعراق واستمرت الغارات والمذابح فى السنوات التالية (٣) ، فلما كانت سنة احدى وخمسين وستمائة وجه

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون المجلد الأول ص٧٨٨
(٢) صبح الأعشى جـ٤ ص٣٣٩ ، ٣٥٧
(٣) ايران ماضيها وحاضرها : لدونالد ولبر ترجمة د . عبد النعيم حسنين

ملك التتار منكوقاآن حفيد جنكيزخان أخاه هولاكو للقضاء على حصون الاسماعيلية وعاصمة الخلافة العباسية فى بغداد فأخضع أمراء ايران والقوقاز الى آخر سنة ثلاث وخمسين وستمائة ثم فتح قلاع الاسماعيلية سنة أربع وخمسين ثم عمد الى بغداد ففتحها وقتل الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين فى المحرم سنة ٦٥٦هـ ثم توجه جنوب الغرب يبغى الشام ومصر واستولى على البلاد حتى كانت موقعة عين جالوت فى فلسطين سنة ٦٥٨هـ فردت الجيوش المصرية والشامية التتار وعلمت المسلمين أن هذا المد والهائل لا يستعصى على الشجاعة والصبر فارتد خطر التتار عن مصر وانحسر شرهم عن الشام سريعا ، ولكن بقى سلطانهم فى العراق واتصل ملكهم من بادية الشام الى التركستان الشرقية ، وكان لهولاكو من هذه الأقطار ما فتحه من حين وجهه أخوه للفتح وهو مابين جيحون الى البحر الأبيض المتوسط ومابين جبال القوقاز الى المحيط الهندى واستطاع هولاكو أن يقيم لنفسه ولذريته من بعده دولة اتخذ ايران مركزا لها وفيها اتخذ لقب ايلخان وهو اللقب الذى انتقل الى خلفائه وأكسب دولتهم اسم " دولة الايلخانيين فى ايران " أو مملكة المغول الايلخانيين ، وقد استمرت هذه الدولة منذ أواسط القرن السابع الهجرى الى منتصف القرن الثامن سنة ٧٤٤هـ حيث توفى آخر ملوكها وهو أبوسعيد عام ٧٣٦هـ ولم تستمر الدولة بعده الا سنوات ضئيلة حارب فيها المطالبون بالعرش من الفروع البعيدة من الشجرة المغولية بعضهم بعضا دون الوصول الى نتائج حاسمة ثم تفرقوا شذر مذر كما يعبر السيوطى (١) وكان أول ملوك هذه الدولة المغولية الايلخانية هو هولاكو الى أن توفى سنة ٦٦٣هـ فخلفه ابنه آباقا الذى حكم من سنة ٦٦٣هـ الى ٦٨١هـ ثم تولى الحكم أحمد تكودار من ٦٨١ هـ الى ٦٨٣هـ وأرغون من ٦٨٣هـ الى ٦٩٠هـ وكيخاتو من ٦٩٠هـ الى ٦٩٤هـ وبايدو من ٦٩٤هـ الى ٦٩٥هـ ثم غازان من ٦٩٥هـ الى ٧٠٣هـ ثم أولجايتو الذى اتخذ لنفسه اسم " محمد خدابنده " من ٧٠٣هـ الى ٧١٦هـ ثم ابنه أبوسعيد من ٧١٦هـ الى ٧٣٦هـ .

وقد كانت دولة هؤلاء المغول الايلخانيين متسعة الأرجاء ، تمتد من نهر السند شرقا الى حدود سورية وأملاك الدولة البيزنطية غربا ومن بحر قزوين والقوقاز شمالا الى بحر الهند جنوبا وتضم ولايات شاسعة ومدنا هامة ، ومن هذه الولايات خراسان وقوهستان وكرمان والعراق العجمى وفارس وخوزستان وآذربيجان والعراق العربى ولم يكن نفوذ هؤلاء

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٣٩٨ ، وقصة الأدب فى العالم ص٥٠٥ ومابعدها وايران ماضيها وحاضرها ص٦٥

الايلخانات على نمط واحد وبدرجة واحدة فى جميع الولايات التابعة لهم ، فمن هذه الولايات ماكان تابعا تبعية مباشرة للمغول خاضعا لهم خضوعا تاما تدار من أول الأمر من قبل الديوان المغولى ، ومن هذه الولايات خراسان والعراق العجمى وقوهستان وأملاك الخليفة العباسى كما أن من هذه الولايات نوعا آخر كانت تحكم فيه أسرات محلية ماكادت تسمع عن المغول حتى هابتهم وماكادت تراهم يتقدمون حتى سارعت الى التزلف اليهم وتقديم واجبات الطاعة لهم وقد كان من نصيب هذه الولايات بقاء أسراتها الحاكمة فيها واكتفاء الايلخانات بالتدخل فى أمر هذه الأسرات ، كلما دعت الظروف الى التدخل والحصول على الجزية والهدايا منها ، وارسال نواب عسكريين لضمان خضوعها ، ومن أمثلة هذا النوع فارس وكرمان وهراة وأرمينية (١) .

ونفهم من هذا كله أن نفوذ المغول الايلخانيين كان كبيرا ، وأنهم كانوا يحكمون جزءا كبيرا من ولايات ايران حكما مباشرا ، بواسطة وزرائهم وأنهم تركوا جهات أخرى داخل ايران وخارجها لحكامها الأصليين واكتفوا بالتدخل فى أمور هؤلاء الحكام كلما دعت مصلحتهم الى ذلك ، وطلب المساعدات والنجدات منهم .

ويتمثل نظامهم السياسى فيما يأتى :ـ

أ ـ الايلخانية : وهذه الكلمة تتركب من مقطعين هما ايل وخان ، ويتفق المؤرخون على أن كلمة خان معناها أمير أو أمير الأمراء ولكنهم يختلفون فى معنى ايل ، وهذه الكلمة طبقا لتفسيراتهم المديدة اما اسم بمعنى قبيلة أو أمة أو سلام ، واما صفة بمعنى عظيم أو قوى أو نشيط أو تابع ، وعلى هذا الأساس تكون كلمة ايلخان معناها سيد القبيلة أو الأمة أو أمير السلام أو الأمير العظيم أو القوى أو النشيط أو الأمير التابع لغيره ، وتكون الايلخانية سيادة القبيلة أو الأمة أو امارة السلام أو الامارة العظمى أو القوية أو النشيطة أو الامارة التابعة لغيرها (٢) .

وقد ظل هولاكو يكتفى بلقب خان فى أول حكمه ، ثم اتخذ لقب ايلخان عندما أنشأ مملكته فى ايران كما أشرنا الى ذلك قبلا ، ومنذه أصبح لقب ايلخان يطلق على خلفائه

---

(١) ايران فى عهد غازان ص٣٩ رسالة دكتوراه للأستاذ مصطفى بدر مخطوطة بجامعة القاهرة تحت رقم ١٩٨ .

(٢) ايران فى عهد غازان ص١٠٧

وأصبحت أسرتهم تسمى الأسرة الايلخانية ، ويختلف المؤرخون فى تحديد نصيب الايلخانات فى حكم الدولة ، فمنهم من يذكر أنهم كانوا حكاما مستبدين يحرصون على جمع السلطة كلها فى أيديهم مثل القلقشندى الذى يقول عن الدولة الايلخانية : " وكان العهد بهذه المملكة لرجل واحد وسلطان فرد مطاع ، وعلى هذا مضت الأيام الى حين وفاة أبى سعيد (١) "

ومنهم من يذكر أنهم كانوا يتركون شئون الدولة للأمراء والوزراء ويقضون أوقاتهم فى اللهو واللعب (٢) .

ب ـ نيابة الايلخانية :

اتخذ الايلخانات نوابا لهم كانوا هم الرؤساء العسكريين والمدنيين ، وكان لايبت فى أمر الا عن طريقهم .

جـ ـ الوزارة :

وجد منصب الوزارة منذ أوائل العهد الايلخانى وان لم يوجد اسم الوزارة ، وكان من يتولى هذا المنصب يسمى صاحب ديوان أو صاحب ديوان الممالك ، وكان الوزير يرأس الادارة المالية كما كان له التصرف فى شغل الوظائف العامة ، وكان للوزير أعوان يساعدونه على تأدية واجباته ، وهؤلاء كانوا يسمون عمال الديوان أو أصحاب الديوان وكان منهم يتألف الديوان أو الديوان الأعلى أو ديوان الممالك الذى كان الوزير فى بادئ الأمر ينسب اليه فيسمى صاحب الديوان (٣) .

هذا وقد كان هجوم المغول احد النكبات الكبرى التى حدثت فى التاريخ فقد خربت على أيديهم فى أول غزوهم للبلاد الآلاف من المدن والقرى ونهبوها ، وكانوا ينشرون الخراب والدمار ويشيعون الفزع والهلع كالنيران المضطرمة والرياح العاصفة وقد صدقت فيهم مقالة الفرس : جاءوا وقتلوا وأخربوا وأحرقوا وحملوا وذهبوا ، ولكن سرعان ما استجاب منهم الايلخانيون للحضارة المحيطة بهم ودخلوا فى الجماعة الاسلامية بعد أن تنازعتهم الأديان

---

(١) صبح الأعشى جـ٤ ص٤٢١
(٢) الحوادث الجامعة ص٣٣٩
(٣) المصدر السابق ص٤٥٧

حينا ، ثم ساهموا فى تأسيس الحضارة وعوضوا على العالم بعض ما أصابه من التدمير والتخريب (١) ، وعلى الرغم مما قام به هؤلاء الايلخانيون فان عصرهم قد اتسم بالثورات المتعددة والفتن والقلاقل والاضطرابات اذ لم يخل عهد من عهود ملوك المغول الايلخانيين من قيام فتن وثورات حتى فى عهد أقواهم وهو غازان (٢) ، ويعلل المؤرخون لهذه الظاهرة فيذكرون أن من أسباب هذه الفتن والاضطرابات كون حكم هؤلاء الايلخانات جميعا فى مجتمع لايحترم مبدأ الوراثة فى ارتقاء العرش ، ويعظم فيه سلطان القواد العسكريين الى حد بعيد ، فقد كان لهم سطوة كبيرة وتأثير فى مجرى الحوادث وخاصة بعد أيام هولاكو وأباقا حين أصبح يرتقى العرش ايلخانات ضعاف وحين قل الاهتمام بالحروب والفتوحات ووجد أمام هؤلاء القواد تهما لذلك الوقت الكافى للتدخل فى شئون الدولة وشئون العرش ومما نستطيع ذكره مثالا لهذه السطوة فى ذلك العهد تلك المؤامرة التى دبرها أحد هؤلاء القواد وكان من نتيجتها قتل السلطان أحمد تكودار وارتقاء أرغون العرش •

ومن الأسباب التى جعلت هذا العصر يزخر بالفتن والمؤامرات وجود بعض الثغرات فى سياسة الحكم حيث كان من عادتهم تولية أكثر من وزير لمهمة واحدة ، وقد أدى ذلك الى التنافس الذى أفضى الى الحقد والضغينة حتى انتهى بهما الى تدبير المؤامرات ومحاولة كل منهما الايقاع بالآخر متى سنحت له الفرصة • ومما نذكره مثالا لذلك ماحدث بين الوزيرين رشيد الدين وعلى شاه فى عهد أبى سعيد حيث قتل رشيد الدين الوزير العالم وابنه الصغير نتيجة لمؤامرة ظالمة وفتنة ماكره نسج خيوطها الوزير الآخر على شاه ، ولو أردنا سرد أمثلة متعددة لألوان المؤامرات والفتن والثورات التى وقعت فى هذا العصر لطال بنا الحديث فلنكتف بهذا القدر الذى عسى ولعل أن أكون قد ألقيت به ضوءا كاشفا على الناحية السياسية لايران فى هذا العصر المغولى الذى عاش فيه الامام شرف الدين الطيبى •

ثانيا : الحالة الاجتماعية :

الناظر الى ايران فى هذا العصر يجد المجتمع الايرانى يتكون من عدة طبقات ،

---

(١) انظر تاريخ الأدب الفارسى ص ١٣٠ ، وقصة الأدب فى العالم لأحمد أمين ص٥٠٥ جـ٢ وسعدى الشيرازى شاعر الانسانية ص٥١

(٢) ايران فى عهد غازان ص٢٠٣

طبقة المغول الايلخانيين وهى الطبقة العليا وعلى رأسها الايلخان وكانت طبقة ممتازة ذات مركز رفيع اكتسبته من كونها طبقة السادة الفاتحين وكان منها الايلخان وزوجاته وأبنـــاؤه وبناته وأقاربه من أمراء وأميرات ورجال بلاطه وقواده وجنوده ، وقد يلحق بهذه الطبقـــة الوزراء وان كانوا فى الغالب من أهالى البلاد الأصليين وقد استأثرت هذه الطبقة بوظائف البلاط ومناصب الدولة العليا وخاصة مناصب حكام الأقاليم • وقد كان المغول طوال العهد الايلخانى مقربين الى البلاط ويشاركون الايلخان فى حله وترحاله وموائده وحفلاته وصيـــده وكانوا فى بدء أمرهم يعيشون عيشة فاسدة فيتدخلون فى أحكام القضاة ويحمون العصـــاة والمجرمين كما كانوا يعملون على الاثراء عن طريق اعطاء أموالهم بالربا الفاحش ولكن قـــوة الحضارة الايرانية وأصالتها قد عملت على تغيير عاداتهم وأخلاقهم التى كانت تتلاءم مـــع أسلوب حياتهم القبلية فبدأوا يعيشون عيشة جديدة لاسيما بعد أن انتشر الاسلام بينهـــم حيث أسلم من ملوكهم تكودار ثم غازان الذى كان اسلامه فتحا مبينا اذ تشرف فى زمنه بشرف الاسلام جميع التتار الخاضعين لحكمته ولم يبق منهم أحد على الكفر بل خرج كلهم مـــن ظلمات الكفر الى نور الايمان وجعل غازان الاسلام هو الدين الرسمى لدولته •

أما الطبقة الأخرى فهم أهل ايران من غير المغول الذين كانوا يخضعون لحكـــم الايلخانات ويكونون السواد الأعظم من رعيتهم كما كانوا يتألفون من عناصر مختلفة فى الصفات البدنية والخلقية وفى نوع الحياة التى يحيونها فكان منهم الزراع والرعاة والصناع والتجار ، وقد أصبحوا فى أول عهد المغول الايلخانيين فى أسوأ حال من جراء الفوضى التى عمت نظم الحكم الايلخانية والفتن والاضطرابات ، والاغتصابات والاضطهادات التى كانت تنزل بهم على أيدى الأمراء المغول والخواتين وخدمهم ولكن هذه الحال لم تستمر بعد تولية غازان جعل الاسلام الدين الرسمى للدولة فصلح به حالها ، وكان غازان يبالغ فى العناية بالرعية وعدم انزال أى لون من ألوان الظلم والجور بها (١) •

<u>ثالثـــا : الحالة العلميـــة :</u>

اذا تحدثنا عن ايران ــ موطن الطيبى ــ من الناحية السياسية والاجتماعية فـى

---

(١) انظر ايران فى عهد غازان ص٢٥٧ ، ايران ماضيها وحاضرها ص٦٦ وتلفيق الأخبار وتلقيح الآثار ص٤٧٠ •

العصر الذى عاش فيه صاحبنا شرف الدين الطيبى عصر المغول الايلخانيين فالجدير بنـا فى هذا الصدد أن نتحدث عن ايران خلال هذا العصر من الناحية العلمية فنقول :

على الرغم من تلك الأحداث التى دهمت ايران على أيدى المغول كما ذكرنا سابقـا وعلى الرغم مما أصاب الأقاليم من التخريب والتدمير وما اكتنف هذا العصر من فتن وقلاقـل وثورات على الرغم من هذا كله نجد العلوم والمعارف ظلت مزدهرة فى هذا العصر بل كانت هذه الفترة من التاريخ غنية غنى هائلا بالانتاج الأدبى (١) ، وما ذلك الا لتقدير ملـوك المغول للعلم والعلماء وتشجيعهم على البحث فى شتى فروع المعرفة حتى أولئك الملـوك الذين عرفوا بقسوتهم وغلظتهم فى فتوحاتهم يقول القلقشندى عن جنكيزخان :

" وأما عاداتهم فى الأدب فكان من طريق جنكيزخان أن يعظم رؤساء كل ملة ويتخـذ تعظيمهم وسيلة الى الله تعالى ومن حال التتر فى الجملة اسقاط المؤن والكلف عن العلويين وعن الفقهاء والفقراء والزهاد والمؤذنين والأطباء وأرباب العلوم على اختلافهم ومن جـرى هذا المجرى " (٢) . وهذا مؤرخ معاصر يقول عن هولاكو : " على الرغم مما يحكيـه تاريخ هولاكوخان من قسوة وغلظة وتعطش للدماء ، فان هذا الغازى المغولى كان يحـب تشييد الأبنية وتشجيع العلماء والحكماء على مواصلة البحث والدرس اذ كان يخصص لهـم الرواتب ، ويغدق عليهم الهبات ، ويزين مجلسه بحضورهم كما كان يميل الى علوم الحكمـة والنجوم والكيمياء ، ويصرف بسخاء فى سبيل تقدم هذه العلوم وليس أدل على هذا الشغف من أنه عهد الى العالم الرياضى الفلكى نصير الدين الطوسى ببناء مرصد عظيم فى مدينـة مراغة " (٣) ، بل يذهب بعض المؤرخين الى أن هذا العصر من الناحية الحضارية يعـد أزهى عصور ايران حيث وقفت فى الصف الأول من حضارة العالم فيقول : " اذا كان فـى تاريخ ايران عهد وقف فيه الشعب الايرانى فى الصف الأول من حضارة العالم فهو العهـد المغولى مع أن كثيرا من العلماء يذهبون الى أن المغول لم يعملوا فى ايران غير تخريـب الحضارة " (٤) .

أقول لعل أولئك المؤرخين الذين عناهم بارتولد قد وقعوا فى هذا الخطأ نتيجـة

---

(١) ايران ماضيها وحاضرها ص٧١
(٢) صبح الأعشى جـ٤ ص٣١١
(٣) المغول فى التاريخ من جنكيزخان الى هولاكو للدكتور فؤاد الصياد ص٢١٦
(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية تأليف بارتولد ترجمة حمزة طاهر ص٩٨

لمقايستهم للحضارة والعلوم مع الانقلابات التي تحدث في الأمم والعصور فكلما وجد تخريب وتدمير رأوا فيهما تأخرا وتدهورا في العلوم والحضارة ، وبهذا يكونون قد ربطوا بين الحياتين السياسية والعلمية ربطا طرديا لكن الناظر الى عصر المغول الايلخانيين بعين الانصاف يستطيع أن يثبت فساد هذا الرأي لوجود مظاهر متعددة للتقدم العلمي في شتى فروع المعرفة وقد انبرى بعض المؤرخين لتفنيد هذا الرأي وللتوفيق بين التخريب والقلاقل في هذا العصر وبين ما وجد فيه من تقدم علمي فقال : " ان قلت ان طائفة التتار قد خربوا الدنيا وقتلوا العلماء وسفكوا الدماء ، وفعلوا من القبائح مالم ير مثله في كتب التواريخ منذ خلق آدم عليه السلام فكيف يوجد في زمنهم العلماء الكرام ؟ وقد قيل ان بعد ظهورهم وفتنهم انطمست آثار العلوم وانمحت من عرصة الوجود المعارف والفنون قلت أما ما ذكرت من كثرة الفتن وشدة المحن والقتل والتخريب في أول ظهورهم صحيح لا شبهة فيه ولكن لم يؤثر ذلك في انتقاص العلوم وطرو الخلل في المعارف والفنون بل العلوم والمعارف جارية بعد ظهورهم على ما هي عليه قبل خروجهم فان خروجهم لم يكن لمعاداة الدين ولا لبغض الاسلام والمسلمين ..... فالذي بلغ أجله من العلماء وكتب له الشهادة قتل فيما تلك المعارك وأما أنهم قتلوا العلماء قصدا فحاشاهم عن ذلك بل انهم قصدوا خوارزم أرسلوا الى الشيخ أبي الجناب نجم الدين الكبرى قدس سره عرضوا عليه أن يخرج من البلد بجميع أتباعه بالغين ما بلغوا ولكنه أبى بنفسه عن ذلك .... وقد قبلوا كلام علماء سمرقند وبخارى حين خرجوا اليهم بالاستئمان وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأتباعهم وأشياعهم .. وقد كان وزراؤهم الذين كانوا (١) يديرون أمور المملكة الداخلية من جباية الخراج ونصب القضاة والمفتين والمدرسين والأئمة والمؤذنين كلهم من المسلمين حتى في أصل مملكة جنكيزخان .... وكانوا يجرون العلوفات والمعاشات على كل أحد حسب استحقاقه ويجزلون أعطية المشاهير من العلماء ويغنونهم ، وقد انتشرت أنوار الاسلام الى أقصى الصين بواسطتهم ، وهؤلاء المسلمين الموجودون في وسط بلاد الصين حتى في نفس بكين ينوفون على ملايين انما تشرفوا بخلعة الايمان والاسلام وبنيت لهم المساجد والجوامع حين كانت أحكامهم تجري هناك وان قال في ذلك القائلون الجاهلون بالأمور التاريخية غلطا وراموا شططا ، وقد اعترف المؤرخ كارامزين بانكبابهم في العلوم والفنون خصوصا الرياضيات منها

---

(١) نقلت النص كما جاء صارفا النظر عما يتضمنه من ركاكة .

قبل فراغهم من فتح البلدان ، وهذا هولاكو الذي هو أشدهم على المسلمين كان في عصره ومصره ألوف من العلماء من جملتهم القاضي البيضاوي الذي أكب الناس طرا على تفسيره المؤلف في ذلك العصر والمصر ، ومن الفلاسفة نصير الدين الطوسي الذي أكب جميع المتفلسفين الى تآليفه وسموه محققا ، ولا تخفى مرتبته عند الطاغية هولاكو وليس انكباب الناس على تأليفهما لعدم تأليف من قبلهما في التفسير والفلسفة فانه كثيرا جدا بل لما حوى من درر التحقيقات وغرر الدقيقات ولم يستنكف من تسليم ولده تكودار الى الدراويش ليربوه كما شاؤا فربوه ولقنوه الاسلام فأسلم وسمى أحمد .... ومن علماء تلك الشيمة العلامة قطب الدين الشيرازي والعلامة قطب الدين الرازي والقاضي عضد الدين الأيجي أصحاب تآليف مشهورة في المنطق والكلام والأصول والتفسير وغيرها ، وقد أكب الناس شرقا وغربا في الفنون المذكورة على تآليفهم الى الآن ، ومن علمائهم صاحب مشكاة المصابيح الشيخ ولي الدين التبريزي وشارحه الطيبي وقد نور المشكاة بنوره المشرق المغرب والمشرق ، وقس على ذلك سائر الفنون من الصرف والنحو والبيان والفقه والتصوف وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن السلطان خدابنده كان يأخذ معه الى جميع أسفاره خيمتين يدرس في احداهما على المذهب الحنفي وفي الأخرى على المذهب الشافعي ويسميان بالمدرسة السيارة ، وكان طعام الطلبة المذكورين هناك ووظائفهم من مطبخه وخزائنه ، وكان يخدم بنفسه الشيخ علاء الدولة السمناني والشيخ صفي الاردبيلي والشيخ أوحد الدين الكرماني والشيخ العلامة الكاشاني مع أنه كان متصفا بالرفض والتشيع " (١) .

ونلاحظ أن هذا المؤرخ يكاد يلتقي في توفيقه بين ماكان يوجد في الناحية السياسية من خراب ودمار وبين ما وجد في الناحية العلمية من تقدم وازدهار مع رأى للدكتور رضا زاده شفق حاول به تحليل التناقض بين الناحيتين حيث ذكر فيه أن المغول كانوا في بدء حركاتهم من القوم المتوحشين سفكة الدماء ولكنهم بعد أن توطنوا في ايران واندمجوا في الناس وأخذوا يتقبلون أفكارهم تغيرت طباعهم وتدرجوا تدريجيا في اعتناق المدنية الاسلامية والايرانية ، وأخذوا يصطحبون العلماء وصار بعضهم من رجال الفضل وطلاب المعرفة وعاش كثير من العلماء في كنفهم ورعايتهم ، حتى لقد اختاروا جماعة من كبار الايرانيين وذوى المكانة فيهم الى كرسى

---

(١) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار جـ٢ ص٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤

الوزارة والامارة أمثال نصير الدين الطوسي وشمس الدين محمد الجويني صاحب الديوان وابنه عطا ملك الجويني ، ورشيد الدين فضل الله فلا عجب اذن أن ظهر في عصرهم مع كل هذا التدمير والتشتيت كثير من الأدباء ورجال العلم (١) .

ونفهم مما سبق أن روح هؤلاء الغزاة بالنسبة لكبار الشخصيات والبرزين في الدول التي فتحوها وخاصة ايران كانت روح مسالمة سلكت في الابقاء عليهم منهجا سليما لاغبار عليه ، وبهذا فتحوا الطريق أمام موكب الحضارة العلمية وكثيرا ما كانوا يستجيبون لرغبات كبار الشخصيات حتى في أحرج الظروف وأشق المواقف ومن أيامهم الأولى وهم يعملون على الاندماج في الجماعة الاسلامية ويتخيرون من بينهم رجالا يقومون بتوجيه شئون الدولة ، وعلى الرغم مما أصيب به هذا العصر من أحداث شهد وفرة من أجلة العلماء الذين برعوا في مختلف العلوم سواء كانت نظرية أو عملية وهذا يدل على أن البيئة نفسها وحسن معاملة الحكام للرعايا والعلماء بصفة خاصة كان يهيىء لهذه الكثرة حسن التحصيل وغزارة الانتاج العلمي وهذا ما حدث اذ نرى كثرة العلماء في شتى فروع المعرفة ، ولنتحدث الآن عن أهم ألوان المعرفة في هذا العصر تدليلا على ازدهار الحالة العلمية فيه :

١ ـ التاريخ :

لقى علم التاريخ عناية كبيرة فاقت العناية بسائر العلوم في هذا العصر ، وتفتحت الحياة لرجال التاريخ كما تفتحت صدور الحكام لهم ، وتقلب أغلبهم في كثير من المناصب الرفيعة وابتسم لهم الحظ ونال بعضهم مركز الوزارة ، وتمكن هؤلاء بحكم مناصبهم في الدولة أن يشاهدوا الأحداث وأن يلموا بها الماما عيان ، كما فتحت لهم أبواب خزائن الكتب وزودوا بكل مايطلبون ليقوموا بأعمالهم العملية على الوجه الذي يرتضيهم ، وهناك كثرة ملحوظة من الكتب القيمة التي ألفت في ذلك العصر ، والتي تعد عمدة المراجع التاريخية باللغة الفارسية فيما دار خلاله من حوادث ، وهي في ذاتها دليل قاطع على ماكان عليه سادة الحكم من رغبة صادقة في تشجيع العلم والتوسع على العلماء وابلاغ بعضهم أسمى المناصب وقد أشار كثير من مؤرخي الآداب الذين عرضوا للحديث عن عصر المغول الى هذه

---

(١) انظر تاريخ الأدب الفارسي د . رضا زاده شفق ص١٣١

الظاهرة فى معرض كلامهم على الحركة العلمية يقول بعضهم : " والذى يثير اعجاب المؤلف فى هذه الحقبة ، التأليف التاريخى وحده فقد عنى التتار بتسجيل أخبارهم وتدوين مآثرهم وتعريف الناس بسير آبائهم فألفت كتب فى التاريخ هى أحسن ماأنتجه عصر من عصور ايران " (١) .

ومن أهم الكتب التاريخية التى ظهرت فى هذا العهد مايلى :ـ

أ ـ جهانكشا : هو أحد كتب التاريخ الهامة فى هذا العصر ومؤلفه علاء الدين عطا ملك الجوينى ، كان فى خدمة أمراء المغول وخاصة هولاكوخان وأباقا خان ومنحوه حكومة العراق العربى من قبلهم كما اسندت اليه بعض أمور أخرى ويقع هذا الكتاب فى ثلاثة مجلدات ، شرح فيها المؤلف ظهور المغول وعاداتهم وأخلاقهم وتاريخهم وخاصة جنكيزخان ومضى حتى حوادث سنة ٦٥٥هـ ، كذلك أثبت فيه تاريخ الخوارزمشاهيين والاسماعيلية وقد أدت شهرة هذا الكتاب الى أن اعتمد عليه الكثيرون من المؤرخين المشهورين فرجعوا اليه فى مواضع كثيرة وتوفى عطاملك سنة ٦٨١ هـ بآذربيجان ودفن بمقبرة سرخاب بتبريز (٢) .

ب ـ جامع التواريخ :

هو أحد المؤلفات الهامة المشهورة بالفارسية ويقع فى مجلدين كبيرين ، ويشمل تاريخ العالم وخاصة تاريخ المغول وتفصيل ملك غازان ، ومؤلفه رشيد الدين فضل الله الهمذانى وكان مقربا لدى سلاطين المغول أمثال آباقا وغازان والجايتو ، وكان له منصب الوزارة فى عهد غازان وانتهى من تأليفه سنة ٧١٠هـ ، وكان المجلد الثالث من هذا الكتاب فى الجغرافيا وهو غير موجود الآن ويعد " جامع التواريخ " أهم كتاب فى تاريخ المغول على أن رشيد الدين لم يكن من الوزراء الكبار ورجال السياسة فى ايران أو من مشاهير المؤرخين المحققين فحسب بل كانت له كذلك دراية كافية فى العلوم والفنون الأخرى كما أنه قد ألف مؤلفات هامة مفيدة فى المسائل الدينية والأدبية ، وقد قتل هذا الوزير العالم بتبريز سنة ٧١٨ هـ بأمر السلطان أبى سعيد اذ وشى به حساده وأعداؤه .

---

(١) قصة الأدب فى العالم لأحمد أمين وزكى نجيب جـ ٢ ص٥١٣

(٢) انظر تاريخ الأدب الفارسى ص١٩٠

ج ـ تاريخ وصـاف :

هو تأليف الأديب شهاب الدين عبد الله الشيرازى الملقب بوصاف الحضرة ، كان معاصرا لرشيد الدين فضل الله واكتسب محبته وقربه من السلطان أولجايتو ويعد تاريخ وصاف متمما لكتاب جهانكشا ، فهو يعرض لحوادث فتح بغداد على يد هولاكو الى سنة ٧٢٨هـ أى حتى عصر آخر ملك مغولى معروف هو أبو سعيد .

د ـ تاريخ كزيدة :

ألف بعد تأليف جهانكشا وجامع التواريخ وتاريخ الوصاف ، كما كتب على نمط أسلوبها وقد انتهى هذا الكتاب سنة ٧٣٠ هـ ولهذا تضمن فى نهايته حوادث جديدة ، ومؤلف هذا الكتاب هو حمد الله المستوفى القزوينى ، وله مؤلف آخر فى التاريخ يحتوى الأحداث الهامة منذ أول الاسلام الى عصر المغول ، نظمه على نسق الشاهنامة ويقع فى خمسة وسبعين ألف بيت وقد انتهى منه سنة ٧٣٥هـ سماه " ظفرنامه " كما أن له مؤلفا فى الجغرافيا فى وصف بلاد ايران وطرقها باسم " نزهة القلوب " ألف سنة ٧٥٠هـ وتوفى حمد الله المستوفى بقزوين سنة ٧٥٠هـ .

٢ ـ التصـوف :

كان التصوف من ألوان الثقافة التى نالت اهتماما خاصا فى عصر المغول ، فقد ظهرت فى هذا العصر أحسن معانى التصوف وألطفها فى الشعر الفارسى وظهر كذلك أشهر الشعراء الصوفيين وجانب ذلك نجد علماء كثيرين تناولوا التأليف فى التصوف منهم نجم الدين الرازى وهو الشيخ نجم الدين أبوبكر عبد الله بن محمد الرازى كان من رجال الصوفية فى عصره وله فى عقائد التصوف ومعانيه كتاب " مرصاد العباد من المبدأ الى المعاد " وتوفى سنة ٦٤٥هـ ومنهم نصير الدين الطوسى وهو أبو جعفر نصير الدين محمد بن محمد ابن حسن الطوسى ولد سنة ٥٩٧هـ بضواحى قم وبلغ قدرا كبيرا فى علوم الفلسفة والرياضة والنجوم ، وانتظم فى الطبقة الأولى من فلاسفة ايران وعلمائها وكان من المقربين لهولاكوخان ومن مؤلفاته فى التصوف " رسالة أوصاف الأشراف " وقد توفى عام ٦٧٢هـ .

٣ ـ الأدب والشعر والبيان :

كان للأدب نصيب من هذا التقدم العلمي في عهد الدولة المغولية الايلخانيـــة اذ عاش في ذلك العصر عدد كبير من الشعراء والأدباء وان كان أغلبهم من الشعراء المتصوفة ، من هؤلاء : جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٢هـ كان شاعرا صوفيا كبيرا ومؤسســـا للفرقة المولوية التي تعرف باسم الدراويش وقد ظل نفوذهم قويا في آسيا الصغرى عـــدة قرون ، وتسمى منظومته الطويلة التي تشغل ستة كتب بالمثنوى وهو اسم ضرب من الشعـــر القصصي يتكون من أبيات يكون البيت فيها مقفى بين شطريه ويعتبر المثنوى الكتاب الأساسي للتصوف الفارسي وكان الرومي صوفيا فخصص أجزاء كثيرة من المنظومة لخدمة هدفه الوحيـد ، وهو تقوية الأخلاق ، والحقائق الصوفية .

ومنهم سعدى الشيرازى الذى يعد ألمع جوهرة بين سائر جواهر الأدب الفارســي ، وقد ولد في شيراز وأمضى شبابه في الدراسة ثم قام بسلسلة من الرحلات الطويلة ، ثـــم رجع الى شيراز وقضى بقية حياته فيها متمتعا باحترام الحكام المحليين وتقدير آباقا الـــى أن توفى سنة ٦٩٠هـ ، ومن آثاره الأدبية كتابه " كلستان " أو روضة الورد و " بوستـــان " أو الحديقة . ومنظومات أخرى صوفية وأخلاقية كثيرة والكلستان وهو النموذج الرفيع الـــذى احتذاه النثر الفارسي في العصور اللاحقة عبارة عن مجموعة من الحكايات المكتوبة نثـرا . ولكنها تشتمل على مقطوعات من الشعر ، أما البوستان فشعر جميعه يمجد فيه العدل والمساواة والتواضع والبساطة والتربية والعبادة والتفكر وغيرها من الموضوعات (١) .

ومن هؤلاء الشعراء والأدباء الذين لمعوا في عصر المغول الايلخانيين همام الـــدين التبريزى كان من أدباء آذربيجان وشعرائها المشهورين ماهرا في فن الغزل على الخصـــوص وتتبع آثار السعدى واعترف له برقة العبارة فيقول :

لهمام كلام رقيق المعنى ، فاتن ، جذاب

لكن ما الفائدة ؟ فان المسكين ، ليس الى شيراز ينسب

وهذا نراه يعترف في هذا البيت بشهرة معاصره السعدى الشيرازى ومبلغ ما وصل اليه ، ويشتمل ديوان همام قرابة ألفي بيت من الشعر وله كذلك منظومة باسم " صحبت نامه " جعلها باســـم

---

(١) انظر ايران ماضيها وحاضرها ص٧١ ، ٧٢ ، وتاريخ الأدب الفارسي ص١٥٥

شرف الدين هارون بن شمس الدين الجويني صاحب الديوان ، وقد كان كذلك من مشاهير أدباء عصره وعمر الشاعر طويلا وتوفي بتبريز سنة ٧١٣هـ . وغير هؤلاء كثير مما يطول بنا الحديث لو تتبعنا آثارهم الأدبية فلنكتف بهذا القدر اذ غرضنا تقديم نماذج فقط من رجال كل لون من ألوان المعرفة .

أما عن البيان فان الناظر في تاريخ ايران في هذه الفترة يجد البلاغة تدور في فلك مدرسة السكاكي مابين شرح للمفتاح أو تلخيص له ولنذكر على سبيل المثال من هذه المؤلفات شرح المفتاح للشيرازي سنة ٧١٠هـ والفوائد الغياثية لعضد الدين الأيجي سنة ٧٥٦هـ.

٤ ـ العلوم الدينيـــــــة :

لقيت العلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه والأصول والتوحيد عناية في هـــــذا العصر لاسيما بعد أن انتشر الاسلام بين المغول وأصبح الدين الرسمي للدولة فكان طبيعيا أن يعكف العلماء على التأليف فيه ، وممن برزوا في هذا المجال القاضي البيضاوي من أهل بيضاء بفارس وشغل في شيراز مركز قاضي القضاة ويعد من الفقهاء وكبار المفسرين في العالم الاسلامي ومن مؤلفاته المشهورة كتاب التفسير المسمى " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " ثـم " طوالع الأنوار ومطالع الأنظار " في التوحيد و " منهاج الوصول " وهو في علم الأصـــول وأمضى البيضاوي الجزء الأخير من حياته في تبريز وتوفي بها سنة ٦٨٥هـ (١) .

ومنهم الشيخ ولي الدين أبوعبد الله محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي حيث قـــام بشرح مصابيح السنة للامام البغوي وسماه " مشكاة المصابيح " وكان ذلك في ٧٣٧ هـ ومنهم الطيبي الذي شرح المشكاة وسمى شرحه : " الكاشف عن حقائق السنن " وله أيضا في هـذا المجال " الخلاصة في أصول الحديث" (٢) .

وممن نستطيع عدهم ضمن من نهضوا بالتأليف في مجال العلوم الدينية في هذا العصر رشيد الدين فضل الله الهمذاني الوزير ، ومن مؤلفاته الدينية أربعة مؤلفات توجد في مجلد واحد تعرف باسم المجموعة الرشيدية وهي كتاب التوضيحات . كتبه المؤلف بناء على طلـــب أولجايتو وهو يقع في ديباجة وتسع عشرة رسالة كلها في تفسير بعض الآيات القرآنية والأحاديث

---

(١) انظر تاريخ الأدب الفارسي ص ١٩٨
(٢) كشف الظنون ج٢ ص١٦٩٨

النبوية وغيرها من المسائل الدينية المهمة مثل : أمية الرسول • والمعراج • وكتاب " مفتاح التفاسير " ويشتمل على ثماني رسائل في بلاغة القرآن الالهية ومفسريه وطرقهم والخير والشر والجزاء والعقاب واطالة العمر والجبر والقدر والتناسخ والبعث " الرسالة السلطانية " وتشتمل على أصل وذيل وتتناول الكلام على الأنبياء والرسل والخلفاء ومراتبهم وأهل الجنة وأهل النار وأخيرا " كتاب لطائف الحقائق " ويقع في فاتحة وديباجة وأربع عشرة رسالة يبحث في مسائل دينيه وصوفيه مثل الحشر والوحدانية والمعجزات النبوية •

٥ ـ الأخلاق والفلسفة بفروعها :

لقد راجت المؤلفات بالعربية والفارسية في علوم الأخلاق قبل هذا العصر ونجد كذلك فلاسفة وعلماء هذا العصر قد ألفوا في هذا الموضوع ، منهم نصير الدين الطوسي حيث وضع كتابه " أخلاق ناصري " وهو كتاب في أصول الأخلاق وله في مجال الفلسفة " شرح الاشارات " لابن سينا في المنطق ، وممن كتبوا في الفلسفة قطب الدين الشيرازي المولود بشيراز ٦٣٤هـ والمتوفى بتبريز ٧١٠هـ ومن مؤلفاته في الفلسفة : " شرح حكمة الاشراق " لشهاب الدين السهروردي •

هذا ولم تكن العلوم الأخرى كالطب والفلك والرياضيات والزراعة وغيرها من العلوم العملية أقل أهمية من السابقة فقد عني بها المغول من أول عهدهم فنجد للطب مكانة عظيمة لدى ايلخانات فارس جميعا ، وكانوا يتخذون في بلاطهم أطباء خاصين منهم رشيد الدين الذي اتخذه غازان وزيرا تقديرا منه للطب والأطباء ، وقد ألف رشيد الدين في الطب كتابه " الأدوية المفردة " كما كتب عن الجدري ولقطب الدين الشيرازي شرح " قانون ابن سينا " في الطب وكذلك لقيت الرياضيات والطبيعة والزراعة اهتماما في هذا العصر فبحثها كثير من العلماء وكتبوا فيها منهم نصير الدين الطوسي وله " تحقيق اقليدس " في الهندسة والطبيعي له رسالة في الحساب كما أن رشيد الدين الوزير كتب في مؤلف له يسمى : " الآثار والأحياء " عن الزراعة والحشرات والمعادن ، وفي الرسالة الرابعة من كتاب " لطائف الحقائق " والثانية عشرة من كتاب " بيان الحقائق " كتب في الطبيعة (١) •

---

(١) انظر تاريخ الأدب الفارسي ص١٩٩
وايران في عهد غازان ص٣٤ ومابعدها •

وخلاصة القول أن هذا العصر كان زاخرا بكثرة كاثرة من العلوم النظرية والعملية كما يبدو لدارس عصر المغول • هذا العصر الذى عاش فيه صاحبنا الامام الطيبى رحمه الله يدل هذا كله على تقدم وازدهار فى الحياة العلمية لهذا العصر بايران •

واذ أدرنا الحديث فى هذا الفصل عن شرف الدين الطيبى من حيث حياته وعصره فاننا سنتحدث عن كتابه " التبيان فى البيان " فى الفصل الآتى وما هو ببعيد •

****

****

****

الفصل الثانــــى
كتاب التبيان فى البيان للطيـــــبى

تحقيق عنوان الكتــــاب :

الناظر فى الكتب التى ترجمت للامام الطيبى محددة مؤلفاته ، أو فهارس المكتبـــات التى ذكرت هذا الكتاب ، أو كتب البلاغة التى نقلت عنه يجد أن هذا الكتاب قد وردت له عناوين ثلاثة :

١ ــ التبيان فى علمى المعانى والبيان .

٢ ــ التبيــــان .

٣ ــ التبيان فى البيــان .

وهذه العناوين الثلاثة وان أمكن التوفيق بينها بما لايترتب على اختلافها أى تناقض مادامت متفقة على مضمون الكتاب لكن هذا لايمنع من البحث عن عنوان محدد وضعه المؤلــف لكتابه ، وبالبحث فى الكتاب ذاته وجدت الطيبى قد سمى كتابه فى المقدمة " التبيان فــى البيان " وذلك حيث يقول وهو يتحدث عن كتابه هذا : " فجاء بحمد الله نورا لحدقـــة التبيان ونورا لحديقة البيان فوسمته بالتبيان فى البيان والله أسأل الارشاد الى المــراد والعصمة من الخلل فى الاصدار والايراد ، انه ولى التوفيق وبيده أزمة التحقيق " (١) .

وبهذا أقرر مطمئنا أن عنوان الكتاب هو التبيان فى البيان وليس التبيان فى المعانى والبيان ولعل ذلك من زيادة النساخ ، أما وروده باسم التبيان فاخاله من باب الاختصار .

توثيق نسبة الكتاب الى الطيبى :

يمكن أن نثبت أن كتاب " التبيان فى البيان " من تأليف الامام شرف الدين الطيبى بما يأتى :ــ

١ ــ اشارة كتب التراجم والفهارس من أن للطيبى كتابا اسمه التبيان مع ذكرها مقتطفات منـه

---

(١) التبيان فى البيان الورقة الثانية .

تتفق مع ماجاء فى كتاب " التبيان فى البيان " من هذه الفهارس والكتب .

فهرس دار الكتب المصرية جـ٤ ص١٤٩ ط أولى سنة ١٣٠٧هـ ، فهرس معهد المخطوطات ، وكتاب " كشف الظنون " لحاجى خليفه حيث قال : " التبيان فى المعانى والبيان للعلامة شرف الدين حسين بن محمد الطيبى المتوفى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وهو مختصر مشهور أوله الحمد لله الذى أشرقت بسناء محامده "الخ (١) .

٢ ــ وجود النصوص أو الآراء التى نقلها عنه المتأخرون فى كتبهم متفقة معها فى كتاب " التبيان فى البيان " . وممن نقلوا آراء أو نصوصا من الكتاب هؤلاء :

بهاء الدين السبكى فى كتابه " عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح " حيث نص فى مقدمة كتابه أن من مصادره كتاب التبيان للشيخ شرف الدين الطيبى (٢) . وقد وجدته ينقل عنه فى مواضع متعددة من الكتاب ، من ذلك ماعلق به على قول أبى تمام :

لا والذى هو عالم أن النوى .. صبر وأن أبا الحسين كريم

حيث قال : " وقد بالغ الطيبى فى استحسانه اشارة الى أنه جمع بين متضادين هما مرارة النوى وحلاوة كرم أبى الحسين فأبرزهما فى معرض التوخى كالجمع بين الضب والنون " .
كذلك نقل عن الطيبى وهو يعدد وجوه فضل قوله تعالى : " ولكم فى القصاص حياة " على قولهم : القتل أنفى للقتل حيث قال : " السادس عشر أنها رادعة عن القتل والجرح قاله الامام فخر الدين وغيره والضرب قاله الطيبى " (٣) .

وممن نقلوا من كتاب التبيان العلامة طاشكبرى زاده فى كتابه : " مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم " حيث قال : " قال الطيبى فى التبيان الايجاز الخالى من الحذف ثلاثة أقسام أحدها ايجاز القصر وهو أن يقصر اللفظ على معناه كقوله تعالى (انه من سليمان) الى قوله (وأتونى مسلمين) جمع فى أحرف العنوان والكتاب والحاجة . الثانى ايجاز التقدير وهو أن يقدر معنى زائد على المنطوق ويسمى التضييق أيضا ..... الثالث الايجاز الجامع وهو أن يحتوى على معان متعددة " (٤) .

---

(١) كشف الظنون المجلد الأول ص ٣٤١ وانظر التبيان فى البيان الورقة الأولى .
(٢) انظر شروح التلخيص جـ١ ص٣١
(٣) شروح التلخيص جـ١ ص٣٥٦ ، جـ٢ ص١٨٩ وانظر التبيان فى البيان الورقة ٢٤ ، ٢٨
(٤) مفتاح السعادة جـ٢ ص٤٥٩ وانظر التبيان فى البيان الورقة ٢٧ ، ٢٨

ومن نقوله عن الطيبى قوله : " قال الطيبى فى التبيان ووجه حسن الاعتراض حسن الافادة مع أن مجيئه مجئ مالا يرقب فيكون كالحسنة تأتيك من حيث لاتحتسب " (١) .

وممن نقلوا كذلك من كتاب التبيان فى البيان مصرحين بنسبة الكتاب الى الطيبى فى أثناء نقلهم مع ملاحظة الاتفاق التام بين المنقول والمنقول منه من هؤلاء :
أبوجعفر الغرناطى فى كتابه " طراز الحلة وشفاء الغلة " مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٨ بلاغة ، ومنهم السيوطى فى كتابه " شرح عقود الجمان " ، وابن معصوم فى كتابه " أنوار الربيع فى أنواع البديع " ولاأريد هنا عرض النصوص الدالة على نقل هؤلاء الثلاثة وتأثرهم بالطيبى فانى سأقوم بذلك عند الموازنة بينهم وبين الطيبى فى كتابه هذا فى الفصل الثالث الذى سأتحدث فيه عن : ((الطيبى فى كتابه التبيان بين التأثر والتأثير)) .
٣ ـ ذكر صاحب كشف الظنون أن كتاب التبيان للطيبى قد شرحه أحد تلاميذه وهو على بن عيسى وسماه " حدائق البيان " (٢) ، وبالبحث عثرت على هذا الشرح مخطوطا بمعهد المخطوطات تحت رقمى ٣٤ ، ٣٥ وبالاسكوريال فى أسبانيا رقم ٢٢٤ وبالتأمل فى النصوص المذكورة فيه من كتاب التبيان وجدتها متفقة تماما مع مايقابلها من النصوص فى كتاب " التبيان فى البيان " فتأكد لدى أن كتاب التبيان فى البيان للامام شرف الدين الطيبى .

وبهذه الأدلة الثلاثة السابقة يثبت بمالايدع مجالا للشك أن كتاب التبيان هو للامام شرف الدين الطيبى .

مصادر كتاب التبيان فى البيان للطيبى :

بالتأمل فى كتاب " التبيان فى البيان " عامة وفى مقدمته خاصة نستطيع التعرف على المصادر التى استقى منها الطيبى كتابه والمراجع التى نهل منها ، وقد نص على بعض هذه المصادر فى المقدمة حيث قال : " وان كتابى اذا تركت المراء واتبعت الهدى قلت هو بديع فى اغرابه واذا رمقت بعين الرضا وجانبت الهوى خلته مفردا فى بابه لما ضمنته من مباحث

---

(١) مفتاح السعادة جـ٢ ص٤٨٥ وانظر التبيان فى البيان الورقة ٨٩
(٢) كشف الظنون المجلد الأول ص٣٤١

المفتاح ماكان أصولها ومن مثافث الكشاف ماآض محصولها ورشحته بما في المصباح والايضاح من النوادر ، ووشحته بزبدة النهاية والمثل السائر ، وعقلت ماشذ على بعضهم من الأوابد "(١)٠

وبهذا أفادنا الطيبي أن مصادر كتابه هي :ـ

١ ـ المفتاح للسكاكي　　٢ ـ الكشاف للزمخشري

٣ ـ المصباح لبدرالدين بن مالك　　٤ ـ الايضاح للخطيب القزويني

٥ ـ نهاية الايجاز في دراية الاعجاز للرازي　　٦ ـ المثل السائر لابن الأثير

ولكن بالنظر في تضاعيف الكتاب نجد الطيبي قد نقل نصوصا من مصادر أخرى غير المصادر المتقدمة مما يدل على أنه لم يرد بهذه المصادر المذكورة في المقدمة الاقتصار عليها وانما أراد التمثيل بأهمها ، اذ من مصادر الكتاب أيضا ٠

٧ ـ تحرير التحبير لابن أبي الاصبع　　٨ ـ الوشي المرقوم لابن الأثير

٩ ـ تفسير الرازي　　١٠ ـ اعراب القرآن للزجاج

١١ ـ أمالي ابن الحاجب　　١٢ ـ كتب الراغب الأصفهاني

١٣ ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي　　١٤ ـ الكتاب لسيبويه

١٥ ـ مجمع الأمثال الميداني　　١٦ ـ يتيمة الدهر للثعالبي

++++++++++

هذا عدا المصادر التي أشار اليها ولم نهتد الى مكان وجودها أو الآراء التي صرح بها منسوبة الى أصحابها دون ذكر مصدرها ولم نهتد اليه كذلك مما يدل على أن هناك مصادر أخرى للكتاب غير موجودة الآن ككتاب اللمع ٠

وهذا التعدد للمصادر يدل لنا على أن الرجل كان ذا ثقافة واسعة بكتب الأقدمين وآراء السابقين ٠

---

(١) التبيان في البيان الورقة ٢

وصف نسخ الكتاب التى اعتمدت عليها فى التحقيـــق :

لقد عثرت على خمس نسخ لكتاب " التبيان فى البيان " وأقدم هذه النسخ هـى التى جعلتها أصلا حيث كتبت فى حياة المؤلف ، ولذا قدمتها على غيرها على الرغم مما بها من خروم ثم رمزت للنسخ الباقية بالحروف التالية : أ ، ب ، جـ ، د

ووصفها بالترتيب كالآتى :ـ

أولا : النسخة الأصـــل :

وقد وجدت بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٧٣٥ هـ وهى مخطوطة بقلم تعليـــق (فارسى) معتاد وتمت كتابتها يوم الخميس السابع عشر من ربيع الأول سنة ٧٤١هـ وكاتبها هو على بن الحسن بن على الفارسى ، وعدد أوراقها ١٢٥ ورقة وتشتمل الصفحة الواحدة منها على ١٩ سطرا والمقياس مر١٨ × ١٣ سم ، والنسخة مكتوبة باللون الأسود وبعـض المناوين بالأحمر وقد تأثرت أوراقها فى أغلب الصفحات تأثيرا كيمائيا من المداد ترك آثارا بنية حول الأسطر وبها ترقيع وترشيح وأكل أرضه ، ويوجد فى أول النسخة ورقة بيضاء تحمل فى وجهها الأول هذه العبارة :

تمليك باسم مصطفى بن عبد الحكم عفا عنهما الملك العليم .

ثانيا : النسخـــة أ :

وهى مصورة بمعهد المخطوطات فى جامعة الدول العربية عن نسخة مخطوطة بقلـم نسخ بخط محمد بن محمود شاه بن محمد بن عبد الكريم القزوينى فرغ من كتابتها فـــى ٩ جمادى الآخرة سنة ٧٨١هـ والنسخة عبارة عن ٢٢٧ لوحة ومسطرتها ١١ سطرا وكـل لوحة ذات شطرين ، والنسخة محفوظة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام ، تحت رقم ١٠ بلاغة .

ثالثا : النسخة ب :

وهى موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٢ بلاغة طلعت والنسخة مخطوطة بقلم

تعليق معتاد ، وجدولة بالمداد الأحمر تمت كتابتها سنة ١٠٢١ هـ بخط محمد بن صالح وعدد أوراقها ١٢٧ ورقة ومسطرتها ١٩ سطرا والمقياس ٢١× ٥ر١٥ سم وقد كتبت بالمداد الأسود وبعض العناوين بالأحمر ، ويوجد بخط الكاتب فى هامش الصفحة الأولى من الورقة الأخيرة مانصه :

((قوبلت هذه النسخة على نسخة صحيحة مقابلة على نسخة المؤلف))

رابعا : النسخة جـ :

وهى موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٨ بلاغة ومخطوطة بقلم نسخ معتاد تمت كتابتها سنة ٦٣١ هـ وعدد أوراقها ١٨٧ ورقة ومسطرتها ١٥ سطرا والمقياس ١٩×١٤سم وبهامشها بعض تعليقات ولون ورقها يميل الى البنى وكاتبها هو على بن عبد الله الترخانى .

خامسا : النسخة د :

وهى مصورة عن نسخة مخطوطة بقلم معتاد بخط ابراهيم بن يونس وقد فرغ من كتابتها سنة ٧٤٣ هـ يوم الأربعاء وقت العصر فى آخر ربيع الأول والنسخة تشتمل على ٦٥ لوحة وكل لوحة ذات شطرين ومسطرتها ٢٩ سطرا . وهى مخطوطة بمكتبة ولى الدين جار الله باستنبول تحت رقم ١٨٣٩ ضمن مجموعة (الكتاب الأول) ، وقد اطلعت عليها مصورة بمعهد المخطوطات تحت رقمى ٢٥ ، ٢٦ ميكروفيلم وقراءتها من الصعوبة بمكان لعدم وضوح الخط فى كثير من الصفحات ولذا كان تعويلى عليها ضئيلا .

....

منهج الطيبى فى كتابه التبيان فى البيان :

يذهب مؤرخو البلاغة العربية الى وجود مدرستين متميزتين فى مجال البحث البلاغى مدرسة أدبية وأخرى فلسفية كلامية ولكل منهما خصائصها المتميزة المنفردة ولابد لنا قبل أن نتحدث عن منهج الطيبى فى كتابه أن نلم ببعض مايقال عن هاتين المدرستين وخصائص كل منهما حتى نعرف مكان الرجل من هاتين المدرستين .

أقول : نعلم أن ظهور كتاب " المفتاح " للسكاكى وماسبقه من كتاب " نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز " للرازى كانا اتجاها جديدا فى التأليف البلاغى ، لايشتبه بما

قبله لدى البلاغيين فأنت تقرأ " البيان والتبيين " للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة بن جعفر والصناعتين لأبى هلال العسكرى والعمدة لابن رشيق القيروانى وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز للشيخ عبد القاهر ، ثم تقرأ ما جاء بعد المفتاح لبدر الدين بن مالك والقزوينى والسبكى وسعد الدين التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى وابن يعقوب المغربى وغيرهم ممن نحو منحاهم فتجد الاتجاه متغايرا فى ملامحه العامة حتى يبدو واضحا أن فن البلاغة كان فى عهده الأول أدبيا ثم اتجه منذ الرازى والسكاكى وجهته الجديدة ومع ذلك لاننكر أن علماء الكلام من أمثال عبد الجبار الأسدى وأبى بكر الباقلانى قد نحو بالبلاغة منحا كلاميا حين ناقشوا قضية الاعجاز القرآنى ، ولكن هؤلاء كان حديثهم عن البلاغة من أجل الاعجاز فهو وسيلة وليس مقصودا لذاته البلاغية من ناحية أولى ، كما أنهم فى هذا الحديث كانوا بعيدين عن منهج الرازى والسكاكى فى ذكر التعريفات واخراج المحترزات وتطويل النقاش فى التركيب اللفظى مما يعد سمة للمدرسة السكاكية التى نقصدها الآن ، ونجعل الرازى والسكاكى فى أوائل من انتهجوا خطتها ، فعلماء الكلام ممن تعاطوا الحديث فى الاعجاز كانوا أشبه بالمتناظرين فى ساحة الجدل ، ولهذا فهم عن طريقة السكاكى بمنأى النازح ولكن الأستاذ أمين الخولى رحمه الله قد ألقى محاضرة تحت عنوان " البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها " بالجمعية الجغرافية الملكية فى مساء ١٩٣١/٣/١٩م ثم طبعها فى كتاب صغير عقب القائها وقد اتجه فى محاضرته الى أن الفلسفة صاحبت نشأة البلاغة اذ وجدت لدى الجاحظ وقدامة بن جعفر وصاحب الصناعتين وعبد القاهر الجرجانى حتى جاءت مدرسة السكاكى فكانت امتدادا لما سبقها من هذا الاتجاه الفلسفى المنطقى فى التأليف البلاغى يقول رحمه الله عن الفلسفة وتدرج البلاغة :

" وهنا نجد كذلك حظ الفلسفة قويا فروحها مازالت مسيطرة على درس البلاغة ، والتوسع فى أبحاثها مازال يجرى أكثر مايجرى على رسوم بحث الفلسفة وذلك أن هذا البحث قد اتجه اتجاهين مختلفين فكانت هناك طريقتان لدراسة البلاغة ، لكل واحدة منهما مزاياها وخواصها ، وهاتان الطريقتان هما : طريقة المتكلمين وطريقة الأدباء فأما الطريقة الأولى فتمتاز بخاصة أهلها المتكلمين ، فى الجدل والمناقشة والتحديد اللفظى ، والعناية بالتعريف الصحيح والقاعدة المقررة والاقلال من الشواهد الأدبية وعدم العناية بالناحية

الفنية فى خصائص التراكيب وتقدير المعانى الأدبية واستعمال المقاييس الحكمية الفلسفية المعتمدة على قواعد منطقية أو نظريات خلقية أو مقررات طبيعية فى الحكم الأدبى دون نظر الى معانى الجمال وقضايا الذوق ونرى هذه الطريقة جلية فى نقد الشعر لقدامة بن جعفر وأما الطريقة الثانية وهى طريقة الأدباء فى درس البلاغة فتمتاز بالاكثار المسرف من الشواهد الأدبية نثرها وشعرها والاقلال من البحث فى التعاريف والقواعد والأقسام وتعتمد فى النقد الأدبى على الذوق الفنى وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الأقسام وسلامة النظر المنطقى .... ولو رحنا ننظر استباق المدرستين طوال حياة البلاغة لوجدنا أن المدرسة الكلامية كانت أوفر حظا عند المتقدمين كما أنها كانت الأرجح كفة عند المتأخرين ثم الغالبة المنفردة فى النهاية فمن الأولين نجد الجاحظ أميل الى الطريقة الكلامية ومن أنصارها نرى ذلك ظاهرا فى كلامه المبثوث فى البيان والتبيين عن البلاغة فهو كلام فلسفى محض لو قورن بمعانى أرسطو وبخاصة فى كتاب الخطابة لرد جله اليها ..... ثم نرى قدامة ابن جعفر كذلك من رجال هذه المدرسة .... ولعل المدرسة الأدبية لم تكد تظفر بالكثيرين من أمثال أبى هلال العسكرى بل ان أبا هلال وان يكن أميل بروحه الى الطريقة الأدبية وملتزما لها كما قال الا أنه قد جرى فى مضمار المتكلمين .... وبعد أبى هلال يجىء عبد القاهر الجرجانى فنجد المدرستين تظفر كل واحدة منهما بنصيب من عمل عبد القاهر فهو متكلم فلسفى تارة وهو أديب صانع كلام وناقده طورا هو متكلم أو بليغ كلامى الدرس فى كتابه دلائل الاعجاز يعنى أولا وأخيرا بقضية الاعجاز فقط وينصرف اليها فيه انصرافا تاما فيجادل عنها جدلا منطقيا بارز النزعة فى أسلوبه من مثل قوله : ان قلتم قلنا وكيف لا يكون الأمر كذلك وما هو الا كذا وكذا مما لا نطيل بسوق شواهد منه لأنه كثير يعثر عليه فى أغلب صفحات الكتاب ، وعبد القاهر بليغ أديب فى كتابه الآخر أسرار البلاغة .... ثم نرى المدرسة الكلامية فيما بعد عبد القاهر تفوز بالنصيب الأوفى من السكاكى ومفتاحه ثم لا تلبث أن تأخذ بمخنق البلاغة وتسيطر على دراستها فى عهد التلخيص والشروح والحواشى"(1)

وهذا الكلام يحتاج الى تعقيب لأننا لا ننكر اطلاقا أن الفلسفة بمفهومها المنطقى كانت واضحة كل الوضوح فى العلوم التى نشأت فى العصر العباسى نجدها فى أصول الفقه وفى

---

(1) انظر مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص ١٥٩ الى ص ١٦٣

ملامح واضحة من قواعد النحو والصرف مما يدل على أن العلوم يغذى بعضها بعضا دون نزاع . فاذا وجدنا أثرا لهذا الاتجاه المنطقى فى البلاغة لدى الجاحظ ومن تلاه فليس الأثر الكلامى المتعارف عليه فى مدرسة السكاكى ولكنه هو التأثر العام الذى تشربته أكثر العلوم دون التزام تام بقواعد المنطق . فأنت تقرأ شذورا عن أرسطو فيما كتب الجاحظ من مسائل البلاغة فى البيان والتبيين ولكن هذا كله لايجعل البيان والتبيين شبيها بما كتب السكاكى حتى أن قدامة بن جعفر على وضوح تفكيره الفلسفى فى كتابه نقد الشعر لم يكن مشابها للسكاكى فى طريقة التأليف والتخريج حتى يعتبر من أعلام مذهبه ، ولكن الرجل انتفع ببعض تقسيمات منطقية ظهرت فى نقد الشعر وتنوقلت شذرات منها فى الصناعتين وغيرها .

ولكن طابع المدرسة الأعجمية كان بمنأى عن طابع نقد الشعر تأليفا وتبويبا وتعليقا مما يحتم أن نضع الفواصل بين ماكتب قدامة وماكتب السكاكى .

هذا التأثير العام بالروح المنطقى لدى السابقين لايجيز لنا أن نسير مع الأستاذ أمين الخولى حين ذهب الى عد الجاحظ من رجال المدرسة الكلامية فيما كتبه عن البلاغة كما لايجيز لنا أن نعتبر عبد القاهر والزمخشرى من رجال هذه المدرسة وقد ذهب الأستاذ أمين الخولى كذلك ومن تابعه كالدكتور أحمد مطلوب (١) الى أن عبد القاهر فى دلائل الاعجاز كلامى وفى أسرار البلاغة ذو نهج أدبى . وهذا كلام لانوافق عليه لأن روح الجدل والنقاش فى الكتابين تسقى بماء واحد وان كانت طبيعة البحث فى الاعجاز القرآنى تدعو الى الأخذ والرد والتعقيب والتفنيد ولكن لاعلى طريقة السكاكى . بل على طريقة الفصول المتتالية فى الكتاب الواحد اذ يبتدىء الفصل بمقدمة يعقبها العرض مسهبا بالدليل والنقاش ثم ينتهى الى خاتمة مركزة ملخصة وتلك خصائص المقالة العلمية والأدبية كما يراها النقاد فى العصر الحديث (٢) . وليس ذلك من منهج السكاكى فى شىء وخاصة اذا حدد الكاتبون عن مدرستى البلاغة وفى مقدمتهم الأستاذ أمين الخولى نفسه صفات مميزة لكل منهما حيث ذكروا من خصائص المدرسة الكلامية : اهتمامها بالتحديد والتفنين والتقسيم والتعريف الصحيح ومحاولة حصر المسائل وضبط الأقسام ثم استعمال أساليب الفلسفة والمنطق

---

(١) البلاغة عند السكاكى ص١١٢
(٢) انظر الأسلوب للأستاذ الشايب ص٧٤

فى تحديد الموضوعات واستعمال الألفاظ الفلسفية والمنطقية والاقلال من الشواهد والأمثلة الأدبية وعدم العناية بالناحية الفنية فى خصائص التراكيب وتقدير المعانى الأدبية .

أما المدرسة الأدبية فقد بينوا خصائصها فيما يلى :ـ

الاكثار من الشواهد الأدبية نثرها وشعرها والاقلال من البحث فى التعاريف والقواعد والأقسام واستعمال المقاييس الفنية فى الحكم على الأدب ومن خصائصها أن أسلوب كتبها وتعابيرها سهلة مفهومة لاتحتاج الى عناء كبير فى فهمها (١) .

ونحن نتساءل بعد هذا كله هل كان عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ، والجاحظ فى البيان والتبيين ، وقدامة فى نقد الشعر ، ملتزمين بهذه الخصائص اذ يجرون فى نطاق التعريفات والتقسيمات واخراج المحترزات وارجاع الضمائر وتوهم الاعتراضات ودفع مايتخيل من الاحتمالات مما نجده فى مدرسة السكاكى الكلامية اللهم لا ، انما نجد عند هؤلاء بسط القول وكثرة الشواهد وطول النفس ودقة الذوق وسلامة الاستشفاف وجمال العبارة وكلها لاتمت لمدرسة السكاكى بسبب متين ، وان كنا نجد قدامة أقلهم بهاء وأميلهم الى التقسيم المنطقى وهو بعد فرد واحد على أنه مع هذا التقسيم وهذه الكزازة فى التعبير متباين كل التباين مع الاتجاه التأليفى لدى السكاكى فكيف جاز لنا أن نتلمس ملامح الفلسفة العامة لدى هؤلاء الأدباء من البلغاء التى تسربت اليهم لاشعوريا بحكم ثقافتهم المتنوعة واطلاعهم المستوعب لما جد فى العصر من ترجمات مما لايخلو من التأثر به كاتب ينهض بالتأليف ، أقول كيف جاز لنا أن نتصيد خطوط هذا التأثر العام لنجعله أصلا لمدرسة قامت على اتجاهات محددة لايعرفها هؤلاء السابقون ، وأمامنا الدليل الواضح ، أنك تمد يدك الى ماكتب عبد القاهر ثم تمد يدك الى ماكتب السكاكى والموضوع واحد والنقل منه متعمد ، ولكن طريقة التأليف قد اختلفت فى موضوع مأخوذ من أصل معين ، ولو كان المنهج واحدا لما وصل الاختلاف الى حد هذا التباين الشديد .

بقى أن نتحدث عن الزمخشرى اذ عده الأستاذ أمين الخولى من المدرسة الكلامية فقال متحدثا عن رجالها : " اذ نعد فيها من لم ينفردوا بوصف البلاغة وان أثروا فى اتجاه

---

(١) انظر فن القول ص٨٦ ، ص٦٣ ومناهج تجديد ص١٥٩ ، ١٦٠ وصور من تطور البيان العربى ص١٧ والبلاغة عند السكاكى ص١٠٣ ، ص١٠٧

دراستها كالزمخشري في تفسيره الكشاف اذ فسر فطبق اصطلاحات وقدم تخريجات كانت خدمة مباشرة للنزعة الفلسفية البلاغية " (١) .

وتابعه آخرون منهم الدكتور أحمد مطلوب حيث سار في ركابه معتبرا الزمخشري من أقطاب المدرسة الكلامية فنجده يتحدث عن الأوطان التي سادت فيها هذه المدرسة فيقول : (وقد شاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدول الاسلامية حيث يقطن خليط من الفرس والترك والتتر ومن اليهم من الأقوام غير العربية ، وكانت خوارزم بيئة السكاكي أكبر المناطق التي ظهر فيها أقطاب هذه المدرسة كجار الله الزمخشري ٥٣٨ هـ صاحب الكشاف) (٢) .

ويبدو لي أن الذين عدوا الزمخشري من أقطاب المدرسة الكلامية في البلاغة قد نظروا الى أصله الفارسي ، أو لعل اشتهاره بالاعتزال ودفاعه عن آرائه الاعتقادية بلغة علماء الكلام لعل ذلك دفع هؤلاء الى عده من المدرسة الكلامية في البلاغة وليس للرجل في الحقل البلاغي سوى تطبيقات على أمثلة رائعة من كتاب الله عز وجل ، فالزمخشري لم يؤلف بابا بلاغيا ولم يكتب تعريفات في موضوعات بيانيه ولكنه شرح آيات الكتاب محللا مابها من صور بيانية ، وماتتضمن من ذكر أو حذف أو ايجاز أو اطناب ، وكل ذلك بعيد عن التعريفات والمحترزات والتقسيمات فكيف يكون يا الله بعد ذلك كله من أقطاب المدرسة الكلامية في البلاغة وهو منها بمكان بعيد .

الشرق منزلنا ومنزلهم .. غرب وأين الشرق والغرب

هذا وقد عد الأستاذ أمين الخولي بهاء الدين السبكي بكتابه " عروس الأفراح " من رجال المدرسة الأدبية حين تحدث حديثا مسهبا عن مصر في تاريخ البلاغة شمل مابين صفحتي ٢١٧ الى ٢٥٤ من كتابه " مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب " لينتهي الى أن الرجل يمثل مدرسة مصرية تميل الى الناحية الأدبية ذات الذوق والاستشفاف ، ونحن نتساءل في حيرة شديدة ة أقرأ الأستاذ أمين الخولي كتاب عروس الأفراح وهو يعتنق رأيا خاصا يحاول جاهدا أن يقصر عليه منحى بهاء الدين السبكي قصرا عنيفا كالمحامي الذي يريد أن يبرئ المتهم في مرافعة قضائية وهو يعلم أنه مدين مدين ، ان كل ماذكره الأستاذ أمين الخولي بصدد عروس الأفراح ليدل على افتعال مرهق ومعاناة شديدة لم تنجح في أن

---

(١) مناهج تجديد ص ١٣٧

(٢) البلاغة عند السكاكي ص ١٠٥

تصل بصاحبها الى مايريد . ولعل الذى دفعه الى ذلك هيامه بأن يتخذ من الكتاب دليلا على اتجاه مصرى خاص فى الحقل البلاغى . وكتاب عروس الأفراح لايصلح أن يمثل هذا الاتجاه لأنه لايتميز بشىء عن سواه من كتب مدرسته الكلامية الا بخصائص طفيفة تتجلى فى وضوح العبارة أحيانا وفى نقداته أحيانا أخرى ولكن هذه الخصائص لاتخرجه عن مدرسة المحترزات والتقسيمات والبعد عن الاستشهاد الأدبى . ونحن فى ذلك نتفق مع الدكتور أحمد مطلوب حين خالف الأستاذ الخولى فيما ذهب اليه ازاء السبكى وذلك أنه تحدث حديثا طويلا عن مدرستى البلاغة فى كتابه " البلاغة عند السكاكى " وبالرجوع اليه نجده قد دار حول كلام الأستاذ الخولى فى هذا المجال دون أن يضيف الجديد اللهم الا ماكان من مخالفته لرأى الأستاذ أمين الخولى فى بهاء الدين السبكى حيث قال :

" وعد الأستاذ أمين الخولى من رجال هذه المدرسة بهاء الدين السبكى ٧٧٣ هـ ولكننا لانوافقه على ماذهب اليه لأن كتاب عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح للسبكى ليس فيه من الروح الأدبية لافى منهجه ولافى مادته الا الشىء القليل . فقد حشر المؤلف فى الكتاب مسائل كثيرة لاصلة لها بالبلاغة وأكثر من علم الأصول اكثارا عظيما . وذكر تقسيمات كثيرة ينفر منها القارىء وتبعث فى نفسه السأم " (١) .

حقا ان كلام الأستاذ أمين الخولى عن عروس الأفراح موضع نظر طويل .

وبعد فيوجد فى مجال التأليف البلاغى قبل الامام الطيبى مدرستان أدبية صاحبت نشأة البلاغة وكلامية فلسفية بدأت من الرازى ٦٠٦ هـ ووضحت معالمها وتحددت خصائصها على يد السكاكى . فأين كان منهج الطيبى من هاتين المدرستين ؟ أقول : اذا نظرنا الى الطيبى فى مشربه العام وتعبيراته نجده يتفرع من جدول السكاكى ، فطريقة التأليف والتمثيل والتعقيب فى علمى المعانى والبيان خاصة تكاد تكون محتذاه بل تصل لديه أحيانا الى درجة الاقتضاب والاختصار المؤدى الى الغموض . ولكنه مع ذلك لم يتقيد تقيدا تاما بمنهج السكاكى وانما تصرف تصرفا أبرز شخصيته ودل على جهده فى الكتاب . ولكى يتضح لنا منهج الطيبى فى كتابه ينبغى أن نبرز أهم سماته المنهجية التى تلوح للقارىء من خلال تضاعيف الكتاب بادئا بعرض اجمالى لمحتويات الكتاب لنتعرف من خلاله على خطته فى البحث .

---

(١) البلاغة عند السكاكى للدكتور أحمد مطلوب ص ١١٠ ، ١١١

١ ـ خطته فى الكتاب :

قسم الامام الطيبى كتابه " التبيان فى البيان " الى فنين فن البلاغة وفن الفصاحة ثم عرف البلاغة تعريفا شاملا لعلومها الثلاثة : المعانى ، البيان ، البديع ، قال فى المقدمة عن كتابه :

" والكلام فيه مرتب على فنين فن البلاغة وفن الفصاحة " (١) والبلاغة عنده هى توفية خواص التراكيب فى افادتها وايراد معنى واحد فى طرق مختلفة بدلالتها وتحسينها من جهة المعنى ثم قال : ومايحترز به عن الأول علم المعانى وعن الثانى علم البيان وعن الثالث علم البديع (٢) • وهنا نلاحظ عدم خروجه عن مدرسة السكاكى فى تقسيم البلاغة الى معان وبيان وبديع وان جعل البديع علما مستقلا وليس ذيلا للمعانى والبيان كما يبدو من التعريف ومحترزاته ، ثم بحث المعانى بحثا تابع فيه نهج السكاكى أو قاربه فعرف المعانى بتعريف السكاكى نفسه فقال : " علم المعانى هو تتبع خواص التراكيب فى الافادة تفاديا عن الخطأ فى التطبيق " (٣) ، وقرر أن التراكيب التى هى موضوع علم المعانى شيئان خبر وطلب ولذلك نراه يجعل الكلام فى علم المعانى قسمين مايتعلق بالخبر ومايتعلق بالطلب أما الخبر فجعله ستة أبواب :

الباب الأول فى الاسناد ، تكلم فيه على أنواعه وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر منبها على مراعاة حال المتكلم (٤) •

الباب الثانى فى تفصيل اعتبارات المسند اليه تكلم فيه على ترك المسند اليه واثباته وتعريفه واضماره وكونه علما أو موصولا أو اسم اشارة أو معرفا بالألف واللام ، أو مضافا وتكلم على وصفه وتأكيده وبيانه وبدله والحالة التى تقتضى كونه ضمير فصل ، وتنكيره وتقديمه •

الباب الثالث : فى المسند تكلم فيه على تركه وذكره وكونه فعلا وكونه معرفا وكونه منكرا وفى كونه مقدما وكونه مفردا وكونه جملة وكونه مقيدا بما يتصل به من نحو المفاعيل الخمسة والشرط وتحدث عن مقتضيات ترك الفعل أو ترك مفعوله أو اضمار فاعله (٥) •

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٢
(٢) التبيان فى البيان الورقة ٢
(٣) التبيان فى البيان الورقة ٢ وانظر المفتاح للسكاكى ص ٨٦ •
(٤) التبيان فى البيان الورقة ٣
(٥) التبيان فى البيان الورقة ١٣

الباب الرابع في التقديم والتأخير ونلاحظ من صنيعه في هذا الباب أنه جعل الكلام فيه على مقدمة وخمسة فصول تحدث في المقدمة عن افادة التقديم القصر ثم تحدث في الفصل الأول عن تقديم الفاعل المعنوي وفي الفصل الثاني عن تقديم المفعول وفي الفصل الثالث عن تقديم المجرور وفي الفصل الرابع عن التقديم الواقع بين المعمولات وفي الفصل الخامس عن تقديم الجملة أو كما سماه اعتراض جملة بين جملة مستشهدا بقوله تعالى : " ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى " الآية مستضيئا بما قاله الزمخشري حولها (١)

وفي ختام هذا الباب تحدث عن القصر حيث لم يعقد له بابا أو فصلا مستقلا وانما وزع الحديث عنه خلال هذا الباب ثم قال في النهاية : " واذ قد تحقق القصر في التقديم فبالحرى أن يلحق به مايتم به الغرض " وهنا نجده يتحدث عن أحكامه وطرقه وأنواعه ذاهبا الى تقسيمه الى قصر قلب وافراد كما فعل السكاكي حيث لم يذكر اسم قصر التعيين كما صنع الخطيب القزويني .

الباب الخامس في الفصل والوصل تحدث فيه عن مقتضيات الوصل في اجمال واختصار . ثم سرد أحوال الفصل بما لايخرج عما قرره السكاكي والخطيب مع اقتضاب واختصار شديدين .

الباب السادس في الايجاز والاطناب ونجده في أول الباب ينقل عن السكاكي وقد جاء حديثه عن الايجاز متأثرا فيه بابن الأثير حيث انضوت عنده المساواة تحت لواء الايجاز ونلاحظ تأثره بالخطيب القزويني فيما ذيل به هذا الباب ، وهكذا نراه في باب واحد يجمع بين الأخذ والتأثر بمصادر متعددة ولعله بذلك يحاول أن يكون ذا اتجاه جديد واستقلال خاص .

وبذلك أنهى الكلام عن الخبر ليشرع في الحديث عن الطلب فقسمه الى خمسة أقسام : الاستفهام ، التمني ، الأمر ، النهي ، النداء .

وبعد فراغه من بحث الخبر والطلب تكلم على استعمال الخبر موضع الطلب واستعمال الطلب موضع الخبر ، وبهذه الخطة بحث الطيبي مايتعلق بعلم المعاني ، أما فيما يتعلق بعلم البيان فهو عند الطيبي : معرفة ايراد المعنى الواحد في الطرق المختلفة الدلالة

---

(١) انظر الكشاف جـ١ ص٦٣٢

بالخفاء على مفهومها تفاديا عن الخطأ في التطبيق لتمام المراد (١) والغرض من هذا الايراد هو المبالغة وقد حصر البيان في أصول ثلاثة : التشبيه والمجاز والكناية وقسم التشبيه الى خمسة أشياء ولذا تكلم عنه في خمسة فصول تكلم في الفصل الأول عن الطرفين وفي الثاني عن الوجه وفي الثالث عن الغرض من التشبيه وفي الرابع أحوال التشبيه وفي الفصل الخامس عن الأداة ثم ختم الكلام على التشبيه ببيان مراتبه بناء على ذكر كل الأركان أو بعضها أما الأصل الثاني وهو المجاز فقدم له ببيان الحقيقة ثم قسمه الى قسمين : القسم الأول : اللغوى والقسم الثانى : العقلى وجعل المجاز اللغوى ضربين : استعارة ومجاز مرسل ، وجعل المجاز المرسل نوعين الأول الخالى عن الفائدة وذلك أن تعدى الكلمة عن حقيقة بقيد اليها بدونه مثل أن يستعمل المرسن في أنف انسان مجازا وأنه موضوع لمعنى الأنف مع قيد أن يكون مرسونا والثانى المجاز المتضمن للفائدة .

أما الاستعارة فعرفها تعريف السكاكى لها : أن تذكر أحد طرفى التشبيه وتريد به الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا عليه باثباتك للمشبه مايخص المشبه به (٢) ثم قسمها الى أصلية وتبعية وتمثيلية بالنظر الى الجامع فان كان أمرا واحدا فالاستعارة فيه تتنوع الى أصلية وتبعية والأصلية الى تصريحية ومكنية والتصريحية الى تحقيقية وتخييلية ، أما اذا كان الجامع في حكم الواحد فالاستعارة حينئذ تسمى تمثيلية وهو يرجع ماذهب اليه السكاكى من جعل الاستعارة التبعية مكنية تقليلا للاعتبار ، ثم قسم الاستعارة بالنظر الى الطرفين والجامع الى ستة أقسام : أحدها استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى ، وثانيها استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلى ، وثالثها : استعارة معقول لمعقول ، ورابعها استعارة محسوس لمعقول ، وخامسها : استعارة معقول لمحسوس ، وسادسها : استعارة محسوس لمحسوس لما بعضه حسى وبعضه عقلى وختم الكلام على الاستعارة ببيان شروط حسنها .

أما القسم الثانى من المجاز فهو المجاز العقلى ويرجح فيه رأى السكاكى من ارجاعه الى الاستعارة المكنية (٣) ، الأصل الثالث الكناية : بدأ بتعريفها فقال : هى ترك التصريح بالشئ الى مايساويه في اللزوم لينتقل منه الى الملزوم ، وقسمها الى مطلقة وغير مطلقة والمطلقة ماطلب بها نفس الموصوف ، وغير المطلقة تتنوع عنده الى رمز وتلويح والمطلوب بها في هاتين الحالتين نفس الصفة ، والى ايماء والمطلوب بها حينئذ اما تخصيص الصفة

---

(١) الورقة ٣٤ من التبيان في البيان .
(٢) انظر التبيان في البيان الورقة ٤٧ والمفتاح ص ١٩٦ .
(٣) التبيان في البيان الورقة ٥٦ .

بالموصوف أو تخصيص الموصوف بالصفة والنوع الأخير التعريض .

وعلى الرغم من أن الطيبي أكثر تفصيلا وأغزر أمثلة من السكاكي في الكناية نجـــد ، يختم كلامه فيها بالاشادة بالسكاكي والتنويه بأن ماذكره ازاء الكناية مستنبط من كلام الشيخ فيقول : " هذه لمحة من بوارق خواطر شيخنا العلامة الذي :

له نار تشب بكل واد .. اذا النيران ألبست القناعـا (١)

ولمحة من اشاراته الخفية التي تكاد تتأبى على ذوي البصائر والأريحية وذلك قوله في فاتحـة كتابه :

" وهذا النوع أعني بحث الكلام لاعلى مقتضى الظاهر في علم البيان من الكناية وله أنـــواع نقف عليها زادنا الله اطلاعا على رموز اشاراته وعثورا على ما استودع فيه من نكاته " (٢) .

ثم ذكر مايتعلق بالبديع فعرفه بأنه معرفة وجوه تحسين الكلام وقسمه الى ثلاثة أقسام على خلاف المعهود في مدرسة السكاكي ، القسم الأول مايكون التحسين فيه راجعا الــى المعنى والقسم الثاني مايكون التحسين فيه راجعا الى اللفظ والمعنى ، والقسم الثالــث مايكون التحسين فيه راجعا الى اللفظ وحده ، وبحث القسم الأول والثاني هنا في فن البلاغة لتعلقهما بها وهما اللذان يقصدهما في تعريفه للبلاغة السابق ، أما القسم الثالث فأرجأ بحثه الى فن الفصاحة يقول الطيبي : " علم البديع هو معرفة وجوه تحسين الكلام ، والتحسين امـا راجع الى المعنى أو الى اللفظ أو اليهما جميعا والبحث عن القسم الثاني وظيفة الفصاحـة وعن الأول والثالث وظيفة البلاغة " (٣) .

وهو في ذلك خاضع لمذهبه في الفصاحة والبلاغة حيث ان الفصاحة ترجع عنده الــى اللفظ ، والبلاغة الى اللفظ والمعنى فلعله لذلك جعل التحسين الراجع الى اللفظ مــن الفصاحة والتحسين الراجع الى المعنى أو اليه مع اللفظ الى البلاغة . وهنا نجده يقســم المحسنات المتعلقة بالبلاغة الى بابين الباب الأول : في التحسين الراجع الى المعـــنى والباب الثاني : في التحسين الراجع الى اللفظ والمعنى فمن الباب الأول :
الالتفات ، التجريد ، الخطاب العام ، التغليب ، التجاهل ، الأسلوب الحكيم ، الايهام ، التوجيه ، اللغز ، الابداع وألحق به ماسماه ببدائع النحويين ، المذهب الكلامي حسن التعليل ، المراجعة ، الاغراق ، الكلام الجامع ، ايراد المثل .

---

(١) هكذا روى الطيبي البيت وهو لأبي زياد الاعرابي ويروى البيت
له نار تشب على يفاع .. الخ وهذه الرواية هي الصحيحة لأن النار كانت توقد على المكان العالي ليهتدي الناس على ضوئها لا أن توقد في الوادي المنخفض .
(٢) التبيان في البيان الورقة ٦١ والمفتاح ص ٩٣ . (٣) المصدر السابق الورقة ٦٢ .

ومن الباب الثاني : المطابقة ، المقابلة ، المشاكلة ، المزاوجة ، مراعاة النظير ، التكرير ، الطرد والعكس ، التشبيب ، التذييل ، التكميل ، الايغال ، التتميم ، الترقي ، الاعتراض ، الاستطراد ، الاستتباع ، الادماج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، الرجوع ، التفويف ، التطريز ، الارصاد ، التفسير الخفي ، اللف والنشر ، الجمع ، التفريق ، التقسيم ، الجمع مع التفريق ، الجمع مع التقسيم ، الجمع مع التفريق والتقسيم ، الجمع مع التقسيم مع الجمع ، التضمين ، الاقتباس ، العقد ، الحل ، التلميح . ثم عقد فصلا في لتتلاقي الكلامين قصدا وغير قصد مقسما الاتفاق والأخذ الى خمسة أقسام : النسخ والسلخ والمسخ والاحتذاء والموارد ة مع تنبيهه على قبول الأخيرين مطلقا وأنهى فن البلاغة بخاتمة ذكر فيها حسن ملاءمة الكلام منبها على وجوب تأنق المتكلم فيما يورده من الكلام في أربعة مواضع : المطلع ، المخلص ، المطلب ، المقطع (١) ،

ونلاحظ على الطيبي اهتمامه بالبديع وادخاله التكرير والتذييل ، والتكميل ، والايغال والتتميم والاعتراض في المحسنات المعنوية اللفظية بينما نجد الخطيب القزويني قد بحثها في علم المعاني على أنها من ألوان الاطناب ، والطيبي في ذلك متأثر بالبلاغيين المتقدمين الذين بحثوها في البديع وببعض تلاميذ مدرسة السكاكي كبدر الدين بن مالك (٢)

هذه هي خطة الطيبي في بحث فن البلاغة ، أما الفصاحة فقد عقد لها فنا مستقلا مقابلا لفن البلاغة ، شغل به الجزء الأخير من الكتاب فعرف الفصاحة وفرق بينها وبين البلاغة مستضيئا بما قاله ابن الأثير في هذا الصدد ونجده في صدر حديثه عن الفصاحة يعترف صراحة بنقله وتلخيصه لما قاله ابن الأثير ، ولذا سأعقد بينهما موازنة لأبين ماله وماعليه في الفصل الآتي الذي سأتحدث فيه عن " الطيبي في كتابه التبيان بين التأثر والتأثير " وقد جمل الكلام عن الفصاحة في بابين تحدث في الباب الأول عن صفات فصاحة اللفظة المفردة وحصرها في ست صفات وتحدث في الباب الثاني عن فصاحة اللفظ المركب فذكر أنها خمس صفات ، والصفة الأولى منها أن يكون التركيب مصوغا في قالب الصنعة البديعية وهي المحسنات اللفظية التي أرجأ الكلام عليها وعددها كالآتي : الأول الجناس وبعد تقسيمه الى اثني عشر نوعا آخرها الجناس القلبي استطرد بذكر القلب الذي هو من اخراج

---

(١) التبيان في البيان الورقة ١٠٦ ، ١٠٧

(٢) انظر المصباح لبدر الدين بن مالك ص ٩٥ ومابعدها

الكلام لاعلى مقتضى الظاهر وقد ساير فيه الخطيب القزويني (١) .

والثاني من المحسنات اللفظية المكس والتبديل ، والثالث رد المجز الى الصدر ، والرابع التصريع ، والخامس الترصيع ، والسادس السجع ، والسابع لزوم مالايلزم .

هذا ولاأريد مناقشة الطيبي هنا ازاء هذا الصنيع مكتفيا بمناقشتي اياه خلال الموازنة في الفصل الآتي كما قلت آنفا .

وبعد أن أنهى الكلام عن الفصاحة ختم الكتاب بحديث نبوى طبق عليه جميع قواعد البلاغة والفصاحة اذ قال : " واذ قد وقفت على البلاغة وأنواعها وجمعت الفصاحة بأقطارها فلنذكر الآن حديثا صادرا عن صدر النبوة ومنبع الرسالة ليكون كالاجمال لهذا التفصيل ، وكالفهرس لهذه الفنون وعونا للمتصدى على وضع كل في مقامه وتمرنا له اذا انتصب لاهتمامه فنقول وبالله التوفيق : قال معاذ رضى الله عنه قلت يارسول الله أخبرني عن عمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار " الحديث (٢) .

وهكذا أشرت باجمال واختصار الى خطة الطيبي في كتابه وهو وان خالف السكاكي لتأثره بمصادر مختلفة الاتجاهات ومتعددة المناحي فاننا لانستطيع اخراجه من مدرسة السكاكي ، بل نقرر مطمئنين أن صاحبنا من مدرسة السكاكي لظهور التقارب بينهما من ناحية المنهج حيث قسم البلاغة الى علوم ثلاثة : معان وبيان وبديع وان لم يسم السكاكي الثالث بديعا وانما سماه وجوها مخصوصة كثيرا مايصار اليها لقصد تحسين الكلام وقسم مثله كما رأينا الكلام في المعاني الى خبر وطلب وحصر كل من الرجلين البيان في التشبيه والمجاز والكناية وان اختلفت طريقة الحصر بينهما ، والناحية الأخرى التي نلمح فيها التقارب هي المادة فقد نقل الطيبي من كتاب السكاكي بعض شواهده وعباراته ومصطلحاته بل يبدو أحيانا في بعض المواضع ملخصا لكلام السكاكي باختصار واقتضاب أشاع الغموض في جنبات الكتاب .

* * *

---

(١) التبيان في البيان الورقة ١١٤

(٢) التبيان في البيان الورقة ١٢١ ومابعدها

٢ ـ آراؤه التى تدل على بروز شخصيته واستقلاله الفكرى حيث كان فيها ذا استقلال واضح وتتمثل فيما يلى :

أ ـ اعتبار حال المتكلم فى الاسناد :

درج علماء البلاغة من مدرسة السكاكى أثناء حديثهم عن الاسناد على أن يقسموه الى ثلاثة أضرب ابتدائى وطلبى وانكارى وهم ينظرون فى هذا التقسيم الى حال المخاطب ولهذا نقد الأستاذ أمين الخولى هذا الاتجاه متهما هؤلاء البلاغيين القدامى باهمال حال المتكلم (١) ، والحقيقة كما تبدو من صنيع الطيبى أنهم لم يهملوا النظر الى المتكلم فقد ذكر الطيبى بعد سرده لأضرب الاسناد على طريقة مدرسة السكاكى أن المخاطب المنكر قد ينزل منزلة غير المنكر وعكسه ، وجعل من الاعتبارين قوله تعالى : " ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون " ناقلا كلام الخطيب القزوينى حول هذه الآية ، ولكنه لم يرتض ماذهب اليه الخطيب (٢) ، والرأى عنده حمل كلمة ان فى الآية على بسط الكلام وتحقيقه بالنظر الى المتكلم كما يفعله الداعى فى دعائه بقوله : ربنا اننا آمنا ، فانه لم يخاطب به منكرا ولا طالبا بل يحقق به تضرعه بين يدى الله وأنه آمن عن طمأنينة قلب وثبات قدم وقد استأنس الامام الطيبى فيما ذهب اليه من توجيه التأكيد بما يشير اليه كلام الزمخشرى ولذا قال : " ونحوه رمز جار الله فى قول المنافقين : انا معكم انما نحن مستهزئون " (٣) وبالاطلاع على ماقاله الطيبى فى تعليقه على كلام الزمخشرى هذا فى حاشيته على الكشاف " فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب " ازداد رأيه وضوحا حيث قال هناك : " قوله (أى الزمخشرى) ألا ترى الى حكاية الله قول المؤمنين ربنا اننا آمنا استئناف وحاصل التأويل أن معنى التوكيد الذى تعطيه ان ههنا ليس راجعا الى المخاطب فى ازالة تردده أو نفى شكه بل الى المتكلم فى اظهار نشاطه ووفور ارتياحه ايذانا بأن المقام خليق بالاطناب وابداء ارتياحه ونشاطه واعلاما بأن السامع يتلقاه بالقبول ويصغى اليه " (٤) .

وهكذا يقرر الطيبى مراعاة حال المتكلم وليس الأمر مقصورا على مراعاة حال المخاطب بل ان تلميذه على بن عيسى صاحب حدائق البيان يوسع الدائرة فيجعل الاسناد منظورا فيه الى المخاطب أو المتكلم أو غيرهما ولذا يعلق على عبارة الطيبى عن الاسناد " وهو بالنظر الى المخاطب ثلاثة " فيقول : قوله بالنظر الى المخاطب ثلاثة وفى هذا التقييد

---

(١) انظر فن القول لأمين الخولى ص٢٠١ ومابعدها .
(٢) انظر التبيان فى البيان الورقة ٣ والايضاح ص٢١
(٣) الكشاف جـ١ ص١٨٥ والتبيان فى البيان الورقة ٣
(٤) فتوح الغيب مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٧٣ تفسير تيمور الورقة ٥٤

اشارة الى أن فى الاسناد أيضا نظراً الى غير المخاطب وهو اما المتكلم أو غيرهما كالتعريض بالثالث وسيجئ بيانه فى الكناية ان شاء الله تعالى ، وأما النظر الى المتكلم فانه قد يؤكد كلامه ابتداء ، وخاصية هذه الطريقة فى الافادة اما الدلالة على كمال العناية والكرامة كما فى قوله تعالى : " يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين " ، أو على كمال الغضب والسخط كما فى قوله تعالى : " ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق " الآية هذا اذا كان المتكلم الله عز وجل وأما اذا كان العبد فهو اما لاظهار غاية التضرع والابتهال كما فى قوله : ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ، أو نهاية الوجل والخوف كقوله ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، هذا اذا كان الخطاب مع الله ، واذا كان مع غيره فهو اما لابداء وفور النشاط كما فى قول المنافقين لشياطينهم : انا معكم انما نحن مستهزئون ، أو للايذان بكمال الخوف والوجل كما فى قول ابراهيم عليه السلام لضيفانه : انكم قوم منكرون ، أو بكمال الحذر والتوقى كما فى قوله أيضا : انا منكم وجلون وفى الأمثلة كثرة فحم حولها "(١)

وبعد هذا البيان نستطيع أن نقول : ان الامام الطيبى رحمه الله قد تنبه الى مراعاة حال المتكلم فى الاسناد قبل الأستاذ أمين الخولى ببضعة قرون فان أراد الأستاذ الخولى باهمال البلاغيين لحال المتكلم عدم تنبههم اليه فغير صحيح أما ان أراد أنهم لم يعطوه حقه فى منهجهم كما فعلوا ازاء المخاطب فى باب الاسناد فنحن معه فى ذلك.

* * *

ب ـ منزلة التشبيه من علم البيان :

يذهب الطيبى الى أن التشبيه قسم أصلى من البيان ، ولذا جعله ثلاثة أصول : التشبيه والمجاز والكناية وليس التشبيه عنده مقدمة لبعض المجاز وهو الاستعارة كما يذهب السكاكى ومن نحا نحوه كابن مالك والخطيب القزوينى وغيرهما ، حيث اتخذوا الدلالة العقلية سواء كانت تضمنيه أو التزامية أساسا للوضوح والخفاء فانحصر عندهم علم البيان فى المجاز والكناية ، وخرج التشبيه لأن دلالته وضعيه يقول السكاكى : " واذا ظهر لك أن مرجع علم البيان هاتان الجهتان علمت انصباب علم البيان الى التعرض للمجاز والكناية "(٢) ،

---

(١) حدائق البيان لوحة ١٩ مخطوط بالاسكوريال رقم ٢٢٤
(٢) المفتاح ص١٧٧

ولكن لما كان في المجاز مايبنى على التشبيه تعين التعرض له يقول أيضا فى الصفحة نفسها من المفتاح : " ثم ان المجاز أعنى الاستعارة من حيث انها من فروع التشبيه كما ستقف عليه ، لاتتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم الى اللازم بل لابد فيها من تقدمة تشبيه شئ بذلك الملزوم فى لازم له تستدعى تقديم التعرض للتشبيه فلابد من أن نأخذه أصلا ثالثا ونقدمه " ، واذا جعل السكاكى أخيرا التشبيه أصلا ثالثا لعلم البيان فليس ذلك راجعا لذات التشبيه وانما لتوقف أحد أصول البيان عليه وهو الاستعارة .

أما الطيبى فقد نهج لحصر أصول البيان نهجا آخر صار به التشبيه ركنا أصيلا فى البيان ، حيث انه لم يعول على الدلالات وانما نظر الى المبالغة التى جعلها الغرض المنشود من علم البيان يقول فى " التبيان " بعد تعريفه لعلم البيان وشرحه للتعريف : " فظهر من هذا البيان أن مرجع البيان الى اعتبار المبالغة فى اثبات المعنى للشئ وذلك اما على طريقة الالحاق أو الاطلاق والثانى اما اطلاق الملزوم على اللازم أو عكسه ، ومايبحث فيه عن الأول التشبيه وعن الثانى المجاز وعن الثالث الكناية فرتبنا الكلام على ثلاثة أصول " (١)

ورأى الطيبى هو مانرتاح اليه لوجود مايعاضده من كلام البلاغيين المتقدمين على مدرسة السكاكى والمتأخرين والمحدثين ، أما المتقدمون فقد أشادوا بالتشبيه وساقوا له من النعوت مايدل على عظم منزلته وجليل خطره فى رفع شأن الكلام ، مما يجعلنا نقرر مطمئنين أن التشبيه له دوره الفعال فى علم البيان كالمجاز والكناية ، يقول أبو هلال العسكرى عن التشبيه : " والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا ، ولهذا ماأطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغن أحد منهم عنه ، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل مايستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان " (٢) .

ويقول عبد القاهر عن التشبيه وتأثيره فى النفس : " وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد مابين المشرق والمغرب ، ويجمع مابين المشئم والمعرق ، وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة فى الجماد

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٣٤
(٢) الصناعتين ص ٢٤٩

ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين " (١)

وهناك من علماء البلاغة المتأخرين من مدرسة السكاكى نفسه من خالفوه وعد والتشبيه أصلا أصيلا فى البيان ، ولعلهم متأثرون فى ذلك برأى الشيخ شرف الدين الطيبى . من هؤلاء السيد الشريف حيث قال : " ماذكره السكاكى فى التشبيه يقتضى جعله مقدمة ينافى كونه مقصدا من المقاصد البيانية ...... ثم الحق أن التشبيه أصل برأسه من أصول هذا الفن وفيه من النكت واللطائف البيانية مالايحصى وله مراتب مختلفة فى الوضوح والخفاء مع أن دلالته مطابقية " (٢) . ومنهم الشيخ الدسوقى اذ يقول : " ويمكن أن يقال انه أى التشبيه باب مستقل لذاته ، لأن الاختلاف فى وضوح الدلالة وخفائها موجود فيه ، فهو من هذا الفن قصدا وان توقف عليه بعض أبوابه لأن توقف بعض الأبواب على بعض لايوجب كون المتوقف عليه مقدمة للفن " (٣) .

واذا تركنا هؤلاء العلماء القدامى الى الباحثين المحدثين فاننا نجد الأستاذ على الجندى يرجح رأى الطيبى بعد ايراده لرأى السكاكى وطريقته فى حصر أصول البيان اذ يقول : " وقد سلك بعضهم فى الحصر طرقا أخرى بعيدة عن تمحل السكاكى يصير بها التشبيه ركنا أصيلا فى البيان وهى الحقيقة التى لايصح الامتراء فيها فالطيبى يقول : اعتبار المبالغة فى اثبات أصل المعنى للشىء اما على طريقة الالحاق أو الاطلاق والثانى اما اطلاق الملزوم على اللازم أو عكسه ومايبحث فيه عن الأول التشبيه وعن الثانى المجاز وعن الثالث الكناية . فانحصر الكلام فى الثلاثة " (٤) .

هذا والسكاكى نفسه بعد حصره المنطقى لأصول البيان لم يستطع الا أن يعترف بمنزلة التشبيه قائلا : " فهو الذى اذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب فى فنون السحر البيانى " (٥) .

وبهذا يتضح أن الطيبى قد وفق الى حد كبير فيما ذهب اليه ازاء منزلة التشبيه من علم البيان .

* * *

---

(١) أسرار البلاغة ص١١٨
(٢) حاشية السيد على المطول ص٣١٠
(٣) حاشية الدسوقى فى شروح التلخيص ج٣ ص٢٩٠
(٤) انظر فن التشبيه ج١ ص٢٣ ومابعدها
(٥) المفتاح ص ١٧٧

جـ ـ نظرة الطيبى الى البديع وصنيعه فيه :

وقف الطيبى فى البديع موقفا جديدا حتى يبدو فى صنيعه فيه ونظرته اليه أنه مخالف لكل من تقدمه من مدرسة السكاكى التى عرفت تقسيم البلاغة الى علومها الثلاثة المعانى والبيان والبديع حيث توسع فى تعريف البلاغة توسعا شمل البديع ولم يضق عنه فقال :

" هى توفية خواص التراكيب فى افادتها وايراد معنى واحد فى طرق مختلفة بدلالتها وتحسينها من جهة المعنى " (١) . ثم عرف البديع مقسما له الى ثلاثة أقسام بقوله : " علم البديع هو معرفة وجوه تحسين الكلام ، والتحسين اما راجع الى المعنى أو الى اللفظ أو اليهما والبحث عن القسم الثانى وظيفة الفصاحة وعن الأول والثالث وظيفة البلاغة " (٢) .

أقول : ان حصره البلاغة فى العلوم الثلاثة وجعله البديع موزعا بين البلاغة والفصاحة موقف جديد يدل على احتفائه بالبديع وانزاله من البلاغة منزلة المعانى والبيان وليس ذيلا تابعا لهما كما تقرر عند السكاكى وتابعيه ، فان السكاكى لم يدخل البديع فى البلاغة حين عرفها كما رأينا عند الطيبى ، لأن البلاغة عنده تختص بعلمى المعانى والبيان ويتضح هذا من تعريفه للبلاغة اذ يقول : " البلاغة هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وايراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها " (٣) ، وبعد أن انتهى من بحث علمى المعانى والبيان قال : " واذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعها وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا مايصار اليها لقصد تحسين الكلام فلا علينا أن نشير الى الأعرف منها وهى قسمان قسم يرجع الى المعنى وقسم يرجع الى اللفظ " (٤) ، وبهذا يتضح أن السكاكى قد فصل المحسنات عن علمى المعانى والبيان واعتبرها وجوها لتحسين الكلام ، ولكنه لم يطلق عليها مصطلح " البديع " وانما الذى أطلق هذا المصطلح هو بدرالدين بن مالك وتابعه الخطيب القزوينى وغيره من المتأخرين ، ولم تكن هذه النظرة للبديع مقصورة على السكاكى فان غيره من رجال مدرسته قد تابعوه وفى مقدمتهم الخطيب القزوينى الذى فصل البديع فصلا تاما عن البلاغة وجعلها محصورة فى المعانى والبيان يقول بعد أن عرف البلاغة

(١) التبيان فى البيان الورقة ٢
(٢) التبيان فى البيان الورقة ٦٢
(٣) المفتاح ص ٢٢٠
(٤) المفتاح ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

وبين أقسامها ومراتبها : " واذ قد عرفت معنى البلاغة فى الكلام وأقسامها ومراتبها فاعلم أنه تتبعها وجوه كثيرة غير راجعة الى مطابقة مقتضى الحال ، ولا الى الفصاحة تورث الكلام حسنا وقبولا " (١) ، فالبديع عنده وعند غيره من المدرسة السكاكية يعود على الكلام بالتحسين العرضى لا الذاتى ، مع أن كثيرا من ألوان البديع يقتضيها الحال ويحتاج اليها الأديب فى شعره ونثره يقول الدكتور حفنى شرف فى كتابه " ابن أبى الأصبع المصرى بين علماء البلاغة " بعد عرضه لألوان من البديع مقررا أن التحسين فيها ذاتى : " ولعلى بعد سياقة تلك النصوص وهذه الأمثلة أن أكون قد ألقيت شيئا من الوضوح على ذلك الغموض الذى اكتنف البديع فاعتبروه ذيلا من ذيول البلاغة وجعلوا تحسينه عرضيا لا ذاتيا " (٢) ، ومن هنا ندرك روعة صنيع الطيبى الى حد ما فيما ألمح اليه بالنسبة الى مكانة البديع من البلاغة ولكنى ألاحظ على الطيبى متابعته للسكاكى فى تقسيمه الثلاثى لعلوم البلاغة ، وفى تعريفه لعلم المعانى الذى يجعل تتبع خواص التراكيب أو معرفة الأحوال التى بها يطابق اللفظ مقتضى الحال مقصورة على علم المعانى . وبهذه المتابعة يمكن مناقشة الطيبى بما لا يجعل لمحاولته كبير فائدة فيقال له جعلك البديع من صميم البلاغة مع متابعتك للسكاكى فيما قرره فى تعريف علم المعانى يقتضى صيرورة البديع من الخصوصيات التى يبحثها علم المعانى ولذا صار من صميم البلاغة ، وهذا الاتجاه لاتلفظه مدرسة السكاكى ولا تردده فان المحسن البديعى اذا اقتضاه المقام صار خصوصية من الخصوصيات التى تنضوى تحت لواء علم المعانى ، وعليه فلم تأت بجديد .

أقول : ياحبذا لو تحرر الطيبى من منهج السكاكى واعتبر موضوعات علم المعانى والبيان والبديع خصوصيات يقتضيها المقام ، وبذلك تصير البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته وجميع موضوعات العلوم الثلاثة مقتضيات لهذه الحال ، لو فعل الطيبى ذلك لكان حقا ذا اتجاه جديد يبحث البلاغة ككل دون نظر الى التقسيم الذى عرفته مدرسة السكاكى فان تتبع خواص التراكيب ليس مختصا بعلم المعانى كما قرر السكاكى وتابعه الطيبى وانما يشمل علم البيان وعلم البديع يقول الشيخ أحمد مصطفى المراغى ناقدا منهج السكاكى : " ان الثمرة المستفادة من علم المعانى وهى معرفة أحوال اللفظ التى بها يطابق مقتضى الحال

---

(١) الايضاح جا ص ١١
(٢) ابن أبى الأصبع المصرى بين علماء البلاغة ص٩٤

تستفاد أيضا من علم البيان والبديع " (١) •

أما عن تقسيم الطيبي للمحسنات تلك القسمة الثلاثية التي لم نمهد لها من قبل فأقول : كان الأجدر به النأى عنها واعتبار المحسنات كلها معنوية لأن أكثر هذه المحسنات متداخل بعضها ببعض بدليل أن بعض ما عده في المحسنات اللفظية عده غيره في المحسنات المعنوية فمثلا يجعل الطيبي العكس والتبديل من المحسنات اللفظية بينما نجد القزويني يعتبره محسنا معنويا (٢) •

ولقد أحس ابن يعقوب المغربي بهذا التداخل فقال : " معنوى أى ينسب الى المعنى لأنه تحسين للمعنى أولا وبالذات بمعنى أن ذلك التحسين قصد أن يكون تحسينا للمعنى وذلك القصد متعلق بتحسين المعنى أولا ومتعلق به لذاته وأما تعلق القصد بكونه تحسينا للفظ فيكون ثانيا وبالعرض أى لأجل عروض كون الغرض فيه أيضا وانما قلنا هكذا لأن هذه الأوجه قد يكون بعضها محسنا للفظ لكن القصد الأصلى منها انما هو الى كونها محسنة للمعنى كما في المشاكلة اذ هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير كقوله :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه •• قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

فقد عبر عن الخياطة بالطبخ لوقوعها في صحبته فاللفظ حسن لما فيه من ايهام المجانسة اللفظية لأن المعنى مختلف واللفظ متفق لكن الغرض الأصلى جعل الخياطة كطبخ المطبوخ في اقتراحها لوقوعها في صحبته ، فان تعلق الغرض بتحسينه اللفظى المشار اليه فهو بالعرض وعلى وجه المرجوحية • وقيل ان الحسن فيها لفظى لأن منشأة اللفظ وفيه نظر لوجوب عدها حينئذ من البديع اللفظى فتأمل وكما في العكس كما يأتى في قول عادات السادات سادات العادات فان في اللفظ شبه الجناس اللفظى لاختلاف المعنى ففيه التحسين اللفظى والغرض الأصلى الاخبار بعكس الاضافة مع وجود الصحة وثانيهما لفظى أى منسوب الى اللفظ لأنه تحسين للفظ بالذات وان تبع ذلك تحسين المعنى لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعا وان شئت قلت في التحسين المعنوى أيضا أن كونه بالذات معناه أن ذلك هو المقصود ويتبعه تحسين اللفظ دائما لأنه كلما أتيد باللفظ معنى حسن تبعه حسن اللفظ الدال عليه " (٣) • ويقول السكاكى : " وأصل

---

(١) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص١١٥ ، ١١٦
(٢) انظر التبيان في البيان الورقة ١١٤ والايضاح جـ٢ ص ٣٥١
(٣) شروح التلخيص جـ٤ ص ٢٨٥

الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعانى لا أن تكون المعانى لها توابـــع أعنى أن لاتكون متكلفة " (١) .

وبهذا يقرر السكاكى من حيث لايدرى أن مرد المحسنات كلها الى المعنى ، فـلا حاجة حينئذ الى هذا التقسيم الثنائى للمحسنات أو الثلاثى كما عند الطيبى .

* ومما تقدم نرى أن الطيبى مع اتجاهاته الجديدة التى تجعل لمنهجه سمـــات خاصة لم يستطع البعد كثيراً عن منهج السكاكى وانما سار فى تياره ونحا منحاه .

د ـ اهتمامه بالفصاحـــة :

مما يدل على بروز شخصية الطيبى فى كتابه بحيث يعد ميزة له عن سائر مدرســـة السكاكى اهتمامه بالفصاحة اهتمام المتقدمين من أمثال ابن سنان الخفاجى وابن الأثـير فدرسها فى فن مستقل حيث قسم كتابه الى فنين أحدهما فن البلاغة بعلومها الثلاثة والآخر فن الفصاحة وبذلك جعل لدراستها حظا موازياً لحظ البلاغة . بخلاف المعهود لـدى مدرسة السكاكى فانها لم تعط للفصاحة مكانها اللائق بها اذ السكاكى نفسه لم يهتم بهـا وانما ذكرها فى نهاية علم البيان ، وكان من الدقة أن يفرد لدراستها فصلا مستقـــلا ، والخطيب القزوينى جعلها مقدمة لدراسة البلاغة والحق أنها من صميم الدراسات البلاغية .

والطيبى فى بحثه للفصاحة جعل لها شروطا كابن سنان الخفاجى ولكنه فى تناولـه للموضوعات نجده يغترف من كلام ابن الأثير ، ولنا مع الطيبى مناقشة فى صنيعـــه ازاء الفصاحة نرجئها الى الفصل الآتى الذى سنتحدث فيه عن :

((الطيبى فى كتابه التبيان بين التأثر والتأثير))

* * *

---

(١) المفتاح ص٢٢٩

٣ ـ الجمع بين الاتجاهات المختلفة فى تناوله للموضوع الواحد :

فمثلا فى باب الايجاز والاطناب يجعل المعيار الذى يقاس به الايجاز والاطناب هو كلام الأوساط ما مسايرا فى ذلك لاتجاه السكاكى الذى يقول بالواسطة بينهما ثم يجرد تلك الواسطة من البلاغة (١) ، ولم يذكر الطيبى المساواة بل حكم على الخطيب القزوينى بالوهم لتمثيله لها بقوله تعالى : " ولايحيق المكر السيىء الا بأهله " وكأنه بذلك لايعترف بجعلها قسما ثالثا كما فعل الخطيب القزوينى وغيره وكنا نظن بالطيبى أن يسير على نهج السكاكى لآخر الباب ولكنه فى حديثه عن الايجاز وجدناه يقسمه الى ايجاز بالحذف وايجاز بغير الحذف فايجاز بغير الحذف عنده ثلاثة أقسام :

أ ـ ايجاز قصر (أظنها بفتح القاف كما يدل على ذلك السياق) وهو أن يقصر اللفظ على المعنى كما وصف بليغ كانت ألفاظه قوالب معانيه •

ب ـ ايجاز تقدير وهو أن يقدر معنى زائد على المنطوق وقيل هذا تضييق •

جـ ـ ايجاز جامع وهو أن يحتوى اللفظ على معان متعددة (٢) •

ومن صنيعه هذا ازاء الايجاز نلاحظ محاولته أن يكون ذا اتجاه جديد عن طريق الجمع بين كلام الآخرين ، فان القسم الأول من الايجاز ينطبق تماما على ما سماه جمهور البلاغيين بالمساواة ، وبذلك يكون قد أدخلها فى الايجاز وهذه متابعة واضحة من الطيبى لابن الأثير علما بأن ابن الأثير لم يقل بالواسطة بين الايجاز والاطناب كما فعل الطيبى فى أول الباب متابعا للسكاكى ، والقسم الثانى من الايجاز هو المسمى عند بدر الدين بن مالك بالتضييق (٣) ، أما القسم الثالث فهو ايجاز القِصر عند غير الطيبى من جمهور البلاغيين

هذا ونلاحظ جمعه بين الآراء فى مواضع متعددة من الكتاب منها أنه فى حديثه عن القلب فى التجنيس جعل القلب قسما من التجنيس تأثرا بابن الأثير الذى جعله مشبها بالتجنيس ، وقد نقل الطيبى أمثلته من ابن الأثير لكنه فى تقسيمه له وجدناه يتابع السكاكى (٤) •
ولعل الدافع للطيبى الى هذا الصنيع محاولته أن يكون كتابه ذا اتجاه جديد بين كتب مدرسة

---

(١) انظر المفتاح ص١٥٥ والتبيان فى البيان الورقة ٢٥
(٢) التبيان فى البيان الورقة ٢٧ ، ٢٨
(٣) المصباح ص٣٦
(٤) التبيان فى البيان الورقة ١١٤ والمفتاح ص٢٢٨ والمثل السائر جـ ص٣٥٦ الى ٣٦١

السكاكي البلاغية ، ومما يؤيد ملاحظتي هذه قوله في المقدمة عن كتابه : " وان كتابي اذا تركت المراء واتبعت الهدى قلت هو بديع في اغرابه واذا رمقت بعين الرضا وجانبت الهوى خلته مفردا في بابه لما ضمنته من مباحث المفتاح ما كان أصولها ومن منافث الكشاف ما آض محصولها ورشحته بما في المصباح والايضاح من النوادر ووشحته بزبدة النهاية والمثل السائر ...... " (١) .

وقد دفعته هذه المحاولة الى الوقوع في التصرف في النقل عن الآخرين حتى لانكاد نجده ينقل عباره بنصها وانما ينقل بالمعنى غالبا دون الاشارة الى ذلك وكان جديرا به أن ينبه القارئ الى أن النقل بالمعنى بل حاول في بعض الأحيان تطويع العبارة المنقولة بما يتمشى مع فهمه هو وهذا مما يؤخذ عليه كصنيعه ازاء الزمخشري عند التعرض لذكر رأيه في التمثيل مع أن المعروف عن الزمخشري عدم تفرقته بين التشبيه والتمثيل ، وكذا نقله لعبارة ابن الأثير ازاء التقسيم (٢) . ثم يختم كلامه في الايجاز والاطناب بكلام نقل جله من الخطيب القزويني دون اشارة الى ذلك النقل (٣) .

* * *

٤ ـ شخصيته في النقد :

لم تكن شخصيته تقليدية مطلقة تكتفي بترديد ماأقره المتقدمون بل نجده يتمتع بسمات ناقدة حيث لم يلتزم التسليم التام دائما حتى لمن احتفى بهم وأشاد بمكانتهم كالسكاكي ، فوجدته يخالفه أحيانا وقد تمثل هذا الاختلاف في جوانب متعددة منها آراؤه التي سبقت الاشارة اليها ، وكذلك توجيهه لبعض الآيات القرآنية حيث وجدته أحيانا يرجح رأي الزمخشري على رأي السكاكي مثل توجيه القصر في قوله تعالى : " وما محمد الا رسول " فيرجح أن القصر للقلب كما يرى الزمخشري لا للافراد كما يرى السكاكي (٤) وتوجيه العطف في قوله تعالى : " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات " حيث يرى الزمخشري أن العطف على فاتقوا . وصاحب المفتاح يجعل العطف على قل مرادا قبل يأيها الناس اعبدوا ربكم (٥) .

---

(١) التبيان في البيان الورقة ٢
(٢) التبيان في البيان الورقة ٩٥
(٣) التبيان في البيان الورقة ٣٠ والايضاح جـ١ ص٢١٠ ، ٢١١
(٤) التبيان في البيان الورقة ٢٠
(٥) التبيان في البيان الورقة ٢٥

وقد أكثر الطيبي من نقد الخطيب القزويني في بعض آرائه أو اعتراضاته على السكاكي ولكن هذا النقد يتسم في عرضه بالاقتضاب حيث يكتفي صاحبنا أحيانا كثيرة بمجرد التصريح بالمخالفة دون أن يدلي بدليل يبين وجهة نظره ولنذكر طرفا من مخالفته للخطيب على سبيل المثال مكتفيا بعد ذلك بالاشارة الى بعض المواضع في الكتاب التي توجد فيها نقدات موجهة الى الخطيب من الطيبي •

يعلق الطيبي على بيت المعري:

والذي حارت البرية فيه •• حيوان مستحدث من جماد

بعد أن استشهد به على ايراد المسند اليه اسم موصول للتشويق الى الخبر متابعا السكاكي يعلق بقوله : والاستشهاد به هنا أوقع منه في باب تقديم المسند اليه ، وهو بهذا يرد على الخطيب القزويني حيث يرى أن الأولى جعله صلة شاهدا لتقديم المسند اليه (١) •

وهذا وألاحظ على الطيبي في كل رد وجهه على الخطيب أو نقده له أو أخذه منه أنه لايصرح باسمه البتة في سائر أبواب الكتاب بخلاف غيره من العلماء الذين نقدهم أو أخذ منهم • ولا أدري لماذا كان هذا الصنيع من الطيبي ؟ • ألأنه أكثر من الرد عليه ومخالفته فتحاشى لذلك ذكر اسمه سترا وتأدبا ، وربما كان لاخفاء الأخذ منه حيث نلمح افاداته الكبيرة من الايضاح على الرغم من عدم التصريح بذلك عند النقل ، ولكن هذا الاحتمال الأخير وهو اخفاء الأخذ قد يضعفه التصريح باسم كتاب الايضاح في المقدمة ضمن المصادر التي نهل منها عند تأليفه لكتابه " التبيان في البيان " وعلى كل حال فأثر الخطيب القزويني في كتاب الطيبي جلي واضح لاينكر •

* * *

<u>٥ ــ الاختصار :</u>

وقد سرى بسببه في الكتاب كثير من الغموض والتعقيد بحيث يجد القارئ في كتاب المفتاح للسكاكي على الرغم من الشكوى من عبارته وغموضها حلا لغموض عبارة الطيبي في بعض الأحيان كصنيعه ازاء الكلام عن الخبر في أول الكتاب (٢) ، ولعل ذلك يصور الى

---

(١) انظر التبيان الورقة ٦ والايضاح جـ١ ص٥٣
وكذلك انظر التبيان فيما يأتي : الورقات ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨
(٢) التبيان في البيان الورقة ٢

أى مدى كانت المعاناة فى فهم كلام الطيبى رحمه الله .

ومما يؤيد هذه الملاحظة قيام عدة شروح على كتاب " التبيان فى البيان " فقد ذكرت كتب التراجم أن الطيبى شرحه ثم أمر بعض تلامذته باختصار ذلك الشرح (١) كما ذكر ابن معصوم المدنى فى كتابه "أنوار الربيع فى أنواع البديع" أن للكرمانى شرحا على كتاب الطيبى (٢) ، والموجود منها مخطوطا هو شرح التلميذ المسمى بحدائق البيان كما أشرت الى ذلك فى الفصل السابق وهو شرح بالقول يتمثل فى شرح بعض عبارات الطيبى التى يرى الشارح غموضها ، وما كانت هذه الشروح الا للاحساس بما فى الكتاب من اختصار واقتضاب .

ونحن لانلوم الطيبى فهذه طبيعة عصره الذى عنى فيه بالاختصار والجمع ثم قيام الشروح والحواشى .

* * *

٦ ـ الاستشهاد بالقرآن وقراءاته :

يتضح من خلال تضاعيف الكتاب أن للطيبى باعا طويلا فى التزود بالقرآن والارتشاف من رحيقه والاقتطاف من شهى ثماره وآية ذلك الاكثار من التمثيل بالآيات وايراد القراءات وكانت له فى سياق الآيات القرآنية استشفاقات ذوقية تدل على استقلال فكرى جميل من ذلك قوله تعليقا على قوله تعالى : " اياك نعبد واياك نستعين " بعد التمثيل بها للانتقال من الغيبة الى الخطاب التفاتا : " والنكتة فيه أن العبد اذا قدر مثوله بين يدى مولاه فمن حقه أن يكون حاضر القلب يقظان النفس ، دراك اللمحة سيما اذا افتتح بالتحميد يستحضر سبوغ نعمائه جلائلها ودقائقها فاذا انتقل منه الى اسم الذات يستجد لنفسه هيبة الجلال والكبرياء ثم اذا انتقل منه الى معنى الربوبية والمالكية يستزيد المحرك ، واذا ارتقى منه الى كونه شامل الرحمة دنياها وعقباها يتضاعف المحرك ثم اذا آل الأمر الى أنه مالك الأمور فى العاقبة ثوابها وعقابها يصير ذلك المحرك الى حد لايتمالك معه الا أن يقبل على معبوده ومعينه الحاضر المشاهد ويقول : اياك نعبد واياك نستعين " (٣) .

---

(١) انظر الدرر الكامنة جـ٢ ص١٥٦
(٢) أنوار الربيع فى أنواع البديع جـ٢ ص٣٤٧
(٣) التبيان فى البيان الورقة ٦٢

ولاعجب فالامام الطيبى ذو ثقافة قرآنية لاتجحد فقد ذكرت كتب التراجم أن لــه تفسيرا للقرآن الكريم ، كما أن حاشيته على تفسير الكشاف أكبر دليل على ثقافته الاسلامية قرآنا وحديثا وقراءات حتى عدت فى قمة الحواشى التى كتبت على الكشاف .

* * *

٧ ـ الاستشهاد بالحديث النبوى الشــــريف :

أكثر الطيبى من ايراد الأحاديث النبوية فى كتابه . وفى هذا استجابة لثقافتـــه الاسلامية وعنايته بالسنة حيث شغلت جانبا كبيرا من انتاجه العلمى فكان له شرح مشكـــاة المصابيح فى الحديث وكتاب الخلاصة فى المصطلح ، كما أسهم مع بعض تلامذته فى وضع كتاب " رجال المشكاة " ومما يدل على عنايته بالحديث واكثاره منه فى كتابه ختمه للكتـــاب بحديث نبوى مطبقا عليه جميع ألوان البلاغة فى صفحات متعددة شغلت جزءا غير قليل مـــن الكتاب (١) .

* وبعد هذا العرض الواضح نرى أن للرجل جهده المشكور فى الحقل البلاغــى ، واذا كان لم يحظ حظوات واسعة فى مضماره فان طبيعة العصر الذى عاش فيه بالنسبة الـــى عالم مفسر محدث بلاغى كالطيبى كانت تجعله الى المحافظة أقرب منه الى التجديد فـــاذا وجدت بوارق استقلالية فى تأليفه البلاغى كتلك التى فصلناها فيما قبل فذلك سبق واضح من مثله ، ولانريد أن نختلق للرجل مناحى التجديد اختلاقا كما يحاول بعض الدارسين حين يعجبون بشخصية علمية يجعلونها متقدمة فى كل شىء ، ولكننا نسلك سبيل الانصاف حين نعطى للرجل مايستحقه دون أسراف ، وذلك ديدن البحث القاصد .

ونرجو أن نكون قد أصبنا فيما بحثناه شاكلة الصواب .

****

****

(١) التبيان فى البيان الورقة ١٢١ الى آخر الكتاب .

الفصل الثالث

الطيبى فى كتابه التبيان بين التأثر والتأثير

==========

أولا : تأثره بمن سبقه :

لقد استجاب الطيبى بكتابه " التبيان فى البيان " لطبيعة العصر الذى عاش فيه ، حيث كان جل هم العلماء فى القرن الثامن كما يقول عنهم الأستاذ عبد المتعال الصعيدى رحمه الله تعالى فى كتابه " المجددون فى الاسلام " هو الجمع والاختصار والشرح ، وكان علماء العجم أول من برع فى هذه الطريقة (١) . ولهذا نرى الامام الطيبى يضمن كتابه كما يقول فى مقدمته مجموعة من كتب المتقدمين عليه وفى مقدمتهم السكاكى ، ولقد بلغ من اعجابه بالسكاكى أن كان يدعوه فى مواطن متعددة من كتابه بشيخنا أو الشيخ بل ذهب به الاعجاب الى أقصى مداه فتابعه فى جل أبواب علمى المعانى والبيان حتى نلمحه ملخصا لكلام السكاكى مع اقتضاب شديد فى بعض المواضع يجعل فهم المعنى عسيرا كما كان يؤيده فى بعض آرائه كرأيه فى المجاز العقلى ويدفع عنه بعض اعتراضات الخطيب القزوينى ومع هذا كله فلم يكن عبدا للتقليد بل كانت له لمحات طيبة أثبت بها شخصيته فى الكتاب كرأيه فى مراعاة حال المتكلم ورأيه فى كون التشبيه أصلا مستقلا من أصول علم البيان مخالفا السكاكى الذى يرى عدم استقلاله وانما جئ به تمهيدا للاستعارة ومن الجديد عند الطيبى نظرته الى البديع وتقسيمه له كما أشرت الى ذلك كله بالتفصيل أثناء حديثى عن أهم السمات المنهجية للطيبى فى كتابه .

واذا تركنا السكاكى وجدناه يستأنس فى بعض المواضع من هذه العلمين بآراء الزمخشرى مرجحا رأيه على رأى سواه فى تعليقه على بعض الآيات القرآنية هذا عن علمى المعانى والبيان . أما فن الفصاحة - وهو يمثل أحد قسمى الكتاب اذ رتب كتابه على فنين هما فن البلاغة وفن الفصاحة - فقد تابع فيه ابن الأثير متابعة جعلته يكاد يكون ملخصا وجامعا لقوله فى هذا الصدد ولم تقف أصول الكتاب التى جمع منها الطيبى ولخص عند هؤلاء الثلاثة فحسب ولكن هؤلاء الثلاثة كان أثرهم فى الكتاب واضحا كما أنهم أيضا

---

(١) المجددون فى الاسلام ص ٢٩٠

يمثلون فى البلاغة اتجاهات مختلفة اذ الزمخشرى يمثل الاتجاه التطبيقى ، وابن الأثير يمثل المدرسة الأدبية والسكاكى يمثل المدرسة الكلامية الفلسفية ، ولهذا سأقتصر فى الحديث عن تأثر بهم الطيبى على هؤلاء الأعلام الثلاثة عاقدا بينه وبين كل واحد منهم بعض الموازنات متمثلة فى عرض بعض النصوص التى يلوح من خلالها مدى هذا التأثر بادئا بالسابق منهم فالذى يليه .

* * *

١ ـ بين الطيبى والزمخشرى

لجار الله الزمخشرى أثر كبير فيمن أتى بعده من البلاغيين ، فمع نزعته الاعتزالية نجد حديثه عن الدقائق البلاغية موضع ارتياح لكثير ممن أتى بعده ، حتى لدى بعض من يتظاهرون بمعارضته فانهم رغم هذه المعارضة يسلّمون له بالشىء الكثير ، وقد لاحظ المغفور له الأستاذ محمد الفاضل عاشور فى كتابه " التفسير ورجاله " أن أكثر معارضى الزمخشرى عيال عليه يغاضبونه وكأنهم يوافقونه ، وذلك لسطوة نفوذ الرجل ودقة حسه البلاغى فيقول عن تفسيره : " عمدة الناس على اختلافهم بين مشايع له ومخالف وعلى وفرة مخالفيه وانقطاع مشايعيه فهم يرجعون اليه على أنه نسيج وحده فى طريقته البلاغية الاعجازية ، وفى غوصه على دقائق المعانى وحسن ابرازها على طريقة علمية سائغة بتحليل التركيب وابراز خصائصه واعتباراته " (١) .

والطيبى أحد هؤلاء الأعلام الذين نهلوا من مورد جار الله الزمخشرى وعلوا ، فهو يشير اليه محتزا به تارة ومستمينا به فى الرد على معارضيه طورا آخر ، واذا لاحظنا أنه لايكثر من النقل المتصل عنه فذلك لطبيعة التفسير الذى كتبه الزمخشرى اذ أن جار الله لم يفرد كتابا برأسه فى البلاغة ، وانما ذكر آراءه البلاغية فى تفسيره تعليقا على النص المعجز لكتاب الله ، فكانت هذه التعليقات أضواء ساطعة للبلاغيين ، ولانعنى بذلك أنها كانت مسلمة لديهم تمام التسليم فانها كانت موضع أخذ ورد ، والطيبى نفسه فى بعض الأحوال يخالف الزمخشرى ويراه قد وهم فى بعض التعليقات وتلك طبيعة العلم والعلماء .

وسنقدم الآن نماذج مما تأثر به الطيبى حين جعل كشاف الزمخشرى أحد مصادرة

---

(١) التفسير ورجاله ص ٥٨

ليرى الدارس مدى انتفاع اللاحق بالسابق وقد اتخذ تأثره بالزمخشري في كتاب " التبيان في البيان " صورا متعددة فهو ينقل عنه وتارة يلخص كلامه في توجيه بعض الآيات القرآنيـــة ، وهذا النقل من الطيبي قد يكون للاستشهاد تأييدا لما يذهب هو اليه أو لمجرد الاستئناس بكلام الزمخشري وقد يكون النقل عن الزمخشري لبيان مخالفة الطيبي له كما يكون للترجيـــح له أو عليه وان كنت آخذ على الطيبي محاولته في بعض المواضع تطويع كلام الزمخشري لمـــا يذهب هو اليه ، ونعرض الآن طرفا من كلام الطيبي ازاء هذه المناحي المختلفة ثم نردف عليه كلام الزمخشري ليتبين لنا صدق ماقلنا عن تأثر الطيبي به .

١ ـ في باب الاسناد بعد أن ذكر الطيبي أنواعه بالنظر الى المخاطب بين أن المخاطـــب المنكر قد ينزل منزلة غير المنكر كما ينزل غير المنكر منزلة المنكر واستشهد للحالتين بقولـــه تعالى : " ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون " يقول الطيبي : " ومـــن الاعتباريين قوله تعالى : ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون . أكد اثبات الموت باعتبارات وان كان مما لاينكر لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في الانكار لتماديهم فـي الغفلة والبعث باعتبار وان كانوا ينكرون جدا لظهور أدلته أي أنه جدير بألا ينكر اذ ليـــس فيه مجال للانكار فنزلهم منزلة المترددين ، هذا والذى يقتضيه النظم الأنيق وتكرير كلمـة التراخي في الرتبة المستدعيه للترقي في الأطوار من لدن قوله : ثم خلقنا النطفة الى قوله ثم انكم يوم القيامة تبعثون أن نحمل إنّ علىّ على مجرد التوكيد بسطا فعل المؤمن في جؤاره ربُنا اننا آمنا . ولما كان الموت هو الوسيلة الى الوصول الى نهاية المطالب وكان مستدعيا لتفكيك ذلك التركيب العجيب الذى من حقه أن يصان منه لقوله تعالى : فتبارك الله أحسن الخالقين . أكد ذلك التوكيد وضم مع كلمة التراخي لفظة بعد ذلك ونحوه رمز جار اللـــه في قول المنافقين : انا معكم انما نحن مستهزئون " (١) .

ونحن نلاحظ على النص السابق للطيبي مايأتي :ـ

نقله لكلام الخطيب القزويني ازاء هذه الآية ملخصا (٢) ، ثم اشارته الى أنـــه لايرتضي الكلام في توجيه التأكيد الذى في الآية الكريمة وأن القائل به ما نظر الى تلاؤم الكلام وما تأمل فيما يقتضيه المقام فان تنسيق الآية بحرف التراخي الذى يفيد التفاوت في الرتبـة

---

(١) التبيان في البيان الورقة ٣

(٢) الايضاح جـ١ ص ٢١

بعد التراخي في الزمان يأبى ذلك التأويل ، والذي يقول به الامام الطيبي هو حصل كلمة التحقيق " ان " على بسط الكلام وتحقيقه بالنظر الى المتكلم كما يفعله الداعي في دعائه بقوله : ربنا اننا آمنا ، فانه لم يخاطب به منكرا ولا طالبا بل يحقق تضرعه بين يدي الله وأنه آمن عن طمأنينة قلب وثبات قدم ، وبعد ذلك استأنس الطيبي فيما ذهب اليه من توجيه التوكيد في الآية بما يشير اليه كلام الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى على لسان المنافقين " انا معكم انما نحن مستهزئون " فماذا قال الزمخشري ؟ .

يقول الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى : " واذ لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون " : (فان قلت لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محققة بإنّ . قلت : ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين وأوكدهما ، لأنهما في ادعاء حدوث الايمان منهم ونشئه من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الايمان غير مشقوق فيه غبارهم ، وذلك اما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه اذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد ، واما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار الذين مثلهم في التوراة والانجيل ؟ ألا ترى الى حكاية الله قول المؤمنين : ربنا اننا آمنا ، وأما مخاطبة اخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه . على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد) (١) .

٢ ـ استشهد الطيبي في باب المسند اليه على مجيئه مؤكدا قصدا الى الشمول بما قاله الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى : " والأرض جميعا قبضته يوم القيامة " يقول الطيبي : " الثامن كونه مؤكدا الئلا يظن بالحكم التجوز نحو عرفت أنا أو ليقصد به الشمول نحو عرفني الرجال كلهم ومنه كل انسان حيوان لأنه في المعنى الانسان كله حيوان قدم لينبه على الشمول ابتداء ومنه قول جار الله في قوله تعالى : والأرض جميعا قبضته . أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة ولكن عن

---

(١) الكشاف جـ١ ص ١٨٥

الأراضى كلهن . فاذ ن لكونه غير قار فى مكانه بشدة الاهتمام وازالة الابهام فى بدء الكلام[1] "

يقول الزمخشرى : " والمراد بالأرض الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان قوله جميعا وقوله والسموات ، ولأن الموضع موضع تفخيم وتعظيم فهو مقتض للمبالغة ومع القصد الى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر ليعلم أول الأمر أن الخبر الذى يرد لايقع عن أرض واحدة ولكن عن الأراضى كلهن " (٢) .

٣ — وفى باب المسند اليه كذلك عند الحديث عن مجيئه مبينا أورد الطيبى من كلام الزمخشرى مايؤيد به كلامه ازاء قوله تعالى : " ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم " . يقول الطيبى : " التاسع كونه مبينا وهو للايضاح نحو صديقك خالد قدم ولفظة الهين فى قوله : لاتتخذوا الهين تدل على الالهية والعدد فلو اكتفى بها لتوهم تناول النهى كليهما فنافيين بقوله اثنين أن النهى عن اثبات التعدد لا الالهية ومنه من وجه قوله تعالى : ومامن دابة فى الأرض وطائر يطير بجناحيه . فان قيدى فى الأرض ويطير بجناحيه لبيان ارادة المتعارف منهما دفعا لتوهم غير المتعارف من قوله : الا أمم أمثالكم فهو تأكيد على سبيل البيان فيوافق قول جار الله معنى ذلك زيادة التعميم والاحاطة . وهو الذى نعنيه بقولنا من وجه " (٣) .

يقول الزمخشرى : " فان قلت هلا قيل ومامن دابة ولاطائر الا أمم أمثالكم ومامعنى زيادة قوله فى الأرض ويطير بجناحيه ؟ قلت معنى ذلك زيادة التعميم والاحاطة ، كأنه قيل : ومامن دابة قط فى جميع الأرضين السبع ومامن طائر قط فى جو السماء من جميع مايطير بجناحيه الا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها " (٤) .

٤ — ذكر الطيبى كذلك فى باب المسند اليه من أغراض تقديمه أن يكون المراد اتصافه بالخبر لا نفس الخبر . ثم ساق من كلام الرازى ومن كلام الزمخشرى مايؤيد وجهته فقال : " المبحث الخامس فى كونه مقدما : اما لأنه الأصل ولامقتضى للعدول عنه أو لأنه متضمن للاستفهام أو لاظهار التشويق الى الخبر .... أو للتفاؤل ... أو لأن الكلام فيه كما اذا كان المطلوب اتصافه بالخبر نحو الزاهد يشرب ويطرب لا نفس الخبر أى لا وقوعه مطلقا وان كان أحدهما مستتبعا للآخر ويعضده ماقال الامام : وقد يتصور فى الفصل أن يكون المراد به وقوعه من الفاعل وأن

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٩

(٢) الكشاف ج٣ ص ٤٠٩

(٣) التبيان فى البيان الورقة ٩

(٤) الكشاف ج٢ ص١٧

يكون مجرد اتصافه به . وعليه قوله تعالى : انك لمن المرسلين على صراط مستقيم . قال جار الله : ليس الغرض يذكر على صراط مستقيم التميز وانما الغرض الوصف . (١)

يقول الزمخشري عن صراط مستقيم " في الآية : " خبر بعد خبر أو صلة للمرسلين فان قلت أي حاجة اليه خبرا كان أو صلة وقد علم أن المرسلين لايكونون الا على صراط مستقيم ؟ قلت : ليس الغرض بذكره ماذهبت اليه من تميز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته . وانما الغرض وصفه ووصف ماجاء به من الشريعة فجمع بين الوصفين في نظام واحد كأنه قال : انك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت وأيضا فان التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لايكتنه وصفه " (٢) .

٥ ـ يلتقي الطيبي بالزمخشري في توجيهه لقول الله تعالى : " ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون " حيث يقول : " فالصابئون رفع بالابتداء وخبره محذوف والنية التأخير فكأنه قيل ان الذين آمنوا حكمهم كذا والصابئون كذلك ثم قدم لأنهم أشد غيا من أولئك " (٣) ، ويقول الزمخشري : " فان قلت فقوله والصابئون معطوف لابد له من معطوف عليه فما هو ؟ قلت : هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله : " ان الذين آمنوا .... الخ " ولا محل لها كما لامحل للتي عطفت عليها . فان قلت : مالتقديم والتأخير الا لفائدة فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم ان صح منهم الايمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدهم غيا " (٤) .

٦ ـ في أثناء حديث الطيبي عن القصر وجدناه يستدل على قصر الافراد بقوله تعالى : " ومامحمد الا رسول " متابعا السكاكي ثم يرد فـ توجيه السكاكي للقصر في الآية بترجيح ماذهب اليه الزمخشري من جعل القصر في الآية للقلب لا للافراد ، ويصرح في ختام كلامه بأن ماأورده مختصر من الكشاف وذلك حيث يقول : " طريق النفي والاستثناء تقول في قصر الموصوف على الصفة افرادا أو قلبا ليس زيد الا شاعر ومازيد الا شاعر ، ومن الافراد

---

(١) التبيان في البيان الورقة ١٠

(٢) الكشاف جـ٣ ص ٣١٤

(٣) التبيان في البيان الورقة ١٨

(٤) الكشاف جـ١ ص٦٣٢

فى التنزيل : وماحمد الا رسول • أى هو صلوات الله عليه مقصور على الرسالة لايتجاوزها الى عدم الهلاك ، كأنهم أثبتوا له الرسالة والخلد استعظاما له تخصص على وصف الرسالة والذى يقتضيه سداد النظم أن يكون قلبا لما أنه تعالى جعل المخاطبين بسبب نكوصهم على أعقابهم عند الارجاف بالنبى صلى الله عليه وسلم كأنهم اعتقدوا أن خلوه سبب للانقلاب وليس حكمه حكم سائر الرسل فى وجوب اتباع دينهم بعد خلوهم فرد عليهم ذلك ، ومن ثم أدخل الهمزة على الفاء السببية ليكون مزيدا لذلك الانكار بمعنى اذا علم أن أمره أمر الانبياء السالفة فلم عكس الأمر فان لم يجعل العلم سببا للثبات فان لايجعل سببا للانقلاب أولى • فى الكشاف " (١) •

هذا هو الكلام الطيبى فماذا قال الزمخشرى ازاء هذه الآية الكريمة : " وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل " فسيخلو كما خلو وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة والزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه " أفائن مات " الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب والهمزة لانكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سببا للتمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم لا للانقلاب عنه " (٢) •

٧ — يخبر الطيبى فى توجيهه لقوله تعالى : " الله نزل أحسن الحديث " أنه اختصر ماأورده من الكشاف وذلك حيث يقول : " الله نزل أحسن الحديث " أى مثل هذا التنزيل لايجوز أن يصدر الا عن الله تعالى • من الكشاف " (٣) •

يقول الزمخشرى : " ايقاع اسم الله مبتدأ وبناء نزل عليه فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه واستشهاد على حسنه وتأكيد لاستناده الى الله ، وأنه من عنده وأن مثله لايجوز أن يصدر الا عنه وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الأحاديث " (٤) •

٨ — يظهر تأثر الطيبى بالزمخشرى أيضا فى توجيهه لمعنى الكاف فى قوله تعالى : " ليس كمثله شىء " قال الطيبى : " وقد يظن فى نحو قوله تعالى "ليس كمثله " أن الكاف صلة وليس

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٢٠
(٢) الكشاف جـ١ ص٤٦٨
(٣) التبيان فى البيان الورقة ٢١
(٤) الكشاف جـ٣ ص ٣٩٤

هناك ، وانما المراد نفى المثل على طريقة الكناية أى ليس شبه ذاته المستجمعة لصفات الكمال شئ فاستعمل مثل فيمن لامثل له كما استعمل فيمن له مثل وهذه خاصية الكناية .

قال صاحب الكشاف ولك أن تزعم أن التكرار للتأكيد قال :

بالأمس كانت فى رخاء مأمول .. فأصبحت مثل كعصف مأكول (١)

واذا تركنا كلام الطيبى الى ماقاله الزمخشرى فى هذا الصدد وجدناه يقول : " قالوا مثلك لايبخل فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكناية لأنهم اذا نفوه عمن يسد مسده وعمن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه ، ونظيره قولك للعربى : العرب لاتخفر الذمم كان أبلغ من قولك أنت لاتخفر ، ومنه قولهم قد أيفعت لداته وبلغت أترابه يريدون ايفاعه وبلوغه وفى حديث رقيقة بنت صيفى فى سقيا عبد المطلب (ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته) والقصد الى طهارته وطيبه ، فاذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله : ليس كالله شئ وبين قوله — ليس كمثله شئ — الا ماتعطيه الكناية من فائدتها وكأنهما عبارتان متعاقبتان على معنى واحد وهو نفى المماثلة عن ذاته ونحوه قوله عز وجل : بل يداه مبسوطتان فان معناه : بل هو جواد من غير تصور يد ولابسط لها ، لأنها وقعت عبارة عن الجود لايقصدون شيئا آخر حتى انهم استعملوها فيمن لايد له فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لامثل له ، ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررها من قال : وصاليات ككما يؤثفين — ومن قال : فأصبحت مثل كعصف مأكول " (٢) .

٩ — فى الاستعارة التمثيلية قسم الطيبى التمثيل الى تحقيقى وتقديرى ، وجعل من التمثيل التقديرى قوله تعالى : " انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا " ونلاحظ فى توجيهه للآية أنه يتابع الزمخشرى فى أحد توجيهيه للآية حيث ان فيها وجهين عند الزمخشرى .

فماذا قال الطيبى ثم ماذا قال الزمخشرى ؟ لنرى مدى هذا التأثر ، يقول الطيبى : " الثانى أن يكون تقديريا كقوله تعالى : " انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض " الآية فى وجه مثلت حال التكليف فى صعوبتها وثقل محملها بحالة مفروضة لوعرضت على السماوات

(١) التبيان فى البيان الورقة
(٢) الكشاف ج٣ ص٤٦٢

والأرض " (١) • ويقول الزمخشري : " انا عرضنا الأمانة • وهو يريد بالأمانة الطاعة فعظم أمرها وفخم شأنها وفيه وجهان أحدهما أن هذه الأجرام العظام من السماوات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله عز وجل وعلا انقياد مثلها وهو مايتأتى من الجمادات • والثاني أن ماكلفه الانسان بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ماخلق الله من الأجرام وأقواه وأشده أن يتحمله ويستقل به فأبى حمله والاستقلال به •••• المثل به في الآية وفي قولهم لوقيل للشحم أين تذهب وفي نظائره مفروض والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحالة المفروضة لوعرضت على السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها " (٢) •

١٠ ـ ذكر الطيبي أن من أدوات الشرط التي يقيد بها المسند أي الفعل " إنْ " وهي تختص بالمضارع ولكنها قد تستعمل في الماضي لنكتة وهي اظهار الحرص لوقوع الجزاء ومثل لذلك بقوله تعالى : " ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون " وهنا نجده في توجيهه لمجيء المعطوف على الجزاء ماضيا يسير على هدى الزمخشري • ويظهر تأثره به واضحا حين أورد اعتراض الخطيب القزويني على الزمخشري ثم أخذ يرد عليه مرجحا بذلك كلام الزمخشري • والآن نعرض كلام الطيبي ثم نردفه بما قاله الزمخشري ثم نثلث بايراد اعتراض الخطيب على الزمخشري •

يقول الطيبي : " وقد تستعمل في الماضي اما لاظهار الحرص لوقوع الجزاء نحو قوله تعالى : " ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون " ترك يودوا الى الماضي المؤذن بالتحقيق نظرا الى لفظه لكون ودادتهم كفر المسلمين أهم شيء عندهم من القتل والشتم وغيرهما لانحسام مادة المداوة برفع الايمان • قيل ان ودادتهم أن يرتدوا كفارا حاصلة وان لم يظفروا بهم فلا يكون في تقييده بالشرط فائدة وأجيب بأن الجزاء مقدر يدل عليه يكونوا لكم أعداء أي ان ظفروا يستوفوا منكم متمناهم وهو مقتضى المداوة الذي هو بسط الأيدي والألسن والرد الى الكفر • وعطف يبسطوا وودوا على قوله يكونوا لكم أعداء على طريقة أعجبني زيد وكرمه • فيكون كل من بسط الأيدي والألسن والارتداد الى الكفر متمناهم لا الارتداد فقط • ثم حذف الجزاء وأقيم يكونوا مقامه كما فعل في قوله تعالى (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) وتحريره

---

(١) التبيان في البيان الورقة ٥٢
(٢) الكشاف جـ٣ ص٢٧٦

أنه تعالى لما نهى المسلمين عن اتخاذهم أولياء وأراد أن يخبر عن مكنون ضمائرهم ومضرى سرائرهم من تمنيهم للمسلمين مضار الدنيا والآخرة وانتهازهم الفرصة لتحقيق متمناهم قال : ان ظفروا بكم يستوفوا منكم مايتمنون من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفارا ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال ويردوكم كفارا لكن لما كان ردهم كفارا أشد متمناهم وأهم شيء عندهم صرح تمنيهم اياه وعدل الى لفظ الماضي لبيان الأولوية والأولية " (١) .

يقول الزمخشري : " فان قلت كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ثم قال : وودوا بلفظ الماضي ؟ قلت الماضي وان كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الاعراب فان فيه نكتة كأنه قيل : ودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم : يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفارا أسبق المضار عندهم وأولها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذالون لها دونه ، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه " (٢) ثم اعترض الخطيب القزويني على كلام الزمخشري هذا حيث قال : (لكن في جعل " وودوا لوتكفرون " عطفا على جواب الشرط نظر لأن ودادتهم أن يرتدوا كفارا حاصلة وان لم يظفروا بهم فلا يكون في تقييدها بالشرط فائدة : فالأولى أن يجعل قوله " وودوا لو تكفرون " عطفا على الجملة الشرطية كقوله تعالى : " وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون ") (٣) .

هذا وقد سبق رد الطيبي عليه مرجحا ماذهب اليه الزمخشري .

١١ ـ ذكر الطيبي في باب الفصل والوصل توجيه كل من السكاكي والزمخشري لبيان المعطوف عليه في قوله تعالى في سورة البقرة : " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات . الآية " ثم رجح رأي الزمخشري على رأي السكاكي وذلك حيث يقول الطيبي : " وأما قوله تعالى وبشر الذين آمنوا بعد قوله فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين فقدره جار الله معطوفا على فاتقوا ، وصاحب المفتاح على قل مرادا قبل يأيها الناس اعبدوا لكون ارادة القول في كلام الله العزيز غير عزيز ، من ذلك قوله : واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا أي يقولان ربنا . وغير ذلك ولناصر القول الأول أن يقول هو أوفق لتأليف النظم لكون التقدير اذا تبين عجزكم عن المعارضة فقد صح عند المعاند

---

(١) التبيان في البيان الورقة ١٤
(٢) الكشاف جـ٤ ص٩٠
(٣) انظر الايضاح جـ١ ص٩٥

والموافق صدقه فاذا صح ذلك فاحذر أيها المعاند العقاب وبشر يامحمد المصدق بالثواب فلا يكون فاتقوا جوابا للشرط المذكور كما توهم ، وانما كان هذا أوفق لاستدعاء وان كنتم فى ريب هذا الجزاء المقدر ولقرب المعطوف عليه ولظهور الجهة الجامعة الوهمية ولتضمنه العقلية لكون المعطوف عليه مسببين عن الشرط ولاجتماع ثلاث مقابلات ولفصل الفاء المفصحة عن المحذوف وأما اعتبار اتحاد المسند اليه فضمحل نظرا الى هذه الوجوه على أن بشر من الخطاب العام تفخيما لجانب البشارة ، هذا والذى هو أقضى لحق البلاغة أن قوله تعالى يأيها الناس خطاب عام يشمل الفريقين المخالف والموافق وأن قوله وان كنتم فى ريب الآية مختصا بالمخالف ومضمونه الانذار وأن قوله وبشر مختصا بالموافق " (١) .

* * *

واذا رأينا فيما سبق كيف تأثر الطيبى بالزمخشرى فى ايراد كلامه استئناسا أو تأييدا لما يذهب هو اليه أو ترجيحا لما يراه الزمخشرى فاننا نجده كذلك يورد بعض توجيهات الزمخشرى ازاء الآيات القرآنية لبيان مخالفته له :

١ — من ذلك ماأورده فى باب المسند اليه حين تحدث عن مجيئه اسم اشارة حول بيان المشار اليه فى قوله تعالى : " ذلك هو الفضل الكبير " فنص على مخالفته للزمخشرى فيما ذهب اليه وذلك حيث قال الطيبى : " وقال تعالى : " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير " ليس المشار اليه بقوله ذلك السبق بالخيرات كما ذهب اليه جار الله لئلا يختص الفضل والثواب به بل معنى الايراث والاصطفاء ليعمهم فيسلم النظم عن الانفكاك" (٢) .
يقول الزمخشرى : " فان قلت : فكيف جعلت " جنات عدن " بدلا من الفضل الكبير الذى هو السبق بالخيرات المشار اليه بذلك ؟ قلت لما كان السبب فى نيل الثواب نزل منزلة المسبب كأنه هو الثواب فأبدلت عنه جنات عدن " (٣) .

٢ — فى باب المسند اليه كذلك تحدث الطيبى عن مجيئه معرفا باللام ذاكرا رأى الزمخشرى فى تعريف الحمد فى قوله تعالى " الحمد لله " ومخالفا له حاكما على رأيه بالوهم يقول

---

(١) انظر التبيان فى البيان الورقة ٢٥ — والكشاف جـ١ ص٢٥٢ والمفتاح ص١٤١
(٢) التبيان فى البيان الورقة ٧
(٣) الكشاف جـ٣ ص ٣٠٩

الطيبى : " وجار الله حمل التعريف فى الحمد لله على المعهد الذهنى ليثبت بعض الحمد لله تعالى وهو وهم لأن الصفات التالية جارية على العموم ومستدعية عموم الحكم المترتب عليها ، المعنى من كان ربا للعالمين من الملائكة والثقلين وغيرهما موليا للنعم كلها جلائلها ودقائقها ظاهرها وباطنها فكل الحمد لم يك الا له لا كما قال وهذه الأوصاف التى أجريت على الله سبحانه وتعالى دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد ولله در القائل : قولك زيد حسن الوجه • وصف لزيد وحمد لباريه اذ كل حسن صنيع جمال فطرته وكل محسن رضيع لبان نعمته " (١) •

هذا وأما عن محاولة الطيبى تطويع كلام الزمخشرى لفهمه وهو ما أخذته عليه فنورد من ذلك ما ذكره عن الزمخشرى حيث حاول أن يأخذ من كلام الزمخشرى التفرقة بين التشبيه والتمثيل مع أن المعروف لدى جميع الكاتبين عن بلاغة الزمخشرى عدم تفرقته بين التشبيه والتمثيل (٢) •

يقول الطيبى : " والتمثيل مستندة الى قصة متوهمة أوشبهها ومن ثم لو اختل من تلك الأمور شىء اختل التشبيه قال الشاعر :

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة •• فلما رأوها أقشعت وتجلت

فان مجرد قوله أبرقت قوما عطاشا غمامة ليس تشبيها مستقلا لأن الغرض فى الوصف هو الابتداء المطمع المؤدى الى الانتهاء المؤيس ولايتم هذا الا بجملة البيت ومن ثم قال جار الله فى قوله تعالى : " مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل ••• الآية" حين جعل الوجه عقليا ومثل نفقة هؤلاء فى زكائها عند الله كمثل جنة وحين جعله الوجه منتزعا من عدة أمور متوهمة قال أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية عند الله زائدة فى زلفاهم فاعتبر فى الثانى معانى متعددة متوهمة وفى الأول الزكاة فليتدبر " (٣) •

قال الزمخشرى : " ومثل نفقة هؤلاء فى زكائها عند الله (كمثل جنة) وهى البستان (بربوه) بمكان مرتفع وخصها لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرا (أصابها وابل) مطر عظيم

---

(١) انظر التبيان فى البيان الورقة ٨ والكشاف جـ١ ص٤٩ ، ٥٠
(٢) علم البيان ص٧٨
(٣) التبيان فى البيان الورقة ٣٨

القطر (فآتت أكلها) ثمرها (ضعفين) مثلى ماكانت تثمر بسبب الوابل (فان لم يصبها وابل فطل) فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها ، أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع زاكية عند الله زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عنده " (١) .

وهكذا يتضح من هذه النصوص التى أوردناها للطيبى مقرونة بكلام الزمخشرى أن الطيبى قد تأثر بالزمخشرى ، واذا كان الغرض هو التدليل على تأثر الطيبى فى كتابه التبيان بالزمخشرى فلنكتف بما أوردنا من نصوص اذ ليس الهدف هو حصر كل مواطن التأثر فى الكتاب حتى نسرد كل ماأورده الطيبى عن الزمخشرى .

= = = =

٢ ـ بين الطيبى والسكاكى

يلوح لقارئ التبيان من الوهلة الأولى الأثر الواضح للسكاكى فيه ، اذ يجئ الرجل فى مقدمة من تأثر بهم الطيبى فى كتابه ، حتى يبدو تلخيصه لكلام السكاكى وآرائه فى جل أبواب علمى المعانى والبيان خاصة ، وقد أغنانا الطيبى نفسه عن استنباط هذه الملاحظة من النصوص فاحتفى بالرجل احتفاء كبيرا حين لقبه بالشيخ أو شيخنا معتبرا " مفتاح العلوم " أول مصدر من مصادر كتابه " التبيان فى البيان " وسأعرض الآن طرفا من نصوص التبيان مقارنة بما يقابلها من نصوص المفتاح حتى يتبين لنا عمليا مدى تأثر الطيبى بالسكاكى ، وليس غرضنا فى هذا الصدد تتبع كل النصوص الدالة على هذا التأثر وانما الغاية التدليل عليه بتقديم نماذج على سبيل المثال لا على سبيل التحديد والحصر فأقول :

١ ـ تابع الطيبى السكاكى فى حديثه عن تعريف علم المعانى وتقسيمه للكلام من حيث الخبر والطلب واذا عرضنا ماقاله الطيبى بهذا الصدد وماقاله السكاكى تبين لنا متابعة الطيبى للسكاكى وتلخيصه لكلامه مع اختصار يشيع الغموض فى الأسلوب بحيث يصبح فهم المعنى من الصعوبة بمكان فماذا قال الطيبى أولا ؟ ثم ماذا قال السكاكى ثانيا ؟ .

---

(١) الكشاف جـ١ ص٢٩٥

يقول الطيبى : " علم المعانى هو تتبع خواص التراكيب فى الافادة تفاديا عن الخطأ فى التطبيق . أعنى بالتراكيب ماصدر عن البليغ لنزول غيره منزلة النميق ، والخواص مايسبق منه الى الفهم كنفى الشك أو رد الانكار أو مجرد الاخبار أو غيرها ، والافادة تفهيم المخاطب اما الحكم كزيد قائم أو لازمه وهو علمه علمك به ، كحفظت القرآن لمن حفظه ، والفهم فهم البليغ والا فلا اعتداد ، كما سئل على رضى الله عنه من المتوفى بالكسر وقراءته عليه قال . الله تعالى ، لأن السائل لم يكن بليغا ، والتطبيق ايراد الكلام على مايقتضيه المقام ، فالخاصية اما جارية مجرى اللازم بالنظر الى البليغ أو لازمه بالنظر الى نفس التركيب والموضوع التراكيب من حيث الخاصية " (١) .

يقول السكاكى : " علم المعانى هو تتبع خواص تراكيب الكلام فى الافادة ومايتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره ، وأعنى بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة وهى تراكيب البلغاء لا الصادرة عمن سواهم ، لنزولها فى صناعة البلاغة منزلة أصوات حيوانات تصدر عن محالها بحسب مايتفق ، وأعنى بخاصية التركيب مايسبق منه الى الفهم عند سماع ذلك التركيب جاريا مجرى اللازم له لكونه صادرا عن البليغ لا لنفس ذلك التركيب من حيث هو هو ، أو لازما له لما هو هو حينا ، وأعنى بالفهم فهم ذى الفطرة السليمة مثل مايسبق الى فهمك من تركيب ان زيدا منطلق اذا سمعته عن العارف بصياغة الكلام من أن يكون مقصودا به نفى الشك أو رد الانكار ، أو من تركيب زيد منطلق من أنه يلزم مجرد القصد الى الاخبار أو من نحو منطلق بترك المسند اليه من أنه يلزم أن يكون المطلوب به وجه الاختصار مع افادة لطيفة مما يلوح بها مقامها وكذا اذا لفظ بالمسند اليه ، وهكذا اذا عرف أو نكر أو قيد أو أطلق أو قدم أو أخر على مايطلعك على جميع ذلك شيئا فشيئا مساق الكلام فى العلمين باذن الله تعالى " (٢) .

هذا عن تعريف علم المعانى فماذا عن تقسيم الكلام عند الطيبى والسكاكى ؟ قال الطيبى بعد بيانه أن موضوع علم المعانى هو التراكيب من حيث الخاصية قال عن التراكيب: " وهى خبرية وطلبية " وفى ذلك متابعة للسكاكى حيث قسم الكلام الى خبر وطلب بخلاف الخطيب القزوينى حين قسم الكلام الى خبر وانشاء ، ثم قال الطيبى : " أما الخبر فقد

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٢
(٢) المفتاح ص ٧٦

قيل انه مستغن عن التحديد لمعرفة كل بالصادق والكاذب واحتمالهما لازمه ، ومرجعه الى حكم الحاكم بمفهوم على مثله نفيا أو اثباتا لا الى حكم مفعول يشير اليه بالذى هو لزيد فان الصلة حقها أن تكون معلومة عند المخاطب ، وبأنه زيد لأنه منقول من الحكمية الى كونه أحد طرفيه يحكم له فى : حق أنه زيد ، أو به فى : الذى أدعيه أنه زيد ، وسبب الاحتمال امكان تحقيق الحكم مع الصدق أو الكذب من حيث انه حكم والخبر الصادق مايطابق الواقع وماقيل هو مايطابق اعتقاد المخبر وان خالفه لتبرئه به لامعول عليه ، لكون تكذيبنا اليهودى • الاسلام باطل وتصديقنا حق يقلمه (قالوا نشهد انك لرسول الله) وتكذيب الله اياهم مؤذن به وأجيب بأن التكذيب راجع الى دعوى كون الشهادة عن صميم القلب " (١) • ثم قال أيضا عن الطلب : " وأما الطلب فهو أيضا مستغن عن التحديد لتقابله الخبر ولابد للطالب من تقدم تصور المطلوب اجمالا كشىء ما أوتفصيلا كانسان ومن أن لايكون المطلوب حاصلا عند الطلب " (٢) •

قال السكاكى : " ان التعرض لخواص تراكيب الكلام موقوف على التعرض لتراكيبه ضرورة لكن لايخفى عليك حال التعرض لها منتشرة فيجب المصير الى ايرادها تحت الضبط بتعيين ماهو أصل لها وسابق فى الاعتبار ثم حمل ماعدا ذلك عليه شيئا فشيئا على موجب المساق ، والسابق فى الاعتبار فى كلام العرب شيئان : الخبر والطلب •••••••••• " ثم قال : " واعلم أن الممتنين بشأنهما فرقتان فرقة تحوجهما الى التعريف وفرقة تغنيهما عن ذلك واختيارنا قول هؤلاء أما فى الخبر فلأن كل أحد من العقلاء ممن لم يمارس الحدود والرسوم بل الصغار الذين لهن أدنى تمييز يعرفون الصادق والكاذب بدليل أنهم يصدقون أبدا فى مقام التصديق ويكذبون أبدا فى مقام التكذيب ، فلولا أنهم عارفون للصادق والكاذب لما تأتى منهم ذلك ، لكن العلم بالصادق والكاذب كما يشهد له عقلك موقوف على العلم بالخبر الصدق والخبر الكذب ، هذا والحدود التى تذكر كقولهم الخبر هو الكلام المحتمل للصدق والكذب أو التصديق والتكذيب وكقولهم هو الكلام المفيد بنفسه اضافة أمر من الأمور الى أمر من الأمور نفيا أو اثباتا ، بعد تعريفهم الكلام بأنه المنتظم من الحروف المسموعة المتميزة ، وكقول من قال هو القول المقتضى بصريحه نسبة معلوم الى معلوم بالنفى

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٢

(٢) التبيان الورقة ٣٠ ، ٣١

أو بالاثبات ليتها صلحت للتعويل ، أما ترى الحد الأول حين عرف صاحبه الصدق بأنه الخبر عن الشيء على ما هو به ، والكذب بأنه الخبر عن الشيء لا على ما هو به ، كيف دار فخرج عن كونه معرفا ، ومن ترك الصدق والكذب الى التصديق والتكذيب ما زاد على أن وسع الدائرة ، والحد الثاني أوجب أن يكون قولنا في باب الوصف الغلام الذي لزيد أوليس لزيد خبرا لكونه كلاما على قول صاحبه ومفيدا بصريحه اضافة أمر وهو الغلام الى أمر وهو زيد بالاثبات في أحدهما والنفي في الآخر مع انتفاء كونه خبرا بدليل انتفاء لازم الخبر وهو صحة احتمال الصدق والكذب فلا نزاع في كون ذلك لازم الخبر ، انما النزاع في أن يكون حدا ، والمثال ما تقدم وكذا قولنا ان زيدا غلام أو ليس غلاما بفتح ان ، كيف خرج عن أن يكون مفردا والحد الثالث حين أوجب أن لا يكون قولنا ما لا يعلم بوجه من الوجوه لا يثبت ولا ينفى خبرا لامتناع أن يقال ما لا يعلم بوجه من الوجوه معلوم مع أن الكلام خبر كيف خرج عن أن يكون منعكسا مع انتقاضه بالنقضين المذكورين وهما الغلام الذي لزيد أو ليس لزيد ، وأن زيدا غلام أو ليس غلاما بفتح أن ..... ثم قال : " ان الخبر والطلب بعد افتراقهما بحقيقتهما يفترقان باللازم المشهور وهو احتمال الصدق والكذب " ثم قال عن الخبر :

" اعلم أن مرجع الخبرية واحتمال الصدق والكذب الى حكم المخبر الذي يحكمه في خبره بمفهوم لمفهوم كما تجده فاعلا ذلك اذا قال هو لزيد هو ليس لزيد لا الى حكم مفصول يشير اليه اشارته اذا قال الذي هو لزيد أو ليس لزيد فأوقعه صلة للموصول الذي من حقه أن يكون صلته قبل اقترانها به معلومة للمخاطب ، أو اذا قال أنه زيد بفتح أن فنقل الحكم بثبوت الزيدية للضمير الى جعله تصورا مشارا اليه يحكم له أو به اذا قال حق انه زيد أو قال الذي ادعيه زيد ، فأما السبب في كون الخبر محتملا للصدق والكذب فهو امكان تحقق ذلك الحكم مع كل واحد منهما من حيث انه حكم مخبر ، ومرجع كون الخبر مفيدا للمخاطب الى استفادة المخاطب منه ذلك الحكم ويسمى هذا فائدة الخبر كقولك زيد عالم لمن ليس واقفا على ذلك أو استفادته منه أنك تعلم ذلك كقولك لمن حفظ التوراة قد حفظت التوراة ، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر ، والأولى بدون هذه تمتنع وهذه بدون الأولى لا تمتنع كما هو حكم اللازم المجهول المساواة ومرجع كونه صدقا أو كذبا عند الجمهور الى مطابقة ذلك الحكم للواقع أو غير مطابقته له وهو المتعارف بين الجمهور وعليه التعويل ، وعند بعض الى طباق الحكم لاعتقاد المخبر أو ظنه والى لاطباقه لذلك سواء كان ذلك الاعتقاد أو الظن خطأ أو صوابا

بناءً على دعوى تبرئ المخبر عن الكذب متى ظهر خبره بخلاف الواقع واحتجاجه لها بأن لم يتكلم بخلاف الاعتقاد أو الظن لكن تكذيبنا لليهودى مثلا اذا قال الاسلام باطل وتصديقنا له اذا قال الاسلام حق ينجيان بالقلع على هذا ويستوجبان طلب تأويل لقوله تعالى : " اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون " وهو حمل قول المنافقين على كونه مقرونا بأنه قول عن صميم القلب " (١) .

٢ ــ عقد الطيبى بعد باب المسند بابا سماه التقديم والتأخير ، وكان مما اشتمل عليه هذا الباب عدة فصول تدور حول تقديم معمولات الفعل عليه ، كتقديم الفاعل المعنوى وتقديم المفعول ، كما تدور حول تقديم بعض المعمولات على بعض ، ونلاحظ على الطيبى تلخيصه لكلام السكاكى فى هذا الصدد ومتابعته وتأييده له ، وقد تمثل هذا التأييد فى دفع بعض اعتراضات الخطيب القزوينى على السكاكى ، ولنعرض الآن ما قاله الطيبى ثم نعقب عليه بما قاله السكاكى لنرى مدى صدق هذه الموازنة بين الرجلين .

قال الطيبى : " فصل فى تقديم الفاعل المعنوى تقول أنا سعيت فى حاجتك فى قصر الافراد ، اذا توهم الشركة فى السعى ، والقلب اذا أسند الى الغير ويؤكد الأول بوحده والثانى بلاغيرى ، وأما قولهم اتعلمنى بضب أنا حرشته فللافراد وانكار التعليم مصححه أى لاأحتاج الى تعليمك ومعاونتك ومنه قول قوم شعيب عليه السلام رادين زعمه فى أن العزيز رهطه ونفسه وماأنت علينا بعزيز أى العزيز رهطك لاأنت فلذا طابقه أرهطى أعز عليكم من الله أى من نبى الله ، ولو قال ماعززت لم يصح قيل ان مثل أنا عارف لايفيد الاختصاص لكونه غير فعلى والتمسك بالجواب ليس بشىء لجواز أن يفهم عزتهم من قوله ولولا رهطك لرجمناك ، ونفى العزة من قوله : وماأنت علينا بعزيز .

وأجيب بما مر أنه ملحق بالفعل فى التقوى والتخصيص على أن الذوق شاهد صدق فيما نحن بصدده بافادته وقد قال جار الله العلامة رحمه الله ان ايلاء الضمير حرف النفى يدل على أن الكلام فى الفاعل لافى الفعل ، وما فهم السائل من كلام الشيخ عبد القاهر من أن ايلاءه يفيد الاختصاص من غير شرط ، وقيد كونه فعليا شرط ولو سلم فلم قلت أنه

---

(١) انظر المفتاح ص٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

ليس بفعلى وبين الفعل والفعلى بون قوله والتمسك بالجواب ليس بشىء قلنا التمسك هنا باقادة التخصيص على مطابقة الجواب لاعكسه بل الاعتراض ليس بشىء لأن قوله وما أنت علينا بعزيز تقرير للسابق على الطرد والمكس عنادا منهم فلابد من اعتبار دلالتى المنطوق والمفهوم فى كل من اللفظين واستقلاله فيهما ، وانما قدر أعز من نبى الله مع أنه موهم أن يكون له المزة وأنهم نفوها عنه رأسا ، لأن المراد منه أن نسبة القرابة الى القوم أعز عليكم من نسبتى الى الله بالنبوة ، ومن القلب قوله :

وما أنا أسقمت جسمى به •• ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

أى أن هذا السقم الموجود والضرم الثابت ماأنا جالبا لهما فحسب فالقصد الى نفى كونه فاعلا لهما وحده لا الى نفيهما ، ولذلك لايجوز أن يقال ماأنا سميت فى حاجتك ولا أحد سواى ، ويجوز ماسميت أنا فى حاجتك ولاأحد غيرى لأنه ليس فيه أكثر من الاخبار بنفى السعى ، لأنه لاتقديم فيه ، قال جار الله : وانما يقال مقدم ومؤخر للمزال لا للقار فى مكانه ، ويحترز أن يقال ماأنا ضربت الا زيدا لما أن ايلاء النفى أنا نفى لأن يكون هو الفاعل ونقض النفى بالا يقتضى حصول الفعل منه ، لالما قيل ان ذلك يقتضى انسانا غير المتكلم قد ضرب من عدا زيدا من الناس ، لاحتمال أن يكون قد رد بهذا زعم من اعتقد أنه قد ضرب من عدا زيدا منهم لأن ذلك مما يستهجن ، كما استهجن ماأنا ضربت أحدا من الناس لاستلزامه ذلك والكلام فى نفى الصحة ولايحترز ماضربت أنا الا زيدا •

(فصل) فى تقديم المفعول :

تقول زيدا عرفت افرادا وقلبا ويؤكد بلاغيره ، ولايقال مازيدا ضربت ولا أحدا من الناس ولا مازيدا ضربت ولكن أكرمته فتعقب المنفى باثبات ضده لأن الكلام ليس فى الفعل فيرد الى آخر ، وانما هو فى المفعول ، وقوله تعالى : بل الله فاعبد • يفيد قصر افراد لاضرابه عن الشرك فى قوله تعالى : لئن أشركت ليحبطن عملك • فان قيل فهلا حملوا قول المجيب عن سؤال السائل ماتتمنى ؟ وجه الحبيب أتمنى على الاختصاص دون الاهتمام كما يشير اليه الحاتمى :

لى حبيب لو قيل ماتتمنى •• ماتعديته ولو بالمنون

أشتهى أن أحل فى كل جسم •• فأراه بلحظ كل العيون

قلت لأن الهجو هنا والاشتياق الى وجه الحبيب ، وشدة تزايده صيرته كأنه نصب عينه ، فاقتضى المقام لذلك الاهتمام ، وأن الشاعر ليس فى ذلك المقام كأنه قدر السائل مخطئا .

(فصل) فى تقديم المجرور :

وقوله تعالى : " وأرسلناك للناس رسولا " قدمه واللام للاستغراق مريدا به قصر قلب ردا لزعم اليهود أن بعثته اختصت بالعرب لكون الكل فى مقابلة البعض فلا يحمل على العهد لئلا يختصهم ولا على الجنس كيلا يخرج الجن لتقابلهما .

(فصل) فى التقديم الواقع بين المعمولات :

وذلك للاهتمام دون التخصيص كما اذا قيل لك : عرفت شركاء لله ، يقف شعرك وتقول : لله شركاء أى أعرفت لله شركاء ؟ وعليه قوله تعالى : وجعلوا لله شركاء ، قيل فى جعل هذا التقديم للاهتمام نظر لأن الآية مسوقة للانكار العائد الى نسبة أحدهما الى الآخر لا الى أحدهما حتى يكون أهم من الآخر ، وأجيب بأن الانكار وان كان عائدا الى النسبة لكن فى تقديم أحد المنتسبين فائدة ليست فى التأخير ، لأن الكلام يقع بالأصالة فيه ويكون الآخر تبعا له قال سيبويه : انهم يقدمون الذى بيانه أهم وهم ببيانه أعنى وان كانا جميعا مما يهمانهم . فعلى هذا لو قدم لله يكون المقصود بالذات استعظام ذاته تعالى من أن يكون له شركاء من غير نظر الى حال الشركاء أولا وان كان يلزمه بالعرض انتفاء نسبتها عنه ولو قدم شركاء لم يكن كذلك وتأخير المنصوب عن المرفوع تارة فى قوله تعالى : لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا . لكونه مصبه وتقديمه عليه أخرى فى قوله : لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا . للاهتمام اذ الانكار ههنا أبلغ لأن الذى قبل هذا أئذا كنا ترابا وآباؤنا وقبل الأولى أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما فكونهم مع أسلافهم ترابا صرفا أدخل فى الانكار من كونهم وحدهم ترابا وعظاما " (١) .

ولنكتف بهذا القدر من كلام الطيبى لننظر ماذا قال السكاكى ازاء هذه المسائل التى عرضها الطيبى يقول السكاكى : " وأما اعتبار التقديم والتأخير مع الفعل فعليه لا ثنا أنواع ، أحدها أن يقع الفعل ويتع ماهو فاعل

(١) التبيان فى البيان الورقة ١٧ ، ١٨

له معنى كنحو أنا عرفت وأنت عرفت وهو عرف دون زيد عرف ، وثانيها أن يقع بينه وبين غير ذلك كنحو زيدا عرفت ودرهما أعطيت وعمرا منطلقا علمت ، وثالثها أن يقع بين مايتصل به كنحو عرف زيد عمرا وعرف عمرا زيد وعلمت زيدا منطلقا وعلمت منطلقا زيدا وكسوت عمرا جبة وجبة عمرا ولكل منها حالة تقتضيه فالحالة المقتضية للنوع الأول هي أن يكون هناك وجود فعل وعالم به لكنه مخطىء في فاعله أو في تفصيله وأنت تقصد أن ترده الى الصواب كما تقول أنا سعيت في حاجتك أنا كفيت مهمك تريد دعوى الانفراد بذلك وتقريرا للاستبداد وترد بذلك على من زعم أن ذلك كان من غيرك أو أن غيرك فعل فيه ما فعلت ، ولذلك اذا أردت التأكيد قلت للزاعم في الوجه الأول أنا كفيت مهمك لاعمرو أو لاغيرى ، وفي الوجه الثاني أنا كفيت مهمك وحدى وقولهم في المثل : أتعلمني بضب أنا حرشته شاهد صدق على ماذكر عند من له ذوق ، وليس اذا قلت سعيت في حاجتك أو سعيت أنا في حاجتك يجب أن يكون أن عند السامع وجود سعى في حاجته ، قد وقع خطأ منه في موجده أو تفصيله فتقصد ازالة الخطأ بل اذا قلته ابتداء مفيدا اياه وجود السعى في حاجته منك غير مشوب بتجوز أو سهو أو نسيان صح ومنه مايحكيه علت كلمته عن قوم شعيب : وماأنت علينا بعزيز أى العزيز علينا ياشعيب رهطك لا أنت لكونهم من أهل ديننا ولذلك قال عليه السلام فى جوابهم أرهطى أعز عليكم من الله أى من نبى الله ولو أنهم كانوا قالوا وماعززت علينا لم يصح هذا الجواب ولاطابق ، ولذلك ينهى أن يقال فى النفى عند التقديم ماأنا سعيت فى حاجتك ولاأحد سواى لاستلزام أن يكون سعى فى حاجته غيرك لا أنت وأن لايكون سعى فى حاجته غيرك ولا أنت ، ولا ينهى أن يقال ماسعيت فى حاجتك ولا أحد غيرى ، وكذلك اذا أكدت فقلت ماسعيت أنا فى حاجتك ولا أحد غير ولذلك أيضا يستهجن أن يقال فى النفى عند التقديم ماأنا رأيت أحدا من الناس لاستلزام أن يكون قد اعتقد فيك معتقد أنك رأيت كل أحد فى الدنيا فنفيت أن تكون اياه ، ولم يستهجن أن يقال مارأيت أحدا من الناس ، أو مارأيت أنا أحدا من الناس ، ويحترز عن أن يقال عند التقديم ماأنا ضربت الا زيدا لأن نقض النفى بالا يقتضى أن تكون ضربت زيدا وتقديمك ضميرك وايلاءه حرف النفى يقتضى نفى أن تكون ضربته ، ولا يحترز أن يقال ماضربت الا زيدا وما ضربت أنا الا زيدا ، والحالة المقتضية للنوع الثانى أن يكون هناك من اعتقد أنك عرفت انسانا

وأصاب لكن أخطأ فاعتقد ذلك الانسان غير زيد ، وأنت تقصد رده الى الصواب فتقول زيدا عرفت واذا قصدت التأكيد والتقرير قلت زيدا عرفت لاغيره ولذلك نهوا أن يقال مازيدا ضربت ولا أحدا من الناس فهيهم أن يقال ماأنا ضربت زيدا ولاأحد غيرى ، والنهى الواقع مقصور على الحالة المذكورة أما اذا ظن بك القائل ظنا فاسدا أنك تعتقد ه ضرب عمرا أو أنك تعتقد كون زيد مضروبا لغيره ثم قال لك مدعيا فى الصورة الأولى زيدا ضربت وفى الثانية أنا ضربت زيدا فيصح منك أن تقول مازيدا ضربت ولاأحدا من الناس أو ماأنت ضربت زيدا ولاأحد غيرك ، فتأمل فالفرق واضح وكذلك امتنعوا أن يقال مازيدا ضربت ولكن أكرمته فتعقب الفعل المنفى باثبات فعل هو ضده ، لأن مبنى الكلام ليس على أن الخطأ وقع فى الضرب فيرده الى الصواب فى الاكرام وانما مبناه على أن الخطأ وقع فى المضروب حين اعتقد زيدا فترده الى الصواب أن تقول ولكن عمرا وكذلك اذا قلت بزيد مررت أفاد أن سامعك كان يعتقد مرورك بغير زيد فأزلت عنه الخطأ مخصصا مرورك بزيد دون غيره والتخصيص لازم للتقديم ، ولذلك تسمع أئمة علم المعانى فى معنى اياك نعبد واياك نستعين يقولون نخصك بالعبادة لانعبد غيرك ونخصك بالاستعانة منك لانستعين أحدا سواك ..... وتراهم فى قوله تعالى "وأرسلناك للناس رسولا" يحملون تعريف الناس على الاستغراق ويقولون المعنى لجميع الناس رسولا وهم العرب والعجم لاللعرب وحدهم دون أن يحملوه على تعريف العهد أو تعريف الجنس لئلا يلزم من الأول اختصاصه بمحضر الانس لوقوعه فى مقابلة كلهم ، ومن الثانى اختصاصه بالانس دون الجن ولافادة التقديم عندهم التخصيص تراهم يفرعون على التقديم مايفرعون على نفس التخصيص ، فكما اذا قيل ماضربت أكبر أخويك فيذهبون الى أنه ينبغى أن يكون ضاربا للأصغر بدليل الخطاب يذهبون أيضا اذا قيل مازيدا ضربت الى أنه ينبغى أن يكون ضاربا لانسان سواه ولذلك يمتنعون أن يقال : مازيدا ضربت ولاأحدا من الناس ولايمتنعون أن يقال ماضربت زيدا ولاأحدا من الناس ..... والحالة المقتضيه للنوع الثالث هو كون العناية بما تقدم أتم وايراده فى الذكر أهم والعناية التامة بتقديم مايقدم والاهتمام بشأنه نوعان : أحدهما أن يكون أصل الكلام فى ذلك هو التقديم ولايكون فى مقتضى الحال مايدعو الى العدول عنه كالمبتدأ المعرف فان أصله التقديم على الخبر نحو زيد عارف وكذى الحال المعرف فأصله التقديم على الحال نحو جاء زيد راكبا ، وكالعامل فأصله التقديم على معموله نحو عرف زيد عمرا وكان زيد عارفا وان زيدا عارف ومن زيد وعلام

عمر ، وكالفاعل فأصله التقدم على المفعولات ومايشبهها من الحال والتمييز نحو ضرب زيد الجانى بالسوط يوم الجمعة أمام بكر ضربا شديدا تأديبا له ممتلئا من الغضب وامتلأ الاناء ماء ، وكالذى يكون فى حكم المبتدأ من مفعولى باب علمت نحو علمت زيدا منطلقا ، أو فى حكم فاعل من مفعولى باب أعطيت وكسوت نحو أعطيت زيدا درهما وكسوت عمرا جبة فزيد عاط وعمرو مكتس فحقهما التقدم على غيرهما وكالمفعول المتعدى اليه بغير وساطة فأصله التقدم على المتعدى اليه بوساطة نحو ضربت الجانى بالسوط ، وكالتوابع فأصلها أن تذكر مع المتبوع فلا يقدم عليها غيرها نحو جاء زيد الطويل راكبا وعرفت أنا زيدا وكذا عرفت أنا وفلان زيدا وغير ذلك مما عرف له فى علم النحو موضع من الكلام بوصف الأصالة بالاطلاق .
وثانيهما أن تكون العناية بتقديمه والاهتمام بشأنه لكونه فى نفسه نصب عينك وأن التفات الخاطر اليه فى التزايد كما تجدك اذا وارى قناع الهجر وجه من روحك فى خدمته وقيل لك ماالذى تتمنى تقول وجه الحبيب اتمنى فتقدم أو كما تجدك اذا قال أحد عرفت شركاء لله يقف شعرك فزعا وتقول لله شركاء وعليه قوله تعالى وجعلوا لله شركاء .... ومنها أن قال فى سورة المؤمنين : لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا . فذكر بعد المرفوع ماتبعه المنصوب وهو موضعه وقال فى سورة النمل : لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا . فقدم لكونه منها أهم ، يدلك على ذلك أن الذى قبل هذه الآية أءذا كنا ترابا وآباؤنا أءنا لمخرجون . والذى قبل الأولى أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما . فالجهة المنظور فيها هناك هى كون أنفسهم ترابا وعظاما والجهة المنظور فيها ههنا هى كون أنفسهم وكون آبائهم ترابا لا جزء هناك من بناهم على صورة نفسه ولاشبهة أنها أدخل عندهم فى تبعيد البعث فاستلزم زيادة الاعتناء بالقصد الى ذكره فصيره هذا العارض أهم " (١) .

٣ ـ يظهر تأثر الطيبى بالسكاكى أيضا فى تأييده لما ذهب اليه السكاكى ازاء المجاز العقلى حيث رجح الطيبى جعل المجاز العقلى من قبيل الاستعارة بالكناية وذلك حيث قال " واعلم أن الشيخ نظم هذا المجاز فى سلك الاستعارة بالكناية بأن جعل الربيع استعارة عن الفاعل الحقيقى بوساطة المبالغة فى التشبيه ونسبة الانبات القرينة ، وجعل الأمير

---

(١) أنظر المفتاح من ص ١٢٤ الى ص ١٢٩

المدبر لأسباب هزيمة العدو واستعارة عن الجند ونسبة الهزم القرينة ، وكذا القول في ياهامان ابن لي .... وماذهب اليه الشيخ هو الحق اذ من شرط هذا المجاز أن تكون العلاقة بين المذكور والمتروك التشبيه كما سبق والالم يصح كما اذا قيل : أنبت الربيع البقل ، وقال جار الله وقد يسند الى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة لمضاهاتها الفاعل كما يضاهي الرجل الأسد وماهذا شأنه لايكون الاستعارة هذا ثم جرب ذوقك في قول القائل :

من كان في الدنيا أخا ثقة بها .. والأمن مذهب ليله ونهاره

عطفت عليه من الردى بقوائل .. قد نام عنها ناظر لحذاره

كيف تجده في لطف قوله والأمن مذهب ليله ونهاره عند الاستعارة ويفقده عند المجاز العقلي وكن الحاكم الفيصل دون الشيخ رحمه الله " (١) .

٤ ـ اذا لاحظنا تأثر الطيبي الواضح بالسكاكي من خلال ماقدمنا من نصوص فاننا نجد كذلك هذا التأثر أوضح في الاستعارة من حيث تعريفها والكلام على جعلها مجازا لغويا أو عقليا وعلى قرينتها وأقسامها وادخال التبعية في المكنية ونحن نقتصر هنا على عرض كلام الطيبي والسكاكي آزاء تعريفها وبيان أنها مجاز لغوي وبيان قرينتها لنقف على مدى التأثر الواضح للطيبي بالسكاكي حتى يكاد يكون مختصرا وملخصا .

يقول الطيبي : " الاستعارة وهي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الآخر ، مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا عليه باثباتك للمشبه مايخص المشبه به من اسم جنسه أو لازمه ، أو لفظ يستعمل فيه نحو في الحمام أسد والمنية أنشبت أظفارها وفي الصيف ضيعت اللبن ، وانما سمي استعارة لأن الشجاع حال كونه فردا من أفراد الأسد يكتسي اسمه اكتساء الهيكل المخصوص اياه ، وهكذا العارية فان المستعير فيها كالمعير الا في الملكية ، ويسمى المشبه به مستعارا منه واسمه مستعارا والمشبه يسمى مستعارا له ، ولبني الاستعارة على ادخال المستعار له في جنس المستعار منه يمتنع في الأعلام الا اذا تضمنت نوع وصفية تضمن حاتم الجود ومادر البخل وقيل الاستعارة مجاز عقلي لأنا لما ادعينا أن المشبه من جنس المشبه به وفرد من أفراد حقيقته لزم أن يكون اللفظ مستعملا فيما وضع له

---

(١) انظر التبيان في البيان الورقة ٥٦ والمفتاح ص٢١٢

ولأنه اذا قلنا رأيت أسدا يعنى شجاعا صح أن يقال انما جعل أسدا لما حصل فيه صفته بخلاف قولنا سميته أسدا ، واذا كان اطلاق الاسم تبعا لوجود المعنى كان الاسم مستعملا فيما وضع له كأسماء الأجناس ، ولأن التعجب فى قول ابن العميد :

قامت تظللنى من الشمس .. نفس أعز على من نفسى
قامت تظللنى ومن عجب .. شمس تظللنى من الشمس

انما يصح اذا كان كذلك ، وأوجب عن الأول أن ادعاء الأسدية للشجاع لايخرج اللفظ عن كونه مستعملا فى غير ما وضع له لأن الواضع لم يضع الأسد للشجاعة وحدها ، بل لها فى مثل تلك الجثة . وعن الثانى أن لفظ الأسد لو كان تبعا لتلك الصفة لم يكن اسما بل كان صفة وكان استعماله فى غاية البطش كالمتواطئ بل كالمشكك ، وعن الثالث أن التعجب لبناء تناسى التشبيه فى الاستعارة قضاء لحق المبالغة فان قيل الاصرار على ادعاء الأسدية للرجل ينافى نصب القرينة ، قلنا لا منافاة فان بناء الدعوى على أن أفراد جنس الأسد قسمان متعارف وهو الهيكل المخصوص مع الجرأة وغير متعارف وهو الذى له تلك الجرأة لامع ذلك الهيكل ، ونصب القرينة على اثبات غير المتعارف ولولاها لكان اللفظ دائرا بين مفهوميه كما مر ، والفرق بين هذه الدعوى والباطلة هو أن المبطل يتبرأ عن التأويل وبين الكذب أن الكذاب لاينصب دليلا على خلاف زعمه ومن أمثلة البناء على مجرد الدعوى قول الشاعر :

..... تحية بينهم ضرب وجيع ، جعل بالادعاء أفراد جنس التحية قسمين متعارف وهى المشهورة وغير متعارف وهو الضرب ونبأ عنها بأحد قسميها ، ومنه قوله تعالى : " يوم لاينفع مال ولابنون الا من أتى الله بقلب سليم " جعل المال والبنون وسلامة القلب بالادعاء جنسا واحدا ثم أخرج بالاستثناء أحد نوعيه ، واعلم أن الكلام الذى فيه التشبيه ولم تذكر الأداة لايخلو من أن يذكر الطرفان أو أحدهما ، والثانى الاستعارة والأول لا يخلو من أن يكون أحدهما خبرا للآخر أو فى حكمه أو لايكون ، والثانى تشبيه تجريدى والأول تشبيه محض وقد يرد فى الكلام مايحمل على أحد القبيلين بأدنى تغيير قال البحترى :

اذا سفرت أضاءت شمس دجن .. ومالت فى التعطف غصن بان

فان قوله شمس دجن وغصن بان تشبيهان لو نصبا ، ولو رفعا كما يقال :

اذا سفرت أضاءت شمسُ دجـن •• ومال من التعطف غصن بـــان

رجعا الى الاستعارة ، وقرينة الاستعارة اما معنى واحد قال أبو الطيب :

لما غدا مظلم الأحشاء من أشـر •• أسكنت جانحتيه كوكبا يقـــد

أو أكثر قال :

فان تعافوا العـدل والأيمانا •• فان فى ايماننا نيرانـــا

قوله تعافوا باعتبار تعلقه بكل واحد من الايمان والعدل قرينة لارادة السيوف أو معـان مرتبطة قال البحترى :

وصاعقة من نصلها تنكفى بهـا •• على ارؤس الأقران خمس سحائـب

يكاد الندى منها يفيض على العدى •• مع السيف فى ثنيتى قنا وقواضـب

استعار السحائب لأنامله ، وجعل القرينة صاعقة من نصل سيفه ثم على ارؤس الأقران ثـم عدد الأنامل " (١) .

ويقول السكاكى : " الاستعارة هى أن تذكر أحد طرفى التشبيه وتريد به الطـرف الآخر مدعيا دخول المشبه فى جنس المشبه به دالا على ذلك باثباتك للمشبه مايخص المشبه به × كما تقـول فى الحمام أسد وأنت تريد به الشجاع مدعيا أنه من جنس الأسود فتثبت للشجاع مايخـص المشبه به وهو اسم جنسه مع سد طريق التشبيه بافراده فى الذكر أو كما تقول ان المنية أنشبت أظفارها وأنت تريد بالمنية السبع بادعاء السبعية لها وانكار أن تكون شيئا غير سبـع فتثبت لها مايخص المشبه به وهو الأظفار وسمى هذا النوع من المجاز استعارة لمكان التناسب بينه وبين معنى الاستعارة ، وذلك أنا متى ادعينا فى المشبه كونه داخلا فى حقيقة المشبه به فردا من أفرادها برز قيدا صادف من جانب المشبه به سواء كان اسم جنسه وحقيقتـه أو لازما من لوازمها فى معرض نفس المشبه به نظرا الى ظاهر الحال من الدعوى ، فالشجاع حال دعوى كونه فردا من أفراد حقيقة الأسد يكتسى اسم الأسد اكتساء الهيكل المخصـوص اياه نظرا الى الدعوى ، والمنية حال دعوى كونها داخلة فى حقيقة السبع اذا أثبت لهـا مخلب أو ناب ظهرت مع ذلك ظهور نفس السبع معه فى أنه كذلك ينبغى ، وكذلك الصـورة

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٤٧ ، ٤٨

المتوهمة على شكل المخلب أو الناب مع المنية المدعى أنها سبع تبرز فى تسميها باسم المخلب بروز الصورة المتحققة المسماة باسم المخلب من غير فرق نظر الى الدعوى ، وهذا شأن العارية فان المستعير يبرز معها فى معرض المستعار منه لايتفاوتان الا فى أن أحدهما اذا فتشعنها مالك ، والآخر ليس كذلك .... ويسمى المشبه به سواء كان هو المذكور أو المتروك مستعارا منه واسمه مستعارا والمشبه مستعارا له ، والذى قرع سمعك من أن الاستعارة تعتمد ادخال المستعار له فى جنس المستعار منه هو السر فى امتناع دخول الاستعارة فى الأعلام اللهم الا اذا اتضمنت نوع وصفية لسبب خارج تضمن اسم حاتم الجود وباذر البخل وماجرى مجراهما ، وأما عد هذا النوع لغويا فعلى أحد القولين وهو المنصور .... فان لهم فيه قولين أحدهما أنه لغوى نظرا الى استعمال الأسد فى غير ماهو له عند التحقيق فانا وان ادعينا للشجاع الأسدية فلا نتجاوز حديث الشجاعة حتى ندعى للرجل صورة الأسد وهيئته وعبالة عنقه ومخالبه وأنيابه وماله من سائر ذلك من الصفات البادية لحواس الابصار ولئن كانت الشجاعة من أخص أوصاف الأسد وأمكنها لكن اللغة لم تضع الاسم لها وحدها بل لها فى مثل تلك الجثة وتلك الصورة والهيئة وهاتيك الأنياب والمخالب الى غير ذلك من الصور الخاصة فى جوارحه جمع ، ولو كانت وضعته لتلك الشجاعة التى تعرفها لكان صفة لا اسما ، ولكان استعماله فيمن كان على غاية قوة البطش ونهاية جراءة المقدم من جهة التحقيق لا من جهة التشبيه ، ولما ضرب يجرى فى الاستعارة اذ ذاك البتة ولانقلب المطلوب بنصب القرائن ، وهو منع الكلمة عن حملها على ماهى موضوعة له الى ايجاب حملها على ماهى موضوعة له .

وثانيهما أنه ليس بلغوى بل عقلى نظرا الى الدعوى فان كونه لغويا يستدعى كون الكلمة مستعملة فى غير ماهى موضوعة له ، ويمتنع مع ادعاء الأسدية للرجل ، وأنه داخل فى جنس الأسود فرد من أفراد حقيقة الأسد ، وكذا مع ادعاء كون الصبيح الكامل الصباحة انه شمس وأنه قمر ، وليس البتة شيئا غيرهما أن يكون اطلاق اسم الأسد على ذلك عن اعتراف بأنه رجل ، أو اطلاق اسم الشمس أو القمر على هذا عن اعتراف بأنه آدمى لقدح ذلك فى الدعوى ، وقل لى مع الاعتراف بأنه آدمى غير شمس وغير قمر فى الحقيقة أنى يكون موضع تعجب قوله :

قامت تظللنى من الشمس •• نفس أعز على من نفسى
قامت تظللنى ومن عجب •• شمس تظللنى من الشمس

أو موضع نهى عن التعجب قوله :

لاتعجبوا من بلى غلالته •• قد زر أزراره على القمر

وقوله :

ترى الثياب من الكتان يلمحها •• نور من البدر أحيانا فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها •• والبدر فى كل وقت طالع فيها

ومع الاصرار على دعوى أنه أسد وأنه شمس وأنه قمر يمتنع أن يقال لم تستعمل الكلمة فيما هى موضوعة له ومدار ترديد الامام عبد القاهر قدس الله روحه لهذا النوع بين اللغوى تارة وبين العقلى أخرى على هذين الوجهين •••• اعلم أن وجه التوفيق هو أن تبنى دعوى الأسدية للرجل على ادعاء أن أفراد جنس الأسد قسمان بطريق التأويل ، متعارف وهو الذى له غاية جرأة المقدم ونهاية قوة البطش مع الصورة المخصوصة ، وغير متعارف وهو الذى له تلك الجراءة وتلك القوة ، لا مع تلك الصورة بل مع صورة أخرى ••• ومن البناء على هذا النوع قوله •••• تحية بينهم ضرب وجيع •

وقولهم : عتابك السيف ، وقوله عز وعلا : " يوم لاينفع مال ولابنون الا من أتى الله بقلب سليم " ••••• والاستعارة لبناء الدعوى فيها على التأويل تفارق الدعوى الباطلة ، فان صاحبها يتبرأ عن التأويل ، وتفارق الكذب بنصب القرينة المانعة عن اجراء الكلام على ظاهره ، فان الكذاب لاينصب دليلا على خلاف زعمه وأنى ينصب وهو لترويج مايقول راكب كل صعب وذلول ، واذ قد عرفت ماكان يتعلق ببيان وصف الاستعارة ووجه تسميتها استعارة وتقرير استنادها الى اللغة ومفارقتها للدعوى الباطلة والكذب " (١) •

* * *

واذا عرضنا فيما سبق لبعض ماتابع فيه الطيبى السكاكى مبرهنين بذلك على تأثر اللاحق بالسابق ، فلا يعنى ذلك أن الطيبى قد تابع السكاكى متابعة مطلقة بل كان يخالفه فى مواطن متعددة من كتابه " التبيان فى البيان " وقد تمثلت هذه المخالفة فى

---

(١) انظر المفتاح من ص ١٩٦ الى ص ١٩٨

ترجيح آراء غيره عليه فى بعض الأحيان كترجيح آراء الزمخشرى فى توجيهه لبعض آيات القرآن الكريم وقد عرضنا شيئا منها فى الموازنة التى عقدناها بين الطيبى والزمخشرى ، كما تمثلت مخالفة الطيبى للسكاكى فى بعض المسائل كتعريفه للبلاغة ونظرته الى البديع ورأيه فى منزلة التشبيه من علم البيان وقد تحدثت عن ذلك بالتفصيل فى عرضى لأهم السمات المنهجيه لكتاب التبيان فى الفصل السابق .

وأخيرا يتضح من هذه النصوص التى قدمناها لكلا الرجلين أن الطيبى قد تأثر تأثرا واضحا بالسكاكى ، وكنا على أن نبين فى كل نص مدى هذا التأثر ولكنى وجدت الأمر أوضح من أن نعقب بشىء يفهمه الدارس للنظرة الأولى وحسبى أن تكون النصوص فى هذا المجال دليلا لايخطىء وبرهانا لايدفع .

== == ==

٣ ـ بين الطيبى وابن الأثير

كان الظن بالطيبى أن ينأى عن المثل السائر لابن الأثير ، لأن الأول فى جفافه وتقيده بالمصطلحات لايرحب بانبساط صاحب المثل السائر وتوسعه بداهة ، ولكن من حظ قارىء الطيبى أنه يجده خالف المظنون لأول وهلة ، فجعل المثل السائر من مراجعه وذلك كسب لقارىء البلاغة الذى يريد أن يقف على شتى الاتجاهات .

ولقد تمثل أثر ابن الأثير عند الطيبى فى النقل عنه مصرحا باسمه تارة وغير مصرح به أخرى ، ولكنه كثيرا مايشير اليه ، فهو فى الفصاحة يصرح بنقله وتلخيصه لكلام ابن الأثير ، وان كنت آخذ على الطيبى تصرفه أحيانا فى عبارته بما يجعلها متمشية مع مايريد ، ونعرض هنا طرفا من نصوص الطيبى مقارنة بنصوص ابن الأثير لبعض ما أشرنا اليه لنقف بعد الموازنة على حقيقة هذا التأثر فأقول :

أولا : ذكر الطيبى فى المجاز المرسل أن من علاقاته " تسمية الشىء بدواعيه " وذلك حيث قال " تسميته بدواعيه كقولك هذا قول الشافعى أى مذهبه واعتقاده " (١)

ونحن نلاحظ متابعته لابن الأثير وان لم يصرح باسمه فى عده ذلك من علاقات المجاز

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٤٦

المرسل ، وان كان ابن الأثير قد نبه على دخوله فى علاقة السببية رادا على كلام الغزالى ، يقول ابن الأثير : " تسمية الشئ بدواعيه : كتسميتهم الاعتقاد قولا نحو قولهم هذا يقول يقول الشافعى رحمه الله أى يعتقد اعتقاده وهذا القسم داخل فى القسم الأول لأن بين القول وبين الاعتقاد مناسبة كالمناسبة بين السبب والمسبب والباطن والظاهر " (١) .

ولو كنت مكان ابن الأثير لم أقل فى المثال المتقدم أن القائل يعبر عن اعتقاد الشافعى بل أقول انه يعبر عن رأيه ، لأن الاعتقاد هو اليقين الجازم والشافعى فى المسائل الفقهية يرى ولايعتقد فالرأى يخطئ ويصيب ، ولذا كانت آراء الشافعى الفقهية كغيره موضع أخذ ورد ومناقشة ومعالجة .

ثانيا : فى أثناء حديث الطيبى عن الاستعارة ذكر أن التشبيه المحذوف الأداة قد يرد محمولا على الاستعارة بتغيير فى صورة الكلام كما يحمل على التشبيه ، وهو فى هذا يتابع بل ينقل نص ابن الأثير وان لم يصرح باسمه .

يقول الطيبى : " وقد يرد فى الكلام مايحمل على أحد القبيلين بأدنى تغيير قال البحترى :

اذا سفرت أضاءت شمس دجن .. ومالت فى التعطف غصن بان

فان قوله شمس دجن وغصن بان تشبيهان لو نصبا ، ولو رفعا كما يقال :

اذا سفرت أضاءت شمس دجن .. ومال من التعطف غصن بان

رجعا الى الاستعارة " (٢) .

ثم يقول ابن الأثير : " واعلم أنه قد ورد من الكلام مايجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الأداة معا باختلاف القرينة ، وذلك أن يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره فينتقل عن ذلك الى غيره ويرتجل ارتجالا . فمما جاء منه قول البحترى:

اذا سفرت أضاءت شمس دجن .. ومالت فى التعطف غصن بان

فلما قال : أضاءت شمس دجن - بنصب الشمس - كان ذلك محمولا على الضمير فى قوله : أضاءت كأنه قال : أضاءت هى وهذا تشبيه لأن المشبه مذكور وهو الضمير فى أضاءت الذى نابت عنه التاء ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال : أضاءت شمس دجن - برفع الشمس -

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ٩٠
(٢) التبيان فى البيان الورقة ٤٨

ولايعود الضمير حينئذ الى ما تقدم ذكره وانما يكون الكلام مرتجلا ويكون البيت :

اذا سفرت أضاءت شمس دجن ** ومال من التعطف غصن بان

وهذا الموضع فيه دقة غموض ، وحرف التشبيه يحسن في الأول دون الثاني " (١) .

ثالثا : نقل الطيبي ماقاله الغانمي وابن الأثير ازاء التقسيم في قول العباس بن الأحنف:

وصالكم هجر وحبكم قلى ** وعطفكم صد وسلمكم حرب

ولكنه تصرف في عبارة ابن الأثير بما يجعلها متمشية مع مايرد وذلك حيث قال : " وقد يطلق التقسيم على أمرين آخرين أحدهما أن يذكر أحوال الشيء مضافا الى كل حال مايليق بها ، قال العباس بن الأحنف :

وصالكم هجر وحبكم قلى ** وعطفكم صد وسلمكم حرب

قال الغانمي : هذا والله أصح من تقسيمات اقليدس ، قال ابن الأثير : هذا ليس من التقسيم في شيء اذ لو قال أيضا :

ولينكم عنف وقربكم نوى ** واعطاؤكم منع وصدقكم كذب

الى غير ذلك لجاز والأولى أن يضاف هذا الى باب المطابقة أو التفويف " (٢) ثم يقول ابن الأثير : " ومن أعجب ماوجدته في هذا الباب ماذكره أبوالعلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي وهو قول العباس بن الأحنف :

وصالكم هجر وحبكم قلى ** وعطفكم صد وسلمكم حرب

ثم قال الغانمي : هذا والله أصح من تقسيمات اقليدس ، والله العجب أين التقسيم من هذا البيت . هذا والله في واد والتقسيم في واد ، ألا ترى أنه لم يذكر شيئا محصور القسمة ، وانما ذم أحبابه في سوء صنيعهم به فذكر بعض أحواله معهم ولو قال أيضا :

ولينكم عنف وقربكم نوى ** واعطاؤكم منع وصدقكم كذب

لكان هذا جائزا ، وكذلك لو زاد بيتا آخر لجاز ، ولو أنه تقسيم لما احتمل زيادة ، والأولى أن يضاف هذا البيت الذى ذكره الغانمي الى باب المقابلة فانه أولى به لأنه قابل الوصل بالهجر والعطف بالصد والسلم بالحرب " (٣) .

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ص٧٧ ، ٧٨
(٢) التبيان في البيان الورقة
(٣) المثل السائر جـ٣ ص١٧٠

هذا ويخيل الى أن الشاعر المباسرون الأحنف لايمكن أن يقول : "وصد قتم كذب" كما تخيل ابن الأثير ، لأنه بهذا التعبير يقسو على حبيبته الى درجة السب وهو مايتحاشاه لأنه فى موقف العتاب فحسب ، ومقتضى الحال يرعاه هذا الشاعر الرقيق بعواطفه وأحاسيسه فكيف غاب ذلك على ابن الأثير ؟ .

واذا وازنا بين كلامى الطيبى وابن الأثير فاننا نلاحظ أن ابن الأثير جعل البيت من قبيل المقابلة لأنه لايفرق بين المقابلة والمطابقة أما الطيبى فيفرق بينهما حيث يرى أن فى المطابقة الجمع بين اللفظين الدالين على المعنيين المتضادين حقيقة أو تقديرا والبيت من هذا القبيل ولذا تصرف فى عبارة ابن الأثير بما يتمشى مع مذهبه .

* * *

ونحن هنا لانريد أن نسرد كل ماقاله الطيبى فى كتابه متأثرا بابن الأثير ، ولكننا نعطى نماذج لذلك فقط حتى نصل سريعا الى فن الفصاحة ، لنجد تأثر الطيبى الواضح بابن الأثير اذ كان ملخصا لكلامه وان بدا فى حديثه عن الفصاحة تأثره بغيره لاسيما فى تناوله لبعض ألوان البديع الراجعة الى التحسين اللفظى والتى جعلها الطيبى وصفا من أوصاف الكلام الفصيح مهتديا به وممن احتذى حذوه كابن سنان الخفاجى ، حيث نلاحظ أخذه وافادته من غير ابن الأثير كالرازى والسكاكى والخطيب القزوينى وغيرهم .

ولننقل الآن ماقاله الطيبى فى الفصاحة مردفين ذلك بكلام ابن الأثير ليتضح تأثره به يقول الطيبى : " اعلم أن للناس فى معنى الفصاحة أقوالا ، ولم أجد من ذلك مايعول عليه سوى ماأودعه الامام الفاضل صاحب المثل السائر فى كتابه ، وقد بسط فيه الى أن بلغ شطر الكتاب ، وأنا أورد خلاصة ذلك مع زيادات مفيده وحسن تأليف قال الفاضل :

والذى استفدته من معرفة الذوق أكثر مما استفدته من ذوق المعرفة ، والذى عندى أن الفصاحة فى اللغة للظهور والبيان يقال أفصح الصبح اذا ظهر قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : " وأخى هارون هو أفصح منى لسانا " أى أبين قولا وعن اللعين فيه عليه السلام " أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين " للكنة لسانه وفى الصناعة هى كون اللفظ بينا حسنا فى حالتى افراده وتركيبه ، ويقال أيضا هى صفة راسخة يقتدر بها المتكلم على التعبير عن المقصود بلفظ بين حسن فى حالتى الافراد والتركيب

نعنى بقولنا صفة راسخة ثبوتها فى المتكلم وتقدير شمول حالتى النطق وعدمه ، وتبين اللفظ الذى على الألسنة أدور وحسن فى حالة الافراد عذوبة اللفظ وسلاسته وفى حالة التركيب ملاءمة التأليف وتمكين الترصيف وقيل فى التنزيل مالم يتضح وأجيب بأن الغموض من جهة التركيب لاينافى البيان كما فى قوله عليه السلام " فمن كانت هجرته الى الله والى رسوله فهجرته الى الله والى رسوله " فان المفردات معلومة لكن المعنى من حيث ان الشرط والجزاء شئ واحد مفتقر الى التأويل فيقال هى الهجرة الكاملة المعروفة التى تستأهل أن تسمى هجرة ، وأن غيرها ليست بهجرة ، وقول البحترى :

اذا سار سهبا عاد ظهرا عدوه .. وكان الصديق بكرة ذلك السهب

فان الألفاظ مفهومة والغموض من جهة التركيب ، وذلك أن هذا المنهزم يطلب النجاة يحب مابين يديه ويكره ماوراءه ، فاذا خلف سهبا وراءه صار عنده كالعدو ويؤثر بعده ، وقبل الوصول اليه كان صديقا يحب قربه ، وأن البلاغة هى الوصول والانتهاء يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه وبلغ الشئ منتهاه ، وفى الصناعة بلوغ المتكلم فى تأدية المقصود الغاية من رعاية حسن اللفظ وتوفية المعنى بحسب اقتضاء المقام فالفصيح يبحث عن معرفة الألفاظ المفردة ثم عن معرفة كل لفظة مع صاحبتها ، والبليغ يبحث عنهما وعن تطبيق الكلام لما يقتضى المقام ، فاذا الفصاحة تختص باللفظ والبلاغة تعم اللفظ والمعنى ، ويقال للفظ المفرد فصيح لابليغ فعلى هذا كل بليغ فصيح ولاينعكس ، وقد ضرب الفاضل مثلا وذلك أن الكلام كالانسان والفصاحة فى التركيب كالحسن فى الجسم وفى المفردات كالحسن فى كل عضو ، والبلاغة كالروح فيه فاذا حسنت الأعضاء وتناسبت التراكيب وكملت الروح بلغ الغاية فى الجمال والكمال " (١) .

ونقرن ذلك بنص ابن الأثير حين يقول : " وغاية مايقال فى هذا الباب أن الفصاحة هى الظهور والبيان فى أصل الوضع اللغوى يقال : "أفصح الصبح " اذا ظهر " (٢) ثم يقول أيضا : " ان الكلام الفصيح هو الظاهر البين ، وأعنى بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لايحتاج فى فهمها الى استخراج من كتاب لغة ، وانما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر ، دائرة فى كلامهم ، وانما كانت

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ١٠٩

(٢) المثل السائر جـ١ ص١١٢

مألوفة الاستعمال دائرة فى الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها ، وذلك أن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها ، وسبروا وقسموا ، فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه ، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها واستعمالها دون غيرها ظهورها وبيانها فالفصيح اذا من الألفاظ هو الحسن "(١) ثم يقول : " وأما البلاغة فان أصلها فى وضع اللغة من الوصول والانتهاء ، يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه ومبلغ الشىء منتهاه ، وسمى الكلام بليغا من ذلك أى أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية ، والبلاغة شاملة للألفاظ والمعانى وهى أخص من الفصاحة كالانسان من الحيوان ، فكل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا ، وكذلك يقال : كل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا ، ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهو أنها لاتكون الا فى اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة الواحدة لايطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة ، اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلايوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاما "(٢) .

هذا ونلاحظ فى نص الطيبى أنه ذكر اعتراضا من حيث إنه قد يقال ان فى القرآن مالم يتضح واذا كانت الفصاحة تعنى الظهور والبيان فلا يكون ذلك فصيحا ، ثم أورد الطيبى الاجابة على ذلك الاعتراض ، والاعتراض واجابته أوردهما ابن الأثير حيث قال :

" فان قيل : انك قلت ان الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين أى المفهوم ، ونرى أن من آيات القرآن مالايفهم ماتضمنه من معنى الا باستنباط وتفسير ، وتلك الآيات فصيحة لامحالة وهذا بخلاف ماذكرته . قلت لأن الآيات التى تستنبط وتحتاج الى تفسير ، ليس شىء منها الا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة ، وانما التفسير يقع فى غموض المعنى من جهة التركيب لا من جهة ألفاظه المفردة ، لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب ، ويصير له هيئة تخصه وهذا ليس قدحا فى فصاحة تلك الألفاظ ، لأنها اذا اعتبرت لفظة لفظة وجدت كلها فصيحة أى ظاهرة واضحة ، وأعجب مافى ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التى تركبت منها المركبة واضحة كلها ، واذا نظر اليها مع التركيب احتاجت الى استنباط وتفسير ،

---

(١) المثل السائر ج ١ ص ١١٤
(٢) المصدر السابق ص ١١٨ ، ١١٩

وهذا لايختص به القرآن وحده بل فى الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير ذلك ، وسأورد هاهنا منه شيئا فأقول ..... " ثم أخذ ابن الأثير يمثل بأمثلة كثيرة من الحديث والشعر ومما أورده من الشعر بيت البحترى الذى نقله عنه الطيبى . قال ابن الأثير : " ورد قول أبى عبادة البحترى فى منهزم :

اذا سار سهبا عاد ظهرا عدوه .. وكان الصديق بكرة ذلك السهب

فان السير ، وسهب ، والظهر ، والعدو ، والصديق ، كل ذلك مفهوم المعنى ، لكن البيت بمجموعه يحتاج معناه الى استنباط ، والمراد أن هذا المنهزم يرى مابين يديه محبوبا اليه ، وماخلفه مكروها عنده ، لأنه يطلب النجاة فيؤثر البعد مما خلفه والقرب مما أمامه ، فاذا قطع سهبا وخلفه وراءه صار عنده كالعدو ، وقبل أن يقطعه كان له صديقا أى يطلب لقاءه ويحب الدنو منه " (١) .

بعد أن كشف الطيبى معنى الفصاحة وفرق بينها وبين البلاغة أراد أن يبين الأوصاف التى تقتضى هذه الفصاحة فذكر أن الحديث عن ذلك يكون فى بابين الباب الأول عرض فيه لأوصاف الفصاحة فى اللفظة المفردة ولخصها فى ستة أوصاف ، ثم عرض فى الباب الثانى لأوصاف الفصاحة فى التركيب ولخصها فى خمسة ، وقد اهتدى فى هذا التقسيم بصنيع ابن الأثير حيث تكلم عن الصناعة اللفظية مقسما اياها الى قسمين : القسم الأول فى اللفظة المفردة والقسم الثانى فى الألفاظ المركبة ثم قرر ابن الأثير أن هذين القسمين هما المراد بالفصاحة وذلك حيث قال : " اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة فى تأليفه الى ثلاثة أشياء الأول منها اختيار الألفاظ المفردة ، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ، فانها تتخير وتنتقى قبل النظم ، الثانى نظم كل كلمة مع أختها فى المشاكلة لها ، لئلا يجئ الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم فى اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها . الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك حكم الموضع الذى يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل اكليلا على الرأس ، وتارة يجعل قلادة فى العنق ، وتارة يجعل شنفا فى الأذن ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه ...... فالأول والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة " (٢) .

---

(١) المثل السائر جـ ١ ص ١١٨

(٢) المصدر السابق ص ٢١٠ ، ٢١١

وحين نتأمل قول ابن الأثير نجده قد احتذى ابن سنان الخفاجي حين قسم شروط الفصاحة الى قسمين منها مايتعلق باللفظة المفردة ومايتعلق بالألفاظ المنظومة مع بعضها أى المركبة وذلك حيث قال :

" ان الفصاحة على ماقدمنا نعت للألفاظ اذا وجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم ، وتلك الشروط تنقسم قسمين فالأول منها يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم اليها شىء من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثانى يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض " (١) .

والآن نعرض ماقاله الطيبى عن فصاحة اللفظة المفردة ثم عن التراكيب فى البابين اللذين عقدهما لذلك ، متبعين كلام الطيبى بما يدل على التأثر من كلام ابن الأثير يقول الطيبى : " الباب الأول فى أوصاف اللفظة المفردة وهى ستة الأولى مايكون تركيبها من الحروف اللذيذة العذبة لأنها أصوات ولها مخارج تشبه المزامير ولكل ثقبة منها صوت يخصها ، نقل الامام عن الخليل أن الذلاقة فى المنطق انما هى بطرف أسلة اللسان وهى مستدقة وحروفها رنل والملحق بها الشفهية وهى فبم ، ولسهولتها كثرت فى الأبنية وشرط فيما عدا الثلاثى أن لاينفك عن شىء منها ، وقال الخليل العين والقاف لايدخلان فى بناء الا حسناه لأنهما أطلق الحروف والعين أنصعها جرسا وألذها سماعا والقاف أمتنها وأصحها جرسا ، وقال الفاضل يجب على المتكلم أن يجتنب من الحروف مايضيق به مجال التقفية نحو ثخذ شظ سيما نحو صطع فان الواضع لم يضع عليها ألفاظا عذبة ، وقال الشيخ ان للحروف فى أنفسها خواص مختلفة فالفصم لكسر الشىء من غير أن يبين والقصم لكسره حتى يبين ، ولهذا قيل فى قول أبى العلاء يصف غديرا :

أحدبه غوانى الجن لما فأعجلها الصباح وفيه جان

فصيم نصفه فى الماء باد ونصف فى السماء به تزان

ان القصيم بالقاف أولى ، اذ المراد أن الجان وهو السوار شق نصفين نصف يلوح فى الماء ونصف تزان به السماء ، وكذا الثلم للخلل فى الجدار والثلب فى العرض والزفير والزئير

---

(١) سر الفصاحة ص ٦٥ ، ٦٦

لصوتى الحمار والأسد ويجتنب أيضا فى التأليف عما قرب مخارجها سيما حروف الحلق فانها متناهية فى الثقل ، سئل أعرابى عن ناقته فقال تركتها ترعى الهعخع ، وقال أبو تمام :

كريم اذا أمدحه أمدحه والورى •• معى واذا مالمته لمته وحدى

وقال امرؤ القيس :

غدائره مستشزرات الى العلا •• تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فان فى توسيط الشين وهو من المهموسة الرخوة بين التاء وأنها من المهموسة الشديدة بين الزاء وأنها من حروف الصفير المجهورة من التنافر ما يخفى فلو قيل مستشرفات لزال الثقل[(١)]

فالصفة الأولى لفصاحة اللفظة المفردة عند الطيبى تتكون من شيئين تأليفها من الحروف اللذيذة العذبة وأن يجتنب فى التأليف مايجلب الثقل من الحروف كالمتقاربة المخارج ، وهو فى هذا يهتدى بهدى ابن الأثير حيث يقول : " واعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا مايضيق به مجال الكلام فى بعض الحروف كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين فان فى الحروف الباقية مندوحة عن استعمال مالايحسن من هذه الأحرف المشار اليها •••• فان كلفت أيها الشاعر أن تنظم شيئا على هذه الحروف فقل هذه الحروف هى مقاتل الفصاحة ، وعذرى واضح فى تركها فان واضع اللغة لم يضع عليها ألفاظا تعذب فى الفم ولاتلذ فى السمع والذى هو بهذه الصفة منها فانما هو قليل جدا " (٢) ، ويقول أيضا : " ومما يدخل فى هذا الباب أن تجنيب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها سواء كانت طويلة أو قصيرة • ومثال ذلك قول امرىء القيس فى قصيدته اللامية التى هى من جملة القصائد السبع الطوال :

غدائره مستشزرات الى العلا •• تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فلفظة " مستشزرات " مما يقبح استعمالها ، لأنها تثقل على اللسان ويشق النطق بها وان لم تكن طويلة لأنا لو قلنا مستنكرات أو مستنفرات على وزن مستشزرات لما كان فى هاتين اللفظتين ثقل ولا كراهة " (٣) •

ونفهم مما ذكره ابن الأثير أنه يطالب من أجل فصاحة الكلمة بكونها مؤلفة من حروف

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ١١٠
(٢) المثل السائر جـ ١ ص٢٥٢ ، ٢٥٤
(٣) المصدر السابق ص٢٦٦

لذيذة عذبة ، وأن يجتنب فى تركيبها الحروف الثقيلة ، وهذا عين ماصرح به الطيبى مما يدل على شدة تأثره بابن الأثير وان ساق فى كلامه مايشعرنا بافادته من غيره كالسكاكى والزمخشرى والرازى حيث ضمن حديثه نصا من كلامهم لمعاضدته وتأييده فيما يريد أن يقرره ، ومما يؤكد هذا التأثر بصاحب المثل السائر أنه نقل لنا ملخصا لمناقشة أجراها ضياء الدين فى كتابه بينه وبين ابن سنان الخفاجى دون أن يبدى لنا الطيبى فيها رأيا ، وذلك أن ابن سنان جعل من شروط فصاحة الكلمة تأليفها من حروف بعيدة المخارج ، وقد رد عليه ابن الأثير هذا الاشتراط بأن حاسة السمع هى الحاكمة بحسن مايحسن من الألفاظ وقبح مايقبح وان اقتضى ذلك بعد المخارج غالبا لأنه قد ورد من الكلمات غير الفصيحة ماتكون من حروف متباعدة المخارج كما جاءت كلمات فصيحة مع أنها متآلفة من حروف متقاربة المخارج ، يقول ابن الأثير : " لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ وهل هى متباعدة أو متقاربة ، لطال الخطب فى ذلك وعسر .... ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك فان حاسة السمع هى الحاكمة فى هذا المقام بحسن مايحسن من الألفاظ وقبح مايقبح وسأضرب لك فى هذا مثالا فأقول : اذا سئلت عن لفظة من الألفاظ وقيل لك : ماتقول فى هذه اللفظة أحسنة هى أم قبيحة ؟ فانى لاأراك عند ذلك الا تفتى بحسنها أو قبحها على الفور ولو كنت لاتفتى بذلك حتى تقول للسائل : اصبر الى أن أعتبر مخارج حروفها ثم أفتيك بعد ذلك بمافيها من حسن أو قبح لصح لابن سنان ماذهب اليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطا فى اختيار الألفاظ ، وانما شذ عنه الأصل فى ذلك ، وهو أن الحسن من الألفاظ يكون متباعد المخارج ، فحسن الألفاظ اذا ليس معلوما من تباعد المخارج وانما علم قبل العلم بتباعدها ، وكل هذا راجع الى حاسة السمع فاذا استحسنت لفظا أو استقبحته وجد ماتستحسنه متباعد المخارج وماتستقبحه متقارب المخارج ، واستحسانها واستقباحها انما هو قبل اعتبار المخارج لابعده على أن هذه قاعدة قد شذ عنها شواذ كثيرة ، لأنه قد يجىء فى المتقارب المخارج ماهو حسن رائق ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة وهى من وسط اللسان بينه وبين الحنك وتسمى ثلاثتها " الشجرية " واذا تركب منها شىء من الألفاظ جاء حسنا رائقا فان قيل " جيش" كانت لفظة محمودة أو قدمت الشين على الجيم فقيل " شجى " كانت أيضا لفظة محمودة ومما هو أقرب مخرجا من ذلك الباء والميم والفاء ، وثلاثتها من الشفة وتسمى

الشفهية ، فاذا انظم منها شيء من الألفاظ كان جميلا حسنا كقولنا " فم " فهذه اللفظة من حرفين هما الفاء والميم وكقولنا " ذقته بفمي " وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجملتها وكلاهما حسن لاعيب فيه ، وقد ورد من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضا ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح اذ هما ضدان لايجتمعان ، فمن ذلك أنه يقال " ملع " اذا عدا فالميم من الشفة والعين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان وكل ذلك متباعد ومع هذا فان هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ، ولايستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة ، وهاهنا نكتة غريبة ، وهو أنا اذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت " علم " وعند ذلك تكون حسنة لامزيد على حسنها ، وماندري كيف صار القبح حسنا ؟ لأنه لم يتغير من مخارجها شيء وذلك أن اللام لم تزل وسطا ، والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ولو كان مخارج الحروف معتبرا في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة في " ملع " و " علم " فان قيل : ان اخراج الحروف من الحلق الى الشفة أيسر من ادخالها من الشفة الى الحلق فان ذلك انحدار وهذا صعود والانحدار أسهل فالجواب عن ذلك أني أقول : لو استمر لك هذا لصح ماذهبت اليه لكنا نرى من الألفاظ ما اذا عكسنا حروفه من الشفة الى الحلق ، أو من وسط اللسان أو من آخره الى الحلق لايتغير كقولنا " غلب " فان الغين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان والباء من الشفة واذا عكسنا ذلك صار " بلغ " وكلاهما حسن مليح " (١) .

وهاهو ذا الطيبي ينقل ماقاله ابن الأثير دون أن يضيف شيئا سوى الاختصار والاقتضاب اذ يقول : " قال ابن سنان اللفظ الفصيح هو الذي تباعدت فيه المخارج ، وعورض ببعض حروف الشجرية وهي شيج فان مخارجها بين وسط اللسان والحنك فاذا تركب منها شيء مثل جيش وشجي لم يثقل ثم نوقض بمثل ملع فانها متباعدة المخارج مع أنه غير فصيح ولو عكس وقيل علم صارت حسنة قيل ذلك لأن الصعود من الحلق الى الشفة أيسر من الحدور منها اليه ورد بنحو بلغ وغلب " (٢) .

أما عن الصفة الثانية لفصاحة الكلمة فيقول الطيبي : " والثانية أن تجتنب في التركيب عن الزائد على الحركتين المتواليين وعن الحركة الثقيلة على بعض الحروف كالضمة على جزع

---

(١) انظر المثل السائر جـ١ من ص٢٢٤ الى ص٢٢٦

(٢) التبيان في البيان الورقة ١١٠

سيما اذا ضم معه ضم الزاى ولو فتح أو فتحا أو كسر حسن "(١)٠ والطيبى يقصد بذلك خفة الحركات التى عناها ابن الأثير بقوله : " ومن أوصاف الكلمة أن تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها ، وهذا الوصف يترتب على ماقبله من تأليف الكلمة ، ولهذا اذا توالى حركتان فى كلمة واحدة استثقلت ٠ ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو ، والكسرة على الياء لأن الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس الياء فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان والمثل لك مثالا لتهتدى به فى هذا الموضع وهو أنا نقول : اذا أتينا بلفظة من ثلاثة أحرف وهى ـ ج ز ع ـ فاذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا " الجزع " أو مكسورة فقلنا " الجزع " كان ذلك أحسن من أن لوجعلنا الجيم مضمومة فقلنا " الجزع " وكذلك اذا والينا حركة الفتح " الجزع " كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم عند قولنا " الجزع " ومن المعلوم أن هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مغيرا لمخارج حروفها حتى ينسب ذلك الى اختلاف تأليف المخارج ، بل وجدناها تارة تكتسى حسنا وتارة يسلب ذلك الحسن عنها ، فعلمنا أن ذلك حادث عن اختلاف تأليف حركاتها "(٢)٠

وها نحن أولاء لا نلمح فرقا بين الطيبى وابن الأثير سوى اقتضاب عبارة الطيبى واختصارها لكلام ابن الأثير ٠

كذلك تحدث الطيبى عن الصفة الثالثة لفصاحة اللفظة المفردة بما يلتقى مع ابن الأثير اذ جعل لعدد حروف الكلمة مدخلا فى فصاحتها فقال : " والثالثة أن تكون متوسطة بين قلة الحروف وكثرتها ، قال الامام اللفظ المركب من ثلاثة أحرف هى المتوسطة لاشتمالها على المبدأ والمنتهى والوسط وسبب حسنه أن الصوت تابع للحركة والحركة لابد لها من هذه الأمور والثنائيات قاصرة والرباعيات مفرطة ، ولهذا عيب أبو الطيب بقوله :

ان الكرام بلا كرام منهم ٠٠ مثل القلوب بلا سويداواتها

وليس منه اذا أريد بزيادة الحروف زيادة المعنى قال الفاضل : اللفظ اذا نقل من وزن الى آخر أكثر منه تضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا ، لأن ابانة الألفاظ لابانة المعانى كما أن فى اخشوشن زيادة ليست فى خشن ، ومن ثم عدل من قدر الى اقتدر فى قوله تعالى " فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر " لدلالة الأمر على التفخيم وشدة الأخذ أو على بسطة القدرة

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ١١٠

(٢) المثل السائر جـ١ ص٢٦٨

وعليه قول أبي نواس :

فعفوت عني عفو مقتدر •• حلت له نقم فألغاها

أي عفو قادر متمكن القدرة لايرده شيء عن امضاء قدرته ، وقوله تعالى : " فكبكبوا فيها هم والغاوون " كرر الكب دلالة على الشدة " (١) .

أما ابن الأثير فيقول : " ومن أوصاف الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا وهذا ذكره ابن سنان في كتابه ثم مثله بقول أبي الطيب المتنبي :

ان الكرام بلا كرام منهم •• مثل القلوب بلاسويداواتها

وقال : ان لفظة " سويداواتها " طويلة فلهذا قبحت ، وليس الأمر كما ذكره فان قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها وانما هو لأنها في نفسها قبيحة ، وقد كانت وهي مفردة حسنة فلما جمعت قبحت لابسبب الطول " (٢) ثم يقول أيضا : " اعلم أن اللفظ اذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل الى وزن آخر أكثر منه فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا ، لأن الألفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للابانة عنها فاذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني ، وهذا لانزاع فيه لبيانه ، وهذا النوع لايستعمل الا في مقام المبالغة فمن ذلك قولهم خشن واخشوشن فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو فعل وافعوعل وكذلك قولهم أعشب المكان ، فاذا رأوا كثرة العشب قالوا : اعشوشب ومما ينتظم بهذا السالك : قدرواقتدر فمعنى اقتدر أقوى من معنى قدر قال الله تعالى : " فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر " فمقتدر هاهنا أبلغ من قادر وانما عدل اليه للدلالة على التفخيم للأمر وشدة الأخذ الذي لايصدر الا عن قوة الغضب ، أو للدلالة على بسطة القدرة فان المقتدر أبلغ في البسطة من القادر وذلك أن مقتدر اسم فاعل من اقتدر وقادر اسم فاعل من قدر ولاشك أن افتعل أبلغ من فعل وعلى هذا ورد قول أبي نواس :

فعفوت عني عفو مقتدر •• حلت له نقم فألغاها

أي عفوت عني عفو قادر متمكن القدرة لايرده شيء عن امضاء قدرته ، وأمثال هذا كثيرة ... وهذا ومايجري مجراه انما يعمد اليه لضرب من التوكيد ، ولا يوجد ذلك الا فيما فيه معنى

---

(١) التبيان في البيان الورقة ١١٠

(٢) المثل السائر جـ١ ص٢٦٤ ، ٢٦٥

الفعلية كاسم الفاعل والمفعول وكالفعل نفسه نحو قوله تعالى : " فكبكبوا فيها هم والغاوون " فان معنى " كبكبوا " من الكب وهو القلب الا أنه مكرر المعنى وانما استعمل في الآية دلالة على شدة العقاب ، لأنه موضع يقتضي ذلك " (١) .

هذا وبالموازنة بين نص الطيبي وابن الأثير يتضح لنا جليا احتذاء الطيبي له ، والتقاؤه به حتى في الأمثلة التي أوردها ، على الرغم من افادة الطيبي من غيره كما يدل على ذلك نقله عن الامام الرازي والزمخشري فهو بعد نقله كلام ابن الأثير بشأن زيادة المعنى لزيادة المبنى يؤيد ذلك بكلام الزمخشري قائلا : " قال صاحب الكشاف والزيادة في البناء تدل على الزيادة في المعنى ومن ثم دل الرحمن على جلائل النعم والرحيم على دقائقها "(٢) .

ولا يفوتني أن أقول ان الطيبي لوح بنقد ابن سنان الخفاجي كلمة سويداواتها في بيت المتنبي لطولها جريا منه وراء كلام ابن الأثير الذي ذكر فيه أن ابن سنان الخفاجي قال : ان لفظة سويداواتها طويلة فلهذا قبحت ، ثم أخذ يرد عليه مع أن العبارة في كتاب " سر الفصاحة " ليست كما نقلها ابن الأثير حيث قال ابن سنان :

" فسويداواتها كلمة طويلة جدا فلذلك لا أختارها " (٣) ، ولكن ابن الأثير تصرف في النقل تصرفا يتيح له نقد ابن سنان والرد عليه ، وهذه الطريقة نلاحظها أحيانا عند الطيبي حيث يتصرف في عبارات المنقول عنهم بما يجعلها متمشية مع مايريد على الرغم من كونها لا تؤدي ذلك بنصها الأصلي فلعله التأثر والاحتذاء منه لابن الأثير .

ونحن لا نرتاح لهذه الطريقة اذ نود عند التصرف في النقل عن السابقين أن يذكر في الكلام مايشعر بأن النقل بالمعنى لا بالنص حتى لا يظلم المنقول عنه أحيانا في الحكم عليه على أساس العبارة المنقولة ، اذا لم يحالف التوفيق الناقل في فهمه لعبارة المنقول عنه وهذا مايحدث حينا .

وكأني بالطيبي بعد فراغه من بحث كيفية الحروف التي تتركب منها الكلمة في الأوصاف الثلاثة المتقدمة لفصاحة اللفظة المفردة ، أراد أن يبحث الكلمة نفسها ووصفها من حيث أن لا تكون وحشية ولا مبتذلة ولا مشتركة بين المعنيين وذلك في الأوصاف الثلاثة الباقية ، واذا بان لنا تأثره الواضح بابن الأثير فيما سبق فقد كان في هذه الأوصاف التي تحدث

---

(١) انظر المثل السائر جـ١ ص٢٤١ الى ص٢٤٣
(٢) التبيان في البيان الورقة ١١٠
(٣) سر الفصاحة ص٩٦

عنها أشد تأثرا به وليس الخبر كالعيان فلنعرض ما قاله الطيبي ثم نردفه بكلام ابن الأثير لنثبت صدق مالاحظناه .

يقول الطيبي : " والرابعة أن لاتكون وحشية غير مألوفة لأنها تخالف الظهور والبيان وروى عن عيسى النحوى أنه سقط عن دابته فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى أى اجتمعتم تنحوا ان شئت فجوب قولك فى لفظ المدامة والسيف والأسد لفظ الاسفنط والخنشليل والفدوكس " (١) . ثم يقول ابن الأثير : " الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين وانما كان ظاهرا بينا لأنه مألوف الاستعمال " (٢) . ويقول أيضا " وأما القسم الآخر من الوحشى الذى هو قبيح فان الناس فى استقباحه سواء . ولايختلف فيه عربى بادولاقروى متحضر . وأحسن الألفاظ ماكان مألوفا متداولا . لأنه لم يكن مألوفا متداولا الا لمكان حسنه " (٣) .

وبهذا أفهمنا ابن الأثير أنه يطلب لفصاحة الكلمة كونها مألوفة الاستعمال اذ غير المألوفة هى الوحشية المستقبحة . وهذا عين ماقاله الطيبي عن الكلمة الوحشية .

واذا كان ابن الأثير يفرق بين الكلمتين الدالتين على معنى واحد من حيث حسن احداهما وقبح الأخرى حيث يقول : " ومن يبلغ جهله الى أن لايفرق بين لفظة ...... المدامة ولفظة الاسفنط وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس " (٤) فاننا نلاحظ متابعة الطيبي له فى ذلك موردا الكلمات نفسها التى ذكرت عند ابن الأثير كما هو واضح من نص الطيبي السابق . وعلى الرغم من هذا التأثر بابن الأثير فاننا نلمح من خلال تمثيله بعبارة عيسى النحوى وتعليقه عليها افادته وتأثره بالخطيب القزوينى وان كان لم يصرح باسمه وهذه عادته مع الخطيب القزوينى دائما ولاأدرى لماذا يتحاشى ذكر اسمه أو التصريح بالنقل عنه فى ثنايا الكتاب مع أنه جعل فى مقدمته " الايضاح " مصدرا من مصادر كتابه . وعلى كل فأثر صاحب الايضاح فى كتاب " التبيان " لاينكر . وما نلمحه الآن أحد هذه الآثار كما يدل على ذلك كلام الخطيب نفسه ازاء عبارة عيسى النحوى حيث يقول :
" والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لايظهر معناها فيحتاج فى معرفته الى أن ينقر عنها فى

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ١١١
(٢) المثل السائر جـ ١ ص١١٥
(٣) المصدر السابق ص٢٢٨ جـ١
(٤) المصدر السابق ص٢١٩ جـ١

كتب اللغة المبسوطة كما روى عن عيسى بن عمر النحوى أنه سقط عن حمار فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى أى اجتمعتم تنحوا " (١) .

واذا وقفنا على مدى تأثر الطيبى بابن الأثير فى ذكره لهذه الصفة من صفات الفصاحة اللفظة المفردة فاننا نجده فى حديثه عن الصفة الخامسة والسادسة يصل به التأثر الى أقصى مداه حيث يأتى كلامه تلخيصا لما فى المثل السائر من نصوص ازاء هاتين الصفتين ولنكتف فى اثبات تلك الملاحظة بالمقابلة بين الرجلين فيما ذكراه ليظهر من أول وهلة وضوح الالتقاء والاتفاق بينهما .

يقول الطيبى : " والخامسة أن لاتكون مبتذلة والابتذال نوعان أحدهما ماغيرته العامة من أصل الوضع كلفظ الصرم للقطع جعلته للمحل المخصوص بابدال الصاد سينا ومن ثم قبح قول أبى الطيب :

ورقة وجه لو ختمت بنظرة .. على وجنتيه ماامحى أثر الختم

أذاق الغوانى حسنه ماأذقننى .. وعف فجازاهن عنى عن الصرم

ولو استعملت بنحو صرم أو استعمله البدوى كأبى صخر الهذلى :

قد كان صرم فى الممات لنا .. فعجلت قبل الموت بالصرم

لم يستقبح . وثانيهما : مايكون سخيفة فى أصل الوضع كاللقالق فى شعر أبى الطيب :

وملمومة سيفية ربعية .. تصيح الحصا فيها صياح اللقالق

ولفظ الآجر فى قول النابغة الذبيانى :

أو دمية فى مرمر مرفوعة .. بنيت بآجر يشاد بقرمد

ولهذا عدل عنه فى التنزيل الى قوله : " فأوقد لى ياهامان على الطين " ومن القرمد للغرابة " (٢) .

ثم يقول ابن الأثير : " ومن أوصاف الكلمة أن لاتكون مبتذلة بين العامة ، وذلك ينقسم قسمين : الأول ماكان من الألفاظ دالا على معنى وضع له فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر وهو ضربان : الأول مايكره ذكره كقول أبى الطيب :

---

(١) الايضاح جـ١ ص٣

(٢) التبيان فى البيان الورقة ١١١

أذاق الغوانى حسنه ما أذ قتنى .. وعف فجازاهن عنى بالصرم

فان معنى لفظة الصرم فى وضع اللغة هو القطع يقال " صرمه " اذا قطعه ، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره ، فأبدلوا السين صادا ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وماجرى مجراها لكن المكروه منها مايستعمل على صيغة الاسمية كما جاءت فى هذا البيت ، وأما اذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا " صرمه " " وصرمته " و " تصرمه " فانها لاتكون كريهة ، لأن استعمال العامة لايدخل فى ذلك ، وهذا الضرب المشار اليه لايعاب البدوى على استعماله كما يعاب المحتضر ، لأن البد لم تتغير الألفاظ فى زمنه ، ولاتصرفت العامة فيها كما تصرفت فى زمن المحتضرة من الشعراء ، فمن أجل ذلك عيب استعمال لفظة " الصرم " وماجرى مجراها على الشاعر المحتضر ولم يعب على الشاعر المبتدئ ألا ترى الى قول أبى صخر الهذلى :

قد كان صرم فى الممات لنا .. فعجلت قبل الموت بالصرم

فان هذا لايعاب على أبى صخر كما عيب على المتنبى قوله فى البيت المقدم ذكره ......

وأما الضرب الثانى : وهو أنه وضع فى أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالا على غيره الا أنه ليس بمستقبح ولامستكره وذلك كتسميتهم الانسان ظريفا اذا كان دمث الأخلاق حسن الصورة أو اللباس أو ماهذا سبيله ، والظرف فى أصل اللغة مختص بالنطق فقط ......

القسم الثانى مما ابتذلته العامة وهو الذى لم تغيره عن وضعه ، وانما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم .... والذى ترجح فى نظرى أن المراد بالمبتذل من هذا القسم انما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة فما جاء منه قول أبى الطيب المتنبى :

وملمومة سيفية ربعية .. يصيح الحصى فيها صياح اللقالق

فان لفظة " اللقالق " مبتذلة بين العامة جدا .... وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لايكاد يخلو منه شعر شاعر ، لكن منهم المقل ومنهم المكثر حتى أن العارية قد استعملت هذا الا أنه فى أشعارها أقل فمن ذلك قول النابغة الذبيانى فى قصيدته التى أولها :

من آل مية رائح أو مغتدى

أو دمية فى مرمر مرفوعة .. بنيت بآجر يشاد بقرمد

فلفظة " آجر " مبتذلة جدا وان شئت أن تعلم شيئا من سر الفصاحة التى تضمنها القرآن فانظر الى هذا الموضع فانه لما جىء فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظة ولا بلفظ " القرمد " أيضا ولا بلفظ " الطوب " الذى هو لغة أهل مصر ، فان هذه الأسماء مبتذله لكن ذكر فى القرآن على وجه آخر ، وهو قوله تعالى : " وقال فرعون يأيها الملأ ماعلمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعلى صرحا " فعبر عن الآجر بالوقود على الطين " (١)

وهكذا نرى متابعة الطيبى لابن الأثير حتى فى الأمثلة التى أوردها وان بدا لنا شىء من المخالفة بينهما متمثلة : أولا فى اهمال الطيبى للضرب الثانى وكأنه اكتفى بذكره مالا يستقبح رأيا أن ذلك يشمل مايكره عند غير البدوى ومالايكره عند الجميع اذ أن الأول لايعاب عند الشاعر البدوى والثانى لايعاب عند الجميع وهذا ماجعله ابن الأثير أحد ضربى القسم الأول .

ثانيا : تنبيه الطيبى على سبب العدول عن كلمة القرمد وهو الغرابة مع عد ابن الأثير لهما من قبيل الكلمات المبتذلة مما يفهمنا أن العدول عنها للابتذال فقط حيث لم ينبه على غرابتها كما فعل الطيبى ، واذا تجاوزنا هذين الفرقين بين الرجلين وجدناهما بعد ذلك يلتقيان التقاء تاما يجعل الطيبى مختصرا لكلام ابن الأثير ، وعلى هذا النحو نجده يسير فى حديثه عن الصفة السادسة والأخيرة للفظة المفردة حيث يقول : " والسادسة أن لاتكون مشتركة بين معنيين أحدهما مكروه وجىء بها مطلقة كما لو قيل لقيت فلانا فعزرته لاحتمالها انك ضربته أو أكرمته فلو قيد كما فى قوله : " والذين آمنوا به وعزروه ونصروه " وقوله صلوات الله عليه : " لايلدغ المؤمن من جحر مرتين " لزالت الكراهية ، وممن أطلق أبوتمام حيث قال :

أعطيتنى دية القتيل وليس لى ٠٠ عقل ولا حق عليك قديم

فلو قيل وليس لى عليك عقل لزال اللبس " (٢) .

ثم يقول ابن الأثير : " ومن أوصاف الكلمة أن لاتكون مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره ، واذا وردت وهى غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت ، وذلك اذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح ، فأما اذا جاءت ومعها قرينة فانها لاتكون معيبة

---

(١) المثل السائر جـ١ ص٢٥٤ الى ص ٢٥٨
(٢) التبيان فى البيان الورقة ١١١

كقوله تعالى : " فأما الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون " ألا ترى أن لفظة " التعزير " مشتركة تطلق على التعظيم والاكرام ، وعلى الضرب الذى هو دون الحد وذلك نوع من الهوان ، وهما معنيان ضدان فحيث وردت فى هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها ، فخصصت معناها بالحسن ، وميزته عن القبح ، ولو وردت مهملة بغير قرينة ، وأريد بها المعنى الحسن لسبق الى الوهم مااشتملت عليه من المعنى القبيح مثال ذلك : لو قال قائل لقيت فلانا فعزرته لسبق الى الفهم أنه ضربه وأهانه ، ولو قال : لقيت فلانا فأكرمته وعزرته لزال ذلك اللبس ٠٠٠٠٠٠ وعلى هذا ورد قول تأبط شرا :

أقول للحيان وقد صفرت لهم •• وطابى ويومى ضيق الجحر معور

فانه أضاف الجحر الى اليوم ، فأزال عنه هجنة الاشتباه ، لأن " الجحر " يطلق على كل ثقب كثقب الحية واليربوع ، وعلى المحل المخصوص من الحيوان ، فاذا ورد مهملا بغير قرينة تخصصه سبق الى الوهم مايقبح ذكره لاشتهاره به دون غيره ، ومن هنا ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم : " المؤمن لايلسع من جحر مرتين " وحيث قال " يلسع " زال اللبس لأن اللسع لايكون الا للحية وغيرها من ذوات السموم ، وأما ماورد مهملا بغير قرينة فقول أبى تمام :

أعطيت لى دية القتيل وليس لى •• عقل ولاحق عليك قديم

فقوله : ليس لى عقل ، يظن أنه من عقل الشىء اذا علمه ، ولو قال : ليس لى عليك عقل لزال اللبس " (١) .

ونرى أن مأخذ ابن الأثير على البيت مستبعد لوجود مايدل على المراد بقول الشاعر دية القتيل فالعقل اذن من مستلزماتها ولايظن غيره فى هذا المقام .

* وبعد فلعلك معى أيها القارى الكريم بعد هذا العرض أن الطيبى كان مختصرا فيما لخص عن ابن الأثير ازاء الفصاحة ، وما نقل عنه من آراء متناثرة فى فن البلاغة ، ولو اتسع الطيبى كابن الأثير فيما كتب لكان ذا اتجاه جديد حقا يجمع بين الطريقة الكلامية والطريقة الأدبية ولكننا نكلفه ضد طبيعته لو ألزمناه بتوسع ابن الأثير فالرجل أقرب الى صيغ التعريفات الاصطلاحية منه الى طريقة المثل السائر ، وكأنه كان يكابد رهقا حين يرى هذا

---

(١) المثل السائر جـ١ ص ٢٦١ الى ص ٢٦٤

التوسع الأدبى الرائع ، ولكنه مضطر الى أن يحرص على ما اتجه اليه ضياء الدين من أفكار .

واذا أوضحنا مدى تأثر الطيبى بابن الأثير فى حديثه عن أوصاف اللفظة المفردة فعلينا أن نتعرف الى أى مدى كذلك كان تأثره به فى حديثه عن أوصاف الألفاظ المركبة يقول الطيبى : " الباب الثانى فى أوصاف التراكيب وهى خمسة الصفة الأولى ماتكون مصبوبة فى قالب الصنعة البديعية مما يختص بحسن اللفظ وهو أنواع " (١) ، وبهذا أبان لنا الطيبى الصفة الأولى عنده وهى كون التركيب مشتملا على لون من المحسنات البديعية اللفظية وقد حدد تلك المحسنات بسبعة ألوان هى :

التجنيس ، العكس والتبديل ، رد الأعجاز على الصدور ، التصريع ، الترصيع ، السجع ، لزوم مالايلزم "

وهذه الألوان قد تناولها ابن الأثير أثناء حديثه عن أحوال الألفاظ المركبة منبها قبلا على أن الحديث فى أحوال الألفاظ المركبة والمفردة هو مايقصد بالفصاحة (٢) ، ومن قبل ابن الأثير نجد ابن سنان الخفاجى متناولا بعضها كالسجع والترصيع والتجنيس أثناء حديثه عن شروط فصاحة الألفاظ المؤلفة اذ جعل من شروط فصاحتها المناسبة بين اللفظين فى الصيغة ثم قال : " ومن المناسبة بين الألفاظ فى الصيغ السجع والازدواج ...... ومن التناسب أيضا الترصيع .... ومن التناسب بين الألفاظ المجانس " (٣) .

فلعل الطيبى فى جعله اصباب التركيب فى قالب الصنعة البديعية صفة لفصاحته كان مستضيئا بهذا الصنيع للرجلين ، ورب من سائل يسأل هل اذا جاء التركيب خاليا من هذه المحسنات لايعد فصيحا كما يقتضى ذلك ظاهر كلام الطيبى ؟ أقول : لايقصد الطيبى بهذه الصفة مايقتضيه ظاهرها اذ لايستقيم له ذلك القصد لو عناه ، حيث أتى كثير من الكلام الفصيح غير مشتمل على شىء من هذه المحسنات اللفظية ، ولكنه يقصد بهذه الصفة أن لتلك المحسنات مدخلا فى تقدير الجودة والحسن بمعنى أن التراكيب تزداد بهما حسنا وبهاء ولاتنتفى عنها الفصاحة كلية لو خلت منها .

هذه هى الصفة الأولى لفصاحة التركيب عند الطيبى ، وهو وان تأثر فى عدها بابن الأثير مستضيئا بصنيعه لكن هذا التأثر يتضح فى حديثه عن بعض هذه المحسنات

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ١١٢

(٢) انظر المثل السائر جـ١ ص ٢١١ ، ص ٢٧٠

(٣) انظر سر الفصاحة فى الصفحات الآتية ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦

اذ نجده ناقلا فى بعضها آراء لابن الأثير بل وملخصا كلامه تارة أخرى كما فصل ازاء التصريع على الرغم من أن الطيبى لم يتابع ابن الأثير متابعة مطلقة فى تناوله لكل هذه الألوان حيث نجده يلفق فى أغلب كلامه بين آراء كثير من البلاغيين كالسكاكى والخطيب القزوينى ، والرازى وان لم يصرح بذلك ، فهو مثلا قد يتابع أحدهم فى تسمياته للون من هذه الألوان ثم يورد الأمثلة من كلام الآخر ، كما فعل ازاء السكاكى وابن الأثير عند حديثه عن التجنيس القلبى .

ولنقتصر الآن على عرض نموذج لتأثر الطيبى بابن الأثير فى تناوله لبعض هذه الألوان البديعية ، وليكن التصريع فلنعرضه عند الرجلين ، يقول الطيبى : " التصريع وهو فى البيت بمنزلة السجع فى النثر مأخوذ من مصراع البيت قال الفاضل : ان التصريع والترصيع والتجنيس والترديد انما يحسن قليله دون كثيره لما فيه من أمارات الكلفة وهو على ثمانية مراتب آ الكامل وهو أن يكون المصراع مستقلا فى فهم المعنى قال أبو الطيب :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم •• أكل فصيح قال شعرا متيم

ب ــ أن يكون مستقلا ولكن له رابطة بالثانى قال أبو تمام :

ألم يأن أن تروى الظماء الحوائم •• وأن ينظم الشمل المبدد ناظم

جـ ــ أن يكون غير مستقل وهو الناقص قال أبو الطيب :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى •• بمنزلة الربيع من الزمان

د ــ أن يكون معلقا على صفة فى أول الثانى قال امرؤ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل •• بصبح وما الاصباح منك بأمثل

هـ ــ أن يكون لكل منهما فى التقديم معنى وهو فى المرتبة الثانية فى الحسن قال ابن الحجاج البغدادى :

من شروط الصبوح فى المهرجان •• خفة الشرب مع خلو المكان

و ــ أن يكون لفظ المجز حقيقة وهو مذموم . قال عبيد بن الأبرص :

فكل ذى غيبة يئوب •• وغائب الموت لا يئوب

ز ــ أن يكون مجازا قال أبو تمام :

فتى كان شربا للعفاة ومرتعا •• فأصبح للهندية البيض مرتعا

ح ــ أن يتخالف لفظا المجز لكن يتوافقان بالموازنة وهى أقبح . قال أبو نواس :

أقلنى قد ندمت على الذنوب •• وبالاقرار عدت من الجحود " (١) .

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ١١٥ ، ١١٦

هذا ما قاله الطيبى ازاء التصريع فلنقرنه بكلام ابن الأثير ليتضح لنا بالموازنة بين الكلامين مدى تأثر الطيبى بابن الأثير الذى يقول عن التصريع : " واعلم أن التصريع فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور وفائدته فى الشعر أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تعلم قافيتها ، وشبه البيت المصرع بباب به مصراعان متشاكلان ، وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون ، وفيه دلالة على سعة القدرة فى أفانين الكلام . فأما اذا كثر التصريع فى القصيدة فلست أراه مختارا الا أن هذه الأصناف من التصريع والترصيع والتجنيس وغيرها انما يحسن منها فى الكلام ماقل وجرى مجرى الغرة من الوجه ، أو كان كالطراز من الثوب ، فأما اذا تواترت وكثرت فانها لاتكون مرضية ، لما فيها من أمارات الكلفة ، وهو عندى ينقسم الى سبع مراتب ولذلك شىء لم يذكره على هذا الوجه أحد غيرى ، فالمرتبة الأولى — وهى أعلى التصريع درجة — أن يكون كل مصراع من البيت مستقلا بنفسه فى فهم معناه ، غير محتاج الى صاحبه الذى يليه ويسمى " التصريع الكامل " وذلك كقول امرىء القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل .. وان كنت قد أزمعت هجرا فأجملى

فان كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعنى بنفسه ، غير محتاج الى مايليه وعليه ورد قول المتنبى :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم .. أكل فصيح قال شعرا متيم

المرتبة الثانية : أن يكون المصراع الأول مستقلا بنفسه غير محتاج الى الذى يليه ، فاذا جاء الذى يليه كان مرتبطا به كقول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل .. بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فالمصراع الأول غير محتاج الى الثانى فى فهم معناه ، لكن لما جاء الثانى صار مرتبطا به كذلك ورد قول أبى تمام :

ألم يأن أن تروى الظماء الحوائم .. وأن ينظم الشمل المبدد ناظم

وعليه ورد قول المتنبى :

الرأى قبل شجاعة الشجعان .. هو أول وهى المحل الثانى

المرتبة الثالثة : أن يكون الشاعر مخيرا فى وضع كل مصراع موضع صاحبه ويسمى " التصريع الموجه " وذلك كقوله ابن الحجاج البغدادى :

من شروط الصبوح فى المهرجان .. خفة الشرب مع خلو المكان

فان هذا البيت يجعل مصراعه الأول ثانيا ومصراعه الثانى أولا ، وهذه المرتبة كالثانية في الجودة .

المرتبة الرابعة : أن يكون المصراع الأول غير مستقل بنفسه ، ولايفهم معناه الا بالثانى ، ويسمى " التصريع الناقص " وليس بمرضى ولا حسن فما ورد منه قول المتنبى :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى .. بمنزلة الربيع من الزمان

فان المصراع الأول لايستقل بنفسه فى فهم معناه دون أن يذكر المصراع الثانى .

المرتبة الخامسة : أن يكون التصريع فى البيت بلفظة واحدة وسطا وقافية ويسمى التصريع المكرر وهو ينقسم قسمين ، أحدهما أقرب حالا من الآخر : فالأول أن يكون بلفظة حقيقية لامجاز فيها ، وهو أنزل الدرجتين كقول عبيد بن الأبرص :

فكل ذى غيبة يئوب .. وغائب الموت لايئوب

القسم الآخر أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها كقول أبى تمام :

فتى كان شربا للعفاة ومرتعا .. فأصبح للهندية البيض مرتعا

المرتبة السادسة : أن يذكر المصراع الأول ويكون معلقا على صفة يأتى ذكرها فى أول المصراع الثانى ويسمى " التصريع المعلق " فما ورد منه قول امرىء القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى .. بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فان المصراع الأول معلق على قوله : " بصبح " وهذا معيب جدا وعليه ورد قول المتنبى :

قد علم البين منا البين أجفانا .. تدمى وألف فى ذا القلب أحزانا

المرتبة السابعة : أن يكون التصريع فى البيت مخالفا لقافيته ، ويسمى " التصريع المشطور " وهو أنزل درجات التصريع وأقبحها فمن ذلك قول أبى نواس :

أقلنى قد ندمت على الذنوب .. وبالاقرار عدت من الجحود

نصرع بحرف الباء فى وسط البيت ثم قفاه بحرف الدال ، وهذا لايكاد يستعمل الا قليلا نادرا "(١)

وبعد هذا العرض يتضح لنا بالموازنة بين الكلامين فى التصريع ، أن الطيبى قد تابع ابن الأثير فى كل ماقال متابعة الناقل والملخص غير أنه قد عد مراتب التصريع ثمانية جاعلا قسمى احدى المراتب عند ابن الأثير وهى " كون التصريع فى البيت بلفظة واحدة وسطا

---

(١) المثل السائر جـ١ ص٣٣٨ الى ص٣٤٢

وقافية " مرتبتين مع أن ابن الأثير قد جعلهما قسمين لمرتبة واحدة ولذا كانت عنده المراتب سبعة فقط ، ولايفوتني أن أقول ان رأى ابن الأثير الذى نقله لنا الطيبي ملخصا فى التصريع هو رأى ابن سنان الخفاجي نفسه الذى يقول : " فأما اذا تكرر التصريع فى القصيدة ولست أراه مختارا ، وهو عندى يجرى مجرى تكرر الترصيع والتجنيس والطباق وغير ذلك مما سيأتى ذكره وان هذه الأشياء انما يحسن منها ماقل وجرى منها مجرى اللمعة واللمحة ، فأما اذا تواتر وتكرر فليس عندى ذلك مرضيا " (١) . ولولا اسناد الطيبي ذلك الرأى لابن الأثير ملقبا له بالفاضل لعزوته لابن سنان ، ولعل ذلك يشعرنا بأن تأثر الطيبي بما نقل عن ابن سنان الخفاجي كان بواسطة المثل السائر الذى يتضح منه لكل من قرأه أن ضياء الدين ابن الأثير قد نخل أسرار الفصاحة نخلا وتشبع بكثير من أفكارها ، ولكنه جريا على عادة كثير من مؤلفى العصر لايفود كل نقل الى صاحبه ، ولو عزا ماأخذه من ابن سنان اليه لبان أثر صاحب أسرار الفصاحة صريحا غير مستتر ، ولعله كان يكتفى بما أطراه به فى مقدمة الكتاب ، وفى ذكره أحيانا بما يؤيد أو يعارض ولكن روح ابن سنان واضحة فى المثل السائر لايغلفها نقاب .

هذا عن الصفة الأولى من أوصاف فصاحة التراكيب أما عن الصفة الثانية فيقول الطيبي :
" الصفة الثانية المماظلة وهى تعقيد الكلام وتراكبه وهى لفظية ومعنوية واللفظية على خمسة أقسام آ أن ترد حروف متراكبة منها ماقبح كقول أبى الطيب :

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة .. سبوح لها منها عليها شواهد

وقول الآخر :

العلم والفضل والآداب قاطبة .. منه اليه لديه فيه عنه به

ومنها مالم يقبح كما فى قول أبى تمام :

دار أجل الهوى عن أن ألم بها .. فى الركب الا وعينى من منائحها

وثانيها أن ترد ألفاظ متكررة الحروف حكى أن الثعالبى قيل له ثلاثة من رؤساء الشعراء شلشل أحدهم وسلسل الثانى وقلقل الثالث ، أما الأول فالأعشى حيث قال :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعنى .. شاو مشل شلول شلشل شول

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٢٢

والثانى لمسلم بن الوليد حيث قال :

سلت وسلت ثم سل سليلهـا •• فأتى سليل سليلها مسلولا

والثالث فأبو الطيب المتنبى قال :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشـا •• قلاقل عيس كلهن قلاقـل

فهل أنت فقلت أخشى أن أكون رابع الشعراء ، عنى به قول من قال :

الشعراء فاعلمن أربعة / فشاعر يجرى ولايجرى معه / وشاعر ينشد وسط المعمعة

وشاعر من حقه أن تسمعه / وشاعر من حقه أن تصفعه /

فما مضى أيام أن قلت :

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها •• فانف البلابل باحتساء بلابـل

وأما قوله تعالى : " وعلى أمم ممن معك " فلما أن فى كلا مخرجى الميم والنون وهما طرفـا اللسان والشفة وما فى صفتهما من الذلاقة والغنة وتوسطهما بين الضعف والقوة مايجبر ممـا حصل من ثقل التكرار بخلافه فى الأبيات لأن الشين والسين فى طرف التفريط من الضعـف لما فيهما من الهمس والرخاوة ، والقاف والباء فى طرف الافراط من القوة لما فيهما مـن القلقلة والضغط ، واعلم أن سبب المماثلة هو الثقل وهو انما يحصل من التكرار ، وإذا كانوا مستثقلين المكرر فى كلمة ومدغمين نحو استعد واستتب أو كلمتين فى نحو " أتحاجونى " حتى انهم بدلوا أحدهما بحرف آخر نحو امليت فى امللت فما ظنك بالتكرار فى كل كلمـة واحدة .

جـ ـ أن ترد أفعال شتى متتابعة كقول القاضى الأرجانى عن لسان الشمعة :

بالنار فرقت الحوادث بيننـا •• وبها نذرت أعود أقتل نفسى

وقول المتنبى :

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد •• زد هش بش تفضل أدن سر صل

وقوله تعالى : " فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهـم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد " ليس منه لما فى توسيط الواو وتعليق كل بمفعوله مـع زيادات فى الابتداء والانتهاء مايخرجه من التراكب .

ورابعها ـ أن ترد مضافات متوالية كما جاء فى قول ابن بابك : (شعر)

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى •• فأنت بمرأى من سعاد ومسمـع

وما فى الألفاظ النبوية : " الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم " ليس منه .

خامسها : ـ أن ترد صفات مترادفة قال المتنبى :

دان بعيد محب مبغض بهج .. أغر حلو ممر لين شرس

والمعنوية : هى أن يقدم فى الكلام ماحقه التأخير لفظا ومعنى قال الفرزدق :

وليست خراسان التى كان خالد .. بها أسد اذ كان سيفا أميرها

يمدح خالدا القسرى ويهجو أسدا وقد وليها بعد خالد ، يريد وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفا اذ كان أسد أميرها ، فعلى هذا ففى كان الثانية ضمير الشان والجملة بعدها خبر لها يفسر الاسم ، وقد قدم بعض ما اذ مضافة اليه عليها وهو أسد وأقحم خبر كان الأولى فى الجملة الثانية وأيضا ان أسدا أحد جزئى الجملة المفسرة للضمير ولا يجوز تقديم المفسر على المفسر . وقال أيضا :

وما مثله فى الناس الا مملكا .. أبو أمه حى أبوه يقاربه

يريد ومامثله فى الناس حى يقاربه الا مملك أبو أمه أبوه ، والممدوح خال هشام بن عبد الملك والمعنى : ومامثل الممدوح أحد يشبهه فى الفضائل الا هشاما فصل بين أبو أمه وهو مبتدأ وبين خبره وهو أبوه بقوله حى وهو أجنبى ، وكذا فصل بين حى ويقاربه وهو نعت له بأبوه وهو أجنبى وقدم المستثنى على المستثنى منه " (١) .

وبالنظر الى ماقاله الطيبى عن تعريف المعاظلة وتقسيمها نجده يتابع ويتلاقى مع ابن الأثير فى كل ماقال ، فاذا كانت المعاظلة عند الطيبى : تعقيد الكلام وتراكبه فهى عند ابن الأثير كذلك أو قريبة من ذلك حيث قال : " المعاظلة هى هى التراكب والتداخل اما فى الألفاظ أو فى المعانى " (٢) ، واذا قسم الطيبى المعاظلة الى لفظية ومعنوية واللفظية الى خمسة أقسام فاننا نجد هذا التقسيم نفسه للمعاظلة عند ابن الأثير مما يدل على وضوح تأثر الطيبى به ومتابعته له حتى فى الأمثلة التى أوردها لهذه الأقسام يقول ابن الأثير : " والمعاظلة معاظلتان لفظية ومعنوية " (٣) . وبعد أن قسمها الى هذين القسمين أخذ يقسم اللفظية الى أقسامها الخمسة موردا الأمثلة المتعددة لكل قسم ونحن هنا نقتطف من كلام ابن الأثير قدرا يؤيد صحة مانقول ، يقول ابن الأثير : " واذا حققت القول

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ١١٨
(٢) المثل السائر جـ١ ص ٤١٠
(٣) المصدر السابق ص ٣٩٦

فى بيان المماظلة والكشف عن حقيقتها فانى اتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظى منها الذى أنا بصدد ذكره هاهنا فأقول : انى تأملته بالاستقراء من الأشعار قديما وحديثها ، ومن النظر فى حقيقتها نفسها ، فوجدتها تنقسم الى خمسة أقسام :

الأول منها : يختص بأدوات الكلام نحو من والى وعن وعلى وأشباهها ، فان منها مايسهل النطق به اذا ورد مع أخواته ، ومنها مالايسهل ، بل يرد ثقيلا على اللسان ولكل موضع يخصه من السبك ، مما جاء منه قول أبى تمام :

الى خالد راحت بنا أرحبيـــة ٠٠ مرافقها من عن كراكرها نكب

فقوله : " من عن كراكرها " من الكلام المتماظل الذى يثقل النطق به ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى :

وتسعدنى فى غمرة بعد غمـــرة ٠٠ سبوح لها منها عليها شواهد

فقوله " له منها عليها " من الثقيل الثقيل الثقيل ٠٠٠ ومن الحسن فى هذا الموضع قول أبى تمام :

دار أجل الهوى عن أن ألم بها ٠٠ فى الركب الا وعينى من منائحها

فقوله : " عن أن " فى هذا البيت من الخفيف الحسن الذى لابأس به ٠

القسم الثانى من المماظلة اللفظية : تختص بتكرير الحروف وليس ذلك مما يتعلـــق بتكرير الألفاظ ولا بتكرير المعانى ـــ مما يأتى ذكره فى باب التكرير ٠٠٠٠ وانما هو تكريـــر حرف واحد أو حرفين فى كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم ، فيثقل حينئـــذ النطق به فمن ذلك قول بعضهم :

وقبر حرب بمكان قفـــــر ٠٠ وليس قرب قبر حرب قـــبر

فهذه القافات والراءات كأنها فى تتابعها سلسلة ، ولا خفاء مما فى ذلك من الثقل ٠٠٠

القسم الثالث من المماظلة : أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا فمنهـــا مايختلف بين ماض ومستقبل ومنها مالايختلف فالأول كقول القاضى الأرجانى فى أبيات يصف فيها الشمعة ٠٠٠٠

بالنار فرقت الحوادث بيننــــا ٠٠ وبها نذرت أعود أقتل روحـــى

فقوله : " نذرت أعود أقتل " من المماظلة اليها ، وأما مايرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية فكقول أبى الطيب المتنبى :

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد ‎٠٠‏ زد هش بش تفضل أد ن شر صل

فهذه ألفاظ جاءت على صيغة واحدة ، وهى صيغة الأمر كأنه قال : افعل افعل ٠٠٠٠ هكذا الى آخر البيت ، وهذا تكرير للصيغة ، وان لم يكن تكريراً للحروف الا أنه أخوه ولا أقول ابن عمه ٠٠٠٠٠٠

القسم الرابع من المعاظلة وهو الذى يتضمن مضافات كثيرة كقولهم : " سرج فرس غلام زيد " وان زيد على ذلك قيل : " لبد سرج فرس غلام زيد " وهذا أشد قبحا وأثقل على اللسان وعليه ورد قول ابن بابك الشاعر فى مفتتح قصيدة له :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى ‎٠٠‏ فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

القسم الخامس من المعاظلة : أن ترد صفات متعددة على نحو واحد ٠٠٠٠ وعلى هذا ورد قول أبى الطيب المتنبى :

دان ، بعيد ، محب ، مبغض ، بهج ‎::‏ أغر ، حلو ، ممر ، لين ، شرس " (١)

هذا حديث ابن الأثير عن المعاظلة اللفظية وأقسامها ، ولعله قد اتضح لنا تأثر الطيبى به بعد المقارنة بين كلام الرجلين فى هذا المضمار ، وبقى أن نعرض طرفا من كلام ابن الأثير ازاء المعاظلة المعنوية حتى يتبين لنا بعد الموازنة بين كلامه وكلام الطيبى مدى تأثر اللاحق بالسابق يقول ابن الأثير عن المعاظلة المعنوية معرفا لها موردا أمثلتها : "٠٠ ٠٠ أن يقدم ما الأولى به التأخير لأن المعنى يختل بذلك ويضطرب وهذا هو المعاظلة المعنوية ، وقد قدمنا القول فى المقالة الأولى المختصة بالصناعة اللفظية بأن المعاظلة تنقسم قسمين : أحدهما لفظى والآخر معنوى أما اللفظى فذكرناه فى بابه ، وأما المعنوى فهذا بابه وموضعه كتقديم الصفة أو مايتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول وغير ذلك مما يرد بيانه ، فمن هذا القسم قول بعضهم :

فقد والشك بين لى عناء ‎٠٠‏ بوشك فراقهم صرد يصيح

فانه قدم قوله " بوشك فراقهم " وهو معمول " يصيح " ويصيح صفة لصرد على صرد ، وذلك قبيح ٠٠٠ ومن هذا النحو قول آخر :

فأصبحت بعد خط بهجتها ‎٠٠‏ كأن قفرا رسومها قلما

---

(١) المثل السائر جـ١ ص ٣٩٨ الى ص ٤٠٩

فانه قدم خبر كأن عليها وهو قوله خط وهذا وأمثاله مما لايجوز قياس عليه والأصل في هذا البيت : فأصبحت بعد بهجتها قفرا ، كأن قلما خط رسومها ، الا أنه على تلك الحالة الأولى في الشعر مختل مضطرب ، والمعاظلة في هذا الباب تتفاوت درجاتها في القبح ، وهذا البيت المشار اليه من أقبحها لأن معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضا .
ومما يجرى هذا المجرى قول الفرزدق :

الى ملك ما أمه من محارب .. أبوه ولاكانت كليب تصاهره

وهو يريد الى ملك أبوه ماأمه من محارب ، وهذا أقبح من الأول وأكثر اختلالا ، وكذلك جاء قوله أيضا :

وليست خراسان التي كان خالد .. بها أسد اذ كان سيفا أميرها

وحديث هذا البيت ظريف ، وذلك أنه فيما ذكر يمدح خالد بن عبد الله القسرى ويهجو أسدا وكان أسد وليها بعد خالد وكأنه قال : وليست خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفا اذ كان أسد أميرها ، وعلى هذا التقدير ففي كان الثانية ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبر عنها ، وقدم بعض ما اذ مضافة اليه وهو أسد عليها ، وفي تقديم المضاف اليه أو شيء منه على المضاف من القبح مالاخفاء به وأيضا فان أسدا أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير ، والضمير لايكون تفسيره الا من بعده ، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج الى تفسير ، ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول ، وعلى هذا النحو ورد قول الفرزدق أيضا :

وما مثله في الناس الا مملكا .. أبو أمه حى أبوه يقاربه

ومعنى هذا البيت : وماشله في الناس حى يقاربه الا مملكا أبو أمه أبوه ..... واعلم أن هذا الضرب من الكلام هو ضد الفصاحة لأن الفصاحة هى الظهور والبيان ، وهذا عار عن هذا الوصف "(١) .

وهكذا نرى من الموازنة بين ماأورده الطيبى وابن الأثير من حديث عن المعاظلة المعنوية أنهما يتلاقيان تلاقيا يجعل الطيبى مختصرا لكلام ابن الأثير ، وكفى بذلك من الطيبى تأثرا بابن الأثير .

---

(١) المثل السائر جـ٢ ص ٢١٩ الى ص٢٢٣

ولكن لنا مع نص الطيبى وقفات :

أولا : عندما ذكر الطيبى الصفة الثانية من أوصاف فصاحة اللفظ المركب عبر بهذا التعبير " الصفة الثانية المماظلة " والحقيقة أن المماظلة لاتعد صفة من أوصاف فصاحة التركيب كيف وقد صرح ابن الأثير بأنها ضد الفصاحة (١) ، ومن قبله عدها قدامة بن جعفر من عيوب اللفظ (٢) .

وعلى ذلك ففى عبارة الطيبى غموض ربما يفهم منه عكس المراد ، اذ المراد هو جعل عدم المماظلة صفة من أوصاف فصاحة التركيب فكان الأولى بالطيبى التصريح بذلك حتى لايوقع ظاهر تعبيره القارئ فى لبس .

ثانيا : نستطيع أن نفهم من كلام الطيبى وتمثيله لتتابع الاضافات التى عدها قسما من أقسام المماظلة اللفظية المخلة بفصاحة الكلام أن المراد الاضافات المتداخلة وهى التى يضاف فيها الأول الى الثانى والثانى الى الثالث وهكذا كقول ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى .. فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

وهو فى هذا يحتذى حذو ابن الأثير الذى أورد كل أمثلته بهذا القسم من الاضافات المتداخلة ولعلهما متابعان لرأى الصاحب بن عباد الذى نقله الشيخ عبد القاهر الجرجانى رحمه الله حيث قال : " قال الصاحب اياك والاضافات المتداخلة فان ذلك لايحسن " (٣) .

ويؤكد هذا الفهم للمراد من تتابع الاضافات عند الطيبى وابن الأثير ايراد الطيبى للحديث النبوى " الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم " حاكما عليه بأنه ليس من قبيل تتابع الاضافات المخل بفصاحة الكلام ، والحديث مشتمل على عدة اضافات ولكنها غير متداخلة وهذا ماجعلنى أقف عند المراد بتتابع الاضافات مفسرا له بما يتمشى مع كلام الطيبى وتمثيله وتمثيل ابن الأثير لهذا القسم من أقسام المماظلة اللفظية .

ثالثا : فى ذكر الطيبى للحديث النبوى السابق اشعار برده على الخطيب القزوينى الذى أورد هذا الحديث مستدلا به على عدم اخلال تتابع الاضافات بفصاحة الكلام رائيا أن تتابع الاضافات لايشترط للفصاحة خلو الكلام منه لأنه ان أدى الى الثقل فالاخلال يكون لأجل التنافر

---

(١) المثل السائر جـ٢ ص٢٢٣

(٢) انظر نقد الشعر ص١٠٣ وقدامة والنقد الأدبى للدكتور طبانه ص٢١٢

(٣) دلائل الاعجاز ص٨٠

وليس من تتابع الاضافات ، وفات الخطيب انقسام الاضافات الى متداخلة وغير متداخلة ، والحديث من قبيل غير المتداخلة فهو ليس مما يمنى بتتابع الاضافات •

وهكذا نرى الطيبى وابن الأثير يجعلان تتابع الاضافات المتداخلة مخلا بفصاحة الكلام بخلاف غير المتداخلة فلا تخلّ بالفصاحة ، أما الخطيب فقد جعل تتابع الاضافات مطلقا غير مخل بفصاحة الكلام ، وذلك حيث يقول : " وقيل فصاحة الكلام هى خلوصه مما ذكر ومن كثرة التكرار وتتابع الاضافات كما فى قول أبى الطيب :

سبوح لها منها عليها شواهد ••

وفى قول ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى ••

وفيه نظر لأن ذلك ان أفضى باللفظ الى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه بما تقدم والا فلا يخلّ بالفصاحة وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم " (١) •

ويقف الامام عبد القاهر رحمه الله من تتابع الاضافات فى الكلام موقفا آخر فهو يرى أن تعدد الاضافات فى الكلام قد يكسبه حسنا وبها وتارة لايحسن به الكلام ، ولكن الحسن يكثر فى تعدد الاضافات غير المتداخلة ويقل فى المتداخلة ، نفهم هذا كله من عبد القاهر لو تدبرنا تعليقه على بيت ابن المعتز :

يامسكة العطـــار •• وخال وجه النهـــار

حيث قال رحمه الله : " وكانت الملاحة فى الاضافة بعد الاضافة لافى استعارة لفظة الخال اذ معلوم أنه لو قال ياخالا فى وجه النهار أو يامن هو خال فى وجه النهار لم يكن شيئا ، ومن شأن هذا الضرب أن يدخله الاستكراه قال الصاحب :

اياك والاضافات المتداخلة فان ذلك لايحسن ، وذكر أنه يستعمل فى الهجاء كقول القائل :

ياعلى بن حمزة بن عمـــارة •• أنت والله ثلجة فى خيـــاره

ولاشبهة فى ثقل ذلك فى الأكثر ، ولكنه اذا سلم من الاستكراه لطف وملح ومما حسن فيه

---

(١) الايضاح جـ١ ص ٨

قول ابن المعتز أيضا :

وظلت تدير الراح أيدى جآذر ** عتاق دنانير الوجوه مـــلاح

ومما جاء منه حسنا جميلا قول الخالدى فى صفة غلام له :

يعرف الشعر مثل معرفـــتى ** وهو على أن يزيد مجتهـــد

وصيرفى القريـــض وزان ** دينار المعانى الدقاق منتقد

ومنه قول أبى تمام :

خذها ابنة الفكر المهذب فى الدجى ** والليل أسود رقعة الجلباب" (١)

هذا وان كنت لا أوافق عبد القاهر على تمثيله للاضافات المتداخلة مجاريا الصاحب بن عباد بقول القائل :

ياعلى بن حمزة بن عمارة ** أنت والله ثلجة فى خيـاره

حيث أرى أن البيت وان تعددت فيه الاضافات لكنها غير متداخله ، على مابينا من قبـل اللهم آلا اذا أراد عبد القاهر والصاحب بالتداخل مطلق تعدد الاضافة بغض النظر عـن كونها متداخلة أو غير متداخلة •

واذا رأينا الى أى مدى كان تأثر الطيبى الواضح بابن الأثير فيما ذكره من الصفتين السابقتين لفصاحة التراكيب فلنتعرف أيضا على مدى هذا التأثر فى بقية الصفات بادئـين بالصفة الثالية وهى عدم المنافرة التى يقول عنها الطيبى : " المنافرة وهى أن يذكر لفـظ فى التركيب ويكون غيره مما هو فى معناه أولى بالذكر قال أبو الطيب :

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل ** ولا يحلل الأمر الذى هو مبرم

فلفظ حالل ويحلل نافرتان لفك الادغام فى الثلاثى ، فلو عوض عنهما ناقض وينقض لجاءتـا قارتين فى مكانهما لفظا ومعنى قال تأبط شرا :

يظل بموماة ويمسى بغيرها جحيشا ** ويعرورى ظهور المهالـك

فان جحيشا نافرة ، وكان له مندوحة عنه بقوله فريدا ومنه قطع همزة الوصل قال :

اذا جاوز الاثنين سر فانه ** ببث وتكثير الوشاة قميـن

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٠ ، ٨١

وعكسه ، قال أبو تمام :

قرانى اللها والود حتى كأنما .. أفاد الغنى من نائلى وفوائدى
فأصبح يلقانى الزمان من أجله .. باعظام مولود ورأفة والد

وقد تجئ ألفاظ متعددة نافرة كما فى المصراع الثانى من قول أبى الطيب :

لا خلق أكرم منك الا عارف .. بك راء نفسك لم يقل لك هاتها " (١)

وهكذا عرف الطيبى المنافرة سائرا على هدى ابن الأثير حيث لم يرد من المنافرة بين الألفاظ مدلولها عند البلاغيين كما قال الخطيب القزوينى : " التنافر ما تكون الكلمات بسببه متناهية فى الثقل على اللسان وعسر النطق بها متتابعة " (٢).

وانما يريد الطيبى متابعا ابن الأثير ، من المنافرة فى الألفاظ صيغتها الصرفية وصورتها التعبيرية كاستعمال المتنبى كلمة حالل ، وكان ينبغى فيما أرى أن يسلك ذلك عند الطيبى فى فصاحة المفردات لا فى ذكر صفات فصاحة التراكيب كما صنع ، ثم قسم الطيبى المنافرة الى منافرة فى اللفظ الواحد ومنافرة فى عدة ألفاظ فى الكلام ، وحديثه عن كل ذلك يلتقى التقاء واضحا مع حديث ابن الأثير عن المنافرة حيث قال : " وحقيقة هذا النوع الذى هو المنافرة أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو فى معناها أولى بالذكر .... وهو ينقسم قسمين أحدهما يوجد فى اللفظة الواحدة والآخر فى الألفاظ المتعددة ..... فما جاء من القسم الأول قول أبى الطيب المتنبى :

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل .. ولا يحلل الأمر الذى هو يبرم

فلفظة حالل نافرة عن موضعها ، وكانت له مندوحة عنها لأنه لو استعمل عوضا عنها لفظة ناقض فقال :

فلا يبرم الأمر الذى هو ناقض .. ولا ينقض الأمر الذى هو يبرم

لجاءت اللفظة قارة فى مكانها غير قلقة ولا نافرة ..... ومن هذا القسم وصل همزة القطع وهو محسوب من جائزات الشعر التى لا تجوز فى الكلام المنثور ، وكذلك قطع همزة الوصل ، لكن وصل همزة القطع أقبح لأنه أثقل على اللسان فما ورد من ذلك قول أبى تمام :

قرانى اللها والود حتى كأنما .. أفاد الغنى من نائلى وفوائدى

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ١١٩
(٢) الايضاح جـ١ ص٥

فأصبح يلقاني الزمان من أجلـه •• باعظام مولود ورأفة والـد

فقوله " من أجله " وصل لهمزة القطع ••• ومما جاء من القسم الثاني ـ الذي يوجد في الألفاظ المتعددة ـ قول أبي الطيب أيضا :

لاخلق أكرم منك الا عـارف •• بك راء نفسك لم يقل لك هاتها

فان عجز هذا البيت نافر عن مواضعه ، وأمثال هذا في الأشعار كثير " (١) •

واذ جعل الطيبي الصفة الرابعة من أوصاف التركيب الفصيح كونه سهلا ممتنعا حيث قال : " ومن أوصاف التركيب : السهل الممتنع وهو أن يكون مسبوكا سبكا سهلا وعرا قريبا بعيدا " (٢) فقد أخذ ذلك من كلام ابن الأثير حيث قال في تعليقه على أبيات أبي العتاهيه التي منها :

أتته الخلافة منقادة •• اليه تجرر أذيالهـا

" واعلم أن هذه الأبيات المشار اليها هاهنا من رقيق الشعر غزلا ومديحا وقد أذعن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر ومع هذا فانك تراها من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات وهذا هو الكلام الذي يسمى " السهل الممتنع " فتراه يطمعك ثم اذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب ، وهكذا ينبغي أن يكون من خاض في كتابة أو شعر ، فان خير الكلام مادخل الأذن بغير اذن " (٣) •

وأما الصفة الخامسة والأخيرة من أوصاف التركيب فهي المطابقة ، ويقصد بها الطيبي مراعاة مقصد الكلام فمن مقام يقتضي ألفاظا جزلة متينة وأخرى رقيقة رشيقة وذلك حيث يقول : " ومن أوصاف التركيب المطابقة وهي أن يراعي مقصد الكلام فمن مقام يقتضي ألفاظا جزلة متينة وأخرى رقيقة رشيقة ، فالجزلة تستعمل في وصف الحرب وقوارع التهديد والوعيد ، والرقيقة في وصف الأشواق والمودات والاستعطاف مثال الأول قوله تعالى : " ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق " الى آخر السورة • وقول سمؤل من شعر الحماسة :

فاذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضـه •• فكل رداء يرتديه جميـل

---

(١) المثل السائر جـ١ ص٤١٠ الى ص٤١٤
(٢) التبيان في البيان الورقة ١١٩
(٣) المثل السائر جـ١ ص٢٥٦

الى آخر الأبيات ، فاذا تؤمل فى جزالة هذه الأبيات ومتانة تلك الآيات كانت زبرا من الحديد ، ومع هذا سهلة عذبة ، ومثال الثانى قوله تعالى : " واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى " انظر الى هذه العبارات الرقيقة والكلمات الرشيقة كادت تسيل من سلاستها ، وقول العباس بن الأحنف:

وانى ليرضينى قليل نوالكم .. وان كنت لا أرضى لكم بقليل

بحرمة ماقد كان بينى وبينكم .. من الود الا عدتم بجميل "(١)

هذا كلام الطيبى عن المطابقة التى عدها من أوصاف فصاحة التراكيب ونجده فى كل ماقال حتى فى الأمثلة التى ذكرها يتابع ابن الأثير ، ويغترف من حياضه ، فلنقتطف من كلامه مايبرهن على صحة مانقول حتى يتضح تأثر الطيبى بابن الأثير الذى قال : " الألفاظ تنقسم فى الاستعمال الى جزلة ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحروب وفى قوارع التهديد والتخويف ، وأشباه ذلك ، وأما الرقيق فانه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفى استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك .... فمثال الأول وهو الجزل من الألفاظ قوله تعالى :
" ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون ، ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون ، وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ، وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين " . فتأمل هذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله وذكر النار والجنة وانظر هل فيها لفظة الا وهى سهلة مستعذبة على مابها من الجزالة ....

وأما مثال الثانى وهو الرقيق من الألفاظ فقوله تعالى فى مخاطبة النبى صلى الله

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ١٢٠

عليه وسلم " والضحى والليل اذا سجى ، ماودعك ربك وماقلى ...... الى آخر السورة
وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسألة " واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة
الداع اذا دعان " . وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم فى كلا هذين الحالين من الجزالة
والرقة " (١) .

* وهكذا يتضح بجلاء بعد هذه الموازنات التى عقدتها بين الطيبى وابن الأثير
أن الطيبى قد تأثر به فى موضوعات متعددة من الكتاب ، وقد بلغ هذا التأثر قمته عند
الطيبى فى حديثه عن الفصاحة اذ كان ملخصا حقا لكلام ابن الأثير فى جل ماقال ، كما
اعترف هو نفسه بذلك ، وان بدت شخصية الطيبى فى تصنيفه وترتيبه لأوصاف الفصاحة
ناهلا من معين ابن الأثير ، وأنا أجد راحة كبيرة فيما كتبت عن تأثر الطيبى بابن الأثير ،
لأن ضياء الدين كان دما جديدا سرى فى عروق هذه البحوث المكررة لدرجة الجفاف
وكم كان يفيد أمثال الطيبى من هذا الاتجاه لو اتسعوا فيه على نحو يجعل البلاغة
ذات رونق وبها .

== == ==
* *

ثانيا : تأثير الطيبى بكتابه التبيان فيمن أتى بعده :

عرفنا فيما سبق أبرز من تأثر بهم الطيبى فى كتابه " التبيان فى البيان " الذى حاول
فيه الجمع بين الاتجاهات البلاغية المختلفة ، فماذا عن تأثيره بهذا الكتاب فيمن أتى بعده
من البلاغيين ؟ أقول : يبدو لمن يتتبع المؤلفات البلاغية بعد الطيبى للوهلة الأولى أن
تأثيره بكتابه " التبيان " فيمن تلاه كان قليلا حيث تمثل التأثر به فى نقل بعض الآراء -
للاستئناس بها أو نقدها وفى ايراد بعض الأمثلة المذكورة فى الكتاب ، ولعل ذلك لأن الرجل
لم تكن البلاغة فنه الأول بل كان ذا زاد ثقافى متنوع الطعوم وصاحب معرفة متعددة الجوانب
وميراثه البلاغى يتشابه كثيرا مع ميراث سابقيه مما يجعل النقل عنهم جميعا فى دائرة لاتسمح
بتحديد المنقول عنه ، وعلى الرغم من ذلك فهناك كثرة كاثرة من البلاغيين نقلوا عنه صراحة

---

(١) المثل السائر جا ص ٢٤٠ ، ٢٤٢

ورجعوا اليه واتخذوا كتابه " التبيان فى البيان " مصدرا من مصادرهم حين كتابتهم لمؤلفاتهم البلاغية ، ومن هؤلاء الذين نلاحظ تأثير الطيبى بكتابه فى مؤلفاتهم بهاء الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧٣هـ ، وأبو جعفر الغرناطى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ وابن معصوم المدنى المتوفى سنة ١١٢٠ هـ وسنخص كل واحد من هؤلاء الأربعة بحديث نقف منه على مدى تأثير الطيبى فيه بادئا بالسابق منهم فالذى يليه ، وانما اكتفيت بهؤلاء الأربعة ممن تأثروا بالطيبى لتصريحهم بالأخذ منه من ناحية ولأن تأثرهم من ناحية أخرى كان بكتاب " التبيان فى البيان " الذى نحن بصدد الحديث عن تأثير الطيبى به فيمن تلاه .

أولا : بهاء الدين السبكى : (١)

من الذين تأثروا بالطيبى بهاء الدين السبكى فى كتابه " عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح " حيث جعل كتاب " التبيان فى البيان " من المصادر التى نهل منها حين تأليفه الكتاب فقال فى مقدمته : " واعلم أننى لم أضع هذا الشرح حتى استعنت عليه بنحو من ثلثمائة تصنيف وأنه تضمن الخلاصة من مائة تصنيف فى هذا العلم ، منها ما وقفت عليه ومنها ما وقفت على كلام من وقف عليه ..... وأنى اختصرت فيه أكثر من خمسين مصنفا فى علم البلاغة وقفت عليها لم أترك منها الا ماهو خارج عن هذا العلم أو قليل الجدوى فيه ، أو شواهد لاحاجة لها لكثرتها أو مازاغ البصر عنه أو ما ان تأملته علمت أنه فاسد لاترضيه ، فمن ذلك دلائل الاعجاز للشيخ عبد القاهر .... والتبيان للشيخ شرف الدين الطيبى وشرحه له " (٢) .

ونحن اذا تتبعنا مانقله السبكى عن الطيبى لانجده يقتصر على الأخذ من هذين الكتابين اللذين ذكرهما ، وانما نجد نصوصا نقلها من حاشية الطيبى على الكشاف مسميا لها بشرح الكشاف وقد سماها الطيبى : " فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب " نفهم ذلك من مقابلة بعض هذه النصوص بما قاله الطيبى فى الحاشية فالسبكى ذكر مثلا فى باب القصر تعليق الطيبى على كلام الزمخشرى فى قوله تعالى : " والله يقول الحق وهو يهدى السبيل " اذ يقول السبكى : " قال الزمخشرى فى قوله تعالى : والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

---

(١) هو أحمد بن على بن عبد الكافى بهاء الدين أبوحامد السبكى ولد سنة تسع وعشرين وسبعمائة وبرع فى العلم وهو شاب ، وتولى التدريس بمدارس عدة كالجامع الطولونى ، وجامع الحاكم والشيخونية وولى قضاء العسكر وافتاء دار العدل ، وتولى تدريس التفسير بجامع ابن طولون ، وله كتاب " عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح " توفى سنة ٧٧٣ هـ .

(٢) شروح التلخيص جـ١ ص٢٨ ، ٢٩ ، ٣١

معناه لايقول الا الحق ولايهدى الا سبيل الحق قال الطيبى أما دلالة وهو يهدى السبيل فظاهر لأنه على منوال أنا عرفت ، وأما والله يقول الحق فلأنه مثل الله يبسط ، وهو عنده يفيد الحصر ، قلت هذا عجيب فان أنا عرفت والله يبسط حصر فيه الفاعل ومعنى حصر الفاعل فيه : لايقول الحق الا الله والزمخشرى لم يتعرض لذلك بالكلية فانه وجه المعنى هنا ليس على الحصر وانما أراد حصر المفعول ألاتراه صرح بذلك وقال : لايقول الا الحق ولايهدى الا السبيل فلم يقع الطيبى على مراده مع وضوحه "(١) ، ولنعرض عبارة الطيبى فى الحاشية لنرى صحة ماقلناه عن السبكى فى رجوعه وأخذه من حاشية الطيبى الذى يقول فيها : " قوله ــ أى قول الزمخشرى ــ لايقول الا ماهو حق ولايهدى الا سبيل الحق أما دلالة وهو يهدى السبيل على الحصر فظاهر لأنه على منوال أنا عرفت لكنه دلالة والله يقول الحق على الحصر فان عنده مثل هذا التركيب مفيد للتخصيص كما مر فى قوله : الله يبسط الرزق وأمثاله "(٢) .

فبالمقارنة بين العبارة التى نقلها السبكى عن الطيبى وعبارة الطيبى نفسه فى الحاشية نلاحظ مدى التقارب الواضح بين العبارتين ، مما يدل على افادة السبكى من حاشية الطيبى ، وأنه لم يقتصر على مؤلفى الطيبى اللذين ذكرهما فى المقدمة ، كما نلاحظ مناقشة السبكى له فيما نقله عنه حيث ذهب الى أنه لم يقع على مراد الزمخشرى ، فان جار الله أراد القصر على المفعول والذى يؤخذ من عبارة الطيبى أن القصر عند الزمخشرى على الفاعل .

ولايسعنى الا التسليم بما قاله السبكى اعتمادا على كلام الزمخشرى نفسه فى الآيتين حيث عقب على قوله تعالى : " والله يقول الحق وهو يهدى السبيل " بقوله : " والله عز وجل لايقول الا ماهو حق ظاهره وباطنه ولايهدى الا سبيل الحق "(٣) ، وعقب على قوله تعالى : " الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " بقوله : " أى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره وهو الذى بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم "(٤) . فيؤخذ من تعليق الزمخشرى على الآيتين أن المقصور عليه هو المفعول فى الآية التى هى محل المناقشة كما قال السبكى وأما آية " الله يبسط الرزق " فالقصر فيها على الفاعل . ومادام الأمر كذلك فكيف يصح

---

(١) شروح التلخيص جـ٢ ص٢٠٢
(٢) فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب الورقة ١٦٣ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥١١ تفسير طلعت.
(٣) تفسير الكشاف جـ٣ ص٢٥٠
(٤) تفسير الكشاف جـ٢ ص٣٥٩

للطيبي قياس احداهما على الأخرى ؟ .

واذا برهنا على نقل السبكي من حاشية الطيبي بالمقارنة بين عبارتي الناقل والمنقول عنه يمكننا التدليل على ذلك أيضا بتصريح السبكي في بعض المواطن من كتابه بنقله من شرح الكشاف وذلك في باب التشبيه عند بيان المقصود من التشبيه في قوله تعالى : " أفمن يخلق كمن لايخلق " فبعد أن ذكر أن المقصود الزجر عن تشبيه غير الخالق بالخالق قال :

" وعبارة الزمخشري أنهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه فقد جعلوا أنه من جنس المخلوق وشبيها به فأنكر عليهم ذلك بقوله : أفمن يخلق .... وجوز الطيبي فيه في شرح الكشاف : أنه يريد أنهما لما تساويا صح تشبيه كل بالآخر وأن يكون من قلب التشبيه " (١) .

ونستطيع أن نقرر بناء على ماتقدم أن بهاء الدين السبكي في كتابه " عروس الأفراح " قد تأثر بالطيبي في مؤلفاته الثلاثة " فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب " و " شرح التبيان " وكتاب " التبيان في البيان " الذي نحن بصدد الكلام عن تأثير الطيبي به فيمن تلاه ، فلنعرض الآن نماذج من نقول السبكي منه لنرى مدى تأثير الطيبي فيه :

١ ـ ذكر بهاء الدين في باب القصر أن من طرقه أنما بالفتح مستشهدا بكلام الزمخشري ومستأنسا بما نقله الطيبي فقال : " بقي للقصر طرق بعضها باتفاق وبعضها باختلاف ، منها ..... ومنها أنما بالفتح قال الزمخشري في قوله تعالى : " قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد " انما لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم كقولك انما زيد قائم وانما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لأن انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وأنما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي الى الرسول صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله بالوحدانية ، قلت هذا صريح في أن أنما بالفتح للحصر وبه صرح التنوخي في كتاب " الأقصى " ونقله الطيبي أيضا " (٢) .

ونحن نلاحظ أن السبكي في عده أنما من طرق القصر استدل بما قاله الزمخشري ثم استأنس بما نقله الطيبي ازاء الآية التي دار كلام الزمخشري حولها فلننظر ماذا قال الطيبي في كتابه : " التبيان في البيان " لنقف على أثره عند السبكي يقول الطيبي :

---

(١) شروح التلخيص جـ٣ ص٤٠٩

(٢) شروح التلخيص جـ٢ ص٢٠٢

" وثالثها — أى طرق القصر — طريق انما تقول فى قصر الموصوف على الصفة افرادا أو قلبا انما زيد جاء وعكسه انما يجيء زيد وقوله تعالى : " انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد " متضمن لكلا النوعين أى الوحى عليه صلوات الله عليه مقصور على استئثار الله بالوحدانية فيقال على قصر الصفة مايوحى الى الا التوحيد أى الشرك ليس بالوحى وعكسه ماالهكم الا اله واحد أى ليس له صفة التعدد "(١) . وبالنظر الى كلام الطيبى السابق يتضح لنا أنه ناقل حقا عن الزمخشرى كما أخبر السبكى وهذا يدل على رجوعه الى كتاب " التبيان فى البيان " للطيبى .

٢ — رد السبكى فى باب الانشاء على ظاهر تعبير صاحب التلخيص الذى يفهم منه أن الهمزة من بين أدوات الاستفهام هى التى يطلب بها مايليها بخلاف غيرها داعما رأيه بما قاله الطيبى حيث قال بهاء الدين السبكى : " وقول المصنف المسئول عنه بها هو مايليها ظاهر قوله بها وذكره لذلك فى هذا المحل وقطعه النظير عن النظير دون ذكره لذلك فى أول الكلام أو آخره يقتضى أن غيرها من أدوات الاستفهام لايطلب بها مايليها . وليس كذلك بل غيرها يشاركها فى ذلك . وقد ذكره الطيبى فى التبيان "(٢) . نعم يفهم عدم التفرقة كما ذكر السبكى من عبارة الطيبى التى يقول فيها : " واختصت — يقصد الهمزة — مع أخواتها بالصدر لكون المطلوب بها مهتما بشأنه "(٣) .

٣ — ذكر السبكى فى باب الفصل أن أبا تمام عيب على قوله :

لا والذى هو عالم أن النوى .. صبر وأن أبا الحسين كريم

لعدم التناسب بين المعطوف والمعطوف عليه وأورد كلام الطيبى الدال على استحسانه يقول السبكى : " ولعدم التناسب عيب على أبى تمام قوله :

لا والذى هو عالم أن النوى .. صبر وأن أبا الحسين كريم

اذ لاتناسب بين مرارة النوى وكرم أبى الحسين وقد تمحل الناس الى أجوبة منها أن مرارة النوى سبب يقتضى انتجاع أبى الحسين لمكارمه التى تزيل شظف النوى أو تمنى كرم الأخلاق الذى يزيل عنه النوى وقد بالغ الطيبى فى استحسانه اشارة الى أنه جمع بين متضادين وهى مرارة

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٢٠
(٢) شروح التلخيص جـ٢ ص ٢٥٤
(٣) التبيان فى البيان الورقة ٣١

النوى وحلاوة كرم أبى الحسين ، فأبرزهما فى معرض التوخى كالجمع بين الضب والنون " (١)

والطيبى قد أورد البيت شاهدا على فقدان الجامع مسايرة للبلاغيين الذين مثلوا به لذلك ثم علق بما يشعر باستحسانه له اذ قال عن أبى تمام : " تعاطى الجمع بين مرارة النوى وكرم أبى الحسين فأبرزهما فى معرض معوض التوخى للجمع بين الضب والنون والأروى والنعام " (٢)

وهكذا نلاحظ التوافق بين مانقله السبكى عن الطيبى وماقاله الطيبى نفسه فى كتابه مما يدل على تأثيره فى صاحب " عروس الأفراح " .

٤ ـ تحدث السبكى فى باب الايجاز والاطناب عن وجوه فضل قوله تعالى " ولكم فى القصاص حياة " على قولهم : القتل أنفى للقتل ، فذكر أن منها كون الآية رادعة عن القتل والجرح وعن الضرب والذى قاله هو الطيبى . يقول السبكى : " السادس عشر أنها رادعة عن القتل والجرح قاله الامام فخرالدين وغيره والضرب قاله الطيبى " (٣) وماذكره السبكى هو عين ماقاله الطيبى فى التبيان حيث قال معددا وجوه فضل الآية : " هى رادعة للقتل والجرح والضرب " (٤) .

٥ ـ مال السبكى الى ابدال عبارة " وضوح الدلالة " الواردة فى تعريف علم البيان عند السكاكى ومن تبعه بعبارة " الخفاء " الواردة فى التعريف عند الطيبى فقال بهاء الدين :

" أورد بعض شراح المفتاح أن قولهم " فى وضوح الدلالة " لاينبغى فان الوضوح ليس بمقصود بل المقصود الخفاء ، فانه كلما كان الكلام خفيا فى الدلالة كان أبلغ فلو قيل فى خفاء الدلالة كان أقرب الى الاشارة الى اعتبارات الأبلغ ، واعترض على هذا بالمنع وأن ذكر الوضوح يستلزم ذكر الخفاء ، لأن كل واضح خفى بالنسبة الى غيره وبالعكس ، وغير ذلك مما لاطائل تحته .

والسؤال قوى فلذلك عبر الطيبى بالخفاء " (٥) . واذا رجعنا الى تعريف علم البيان عند الطيبى فى كتابه " التبيان " فاننا نجده قد عبر فيه بالخفاء كما حكى السبكى عنه اذ قال الطيبى : " علم البيان هو معرفة ايراد المعنى الواحد فى الطرق المختلفة الدلالة بالخفاء

---

(١) شروح التلخيص ج٣ ص٢٣
(٢) التبيان فى البيان الورقة ٥٤
(٣) شروح التلخيص ج٣ ص ١٨٩
(٤) التبيان فى البيان الورقة ٢٨
(٥) شروح التلخيص ج٣ ص٢٦٢

على مفهومها تفاديا عن الخطأ في التطبيق لتمام المراد " (١) .

٦ ـ مثل السبكي للاستعارة المرشحة بقوله تعالى : " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم " ثم ذكر عن الطيبي القول باشتمالها على الترشيح والتجريد وذلك حيث قال السبكي : " والقسم الثالث المرشحة وهي المقرونة بما يلائم المستعار منه كقوله تعالى : أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم " فانه استعير الشراء للاختيار فرشح بالربح والتجارة اللذين هما من متعلقات الشراء وقال الطيبي انه اجتمع في هذه الآية الكريمة الترشيح والتجريد فالترشيح في قوله تعالى اشتروا والتجريد في قوله تعالى وماكانوا مهتدين ، وفيه نظر " (٢) .

هذا مانقله السبكي عن الطيبي الذي يقول وهو يتحدث عن الاستعارة المرشحة والمجردة : " وقد اجتمعتا في قوله تعالى : " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين " فقوله فماربحت تجارتهم ترشيح وقوله وماكانوا مهتدين تجريد لأنه ملائم للمستعار له " (٣) . ونحن نلاحظ بالموازنة بين العبارتين أن في كلام السبكي شيئا من التحريف أو التسامح في النقل حيث ذكر أن الطيبي يرى الترشيح في اشتروا ، وليس الأمر كما يقول السبكي اذ اشتروا محل الاستعارة وليست محلا للترشيح بل محل الترشيح قوله فما ربحت تجارتهم كما يتضح لنا من عبارة الطيبي نفسه التي نقلناها من كتابه " التبيان في البيان " .

هذا وقد عقب السبكي على كلام الطيبي بقوله وفيه نظر ولاندري وجهة نظره حيث لم يفصح عنها .

٧ ـ ذهب السبكي وهو يتحدث عن الارصاد الى عدم اشتراط العلم بحرف الروي مخالفا في ذلك صاحب التلخيص وكان مما عاضد به رأيه تمثيل الطيبي للارصاد بقوله تعالى : " وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت " اذ لو اشترط فيه العلم بالروي لما صح التمثيل بالآية في رأيه يقول بهاء الدين : " وفي اشتراط العلم بحرف الروي نظر فان ذلك قد يعلم من حشو البيت الواحد أو صدره وان لم يعلم الروي .... ولذلك جعل منه الطيبي : وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت . وقال أنه يدل على العنكبوت " (٤) .

---

(١) التبيان في البيان الورقة ٣٤
(٢) شروح التلخيص جـ٤ ص١٣١
(٣) التبيان في البيان الورقة ٥٣
(٤) شروح التلخيص جـ٤ ص٣٠٨

ونحن اذا انتقلنا الى كتاب " التبيان فى البيان " وجدنا صحة مانقله السبكى عن الطيبى مما يدل على تأثير السابق بكتابه فى اللاحق يقول الطيبى : " والارصاد وهو أن يؤسس الكلام على وجه يدل على بناء مابعده وهو ضربان أحدهما مادلالته لفظيه قال تعالى " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت " فلو وقف القارىء على قوله وان أوهن البيوت علم السامع أن مابعده بيت العنكبوت " (١) .

* * *

واذا رأينا فيما سبق نقل السبكى من كتاب " التبيان فى البيان " لدعم رأيه أو تعضيد وجهة نظره فاننا نجده كثيرا ينتقل للنقد والحكم على الطيبى بالوهم أو على عبارته بالفساد ولنعرض نماذج لهذه النقدات السبكية :

١ ـ فى أثناء الحديث عن أحوال المسند اليه ذكر صاحب التلخيص أن من أحوال المسند اليه توسط الفصل بينه وبين المسند لتخصيصه به . ثم علق السبكى على عبارته قائلا : " قول المصنف تخصيصه أى تخصيص المسند اليه بالمسند وهذه العبارة هى الصواب وأما قول السكاكى فى المفتاح تخصيص المسند بالمسند اليه فهو سهو منه فليتأمل ، وقال الطيبى فى التبيان : الفصل لتخصيص المسند بالمسند اليه أو عكسه وهو وهم أيضا " (٢) .

وقبل أن أناقش الشيخ بهاء الدين السبكى فيما حكم به على السكاكى بالسهو وعلى الطيبى بالوهم أورد عبارة الطيبى كما فى كتابه لنرى مدى صحة نقل السبكى عنه يقول الطيبى فى أحوال المسند اليه : " الثانى عشر فى اقتضائه ضمير فصل وهو اذا كان المراد تخصيص المسند بالمسند اليه أو عكسه " (٣) . وهكذا نرى توافق العبارتين الدال على تأثير الطيبى فى السبكى ولكن ماذا يقصد بهذا النقد الذى أورده على عبارة الطيبى ؟ .

أقول : بالتأمل فى كلام السبكى نستطيع أن نفهم منه أحد أمرين فهو اما أن يريد القول بوجوب دخول الباء بعد الاختصاص على المقصور ولهذا حكم على الطيبى بالوهم ، لأن صريح عبارته يدل على جواز دخول الباء بعد الاختصاص على المقصور عليه كدخولها على المقصور ، واما أن يريد السبكى القول بعدم افادة ضمير الفصل قصر المسند اليه على المسند ، ولما كانت عبارة الطيبى تفيد أن ضمير الفصل لقصر المسند اليه كما يأتى لقصر المسند حكم عليه

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٩١.

(٢) شروح التلخيص جـ١ ص ٣٨٨ .

(٣) التبيان فى البيان الورقة ١٠ .

بالوهم كما حكم على السكاكي بالسهو ، وهذا الذى بنى عليه السبكي حكمه كما يؤخذ من كلامه نستطيع الرد عليه بما يلى فأقول :

ان كان يرى السبكي وجوب دخول الباء على المقصور فهذا غير صحيح لأن اللغة تجيز دخولها على المقصور عليه نعم قد اختلف العلماء فى الغالب فى الاستعمال لكنهم متفقون على جواز الأمرين جميعا ، ولهذا علق الدسوقى على شرح السعد لهذه العبارة — تخصيصه بالمسند — قائلا : " لما كانت العبارة توهم أن الباء داخلة على المقصور عليه بين الشارح — يقصد سعد الدين التفتازانى — أنها داخلة على المقصور من قصر الصفة على الموصوف ، لأن المسند صفة للمسند اليه ، واعلم أن دخول الباء بعد الاختصاص على المقصور هو الغالب فى الاستعمال عند الشارح وخالفه السيد فجعل الغالب دخولها على المقصور عليه مع اتفاقهما على جواز الأمرين لغة ، والنزاع بينهما انما هو فى الغالب فى الاستعمال " (١) ، وبهذا نرى أن تخطئة السبكي للطيبى والحكم عليه بالوهم غير صحيح ان كان قد بنى حكمه على هذه الحجة ، أما اذا بناه على أن ضمير الفصل لايكون القصر المسند على المسند اليه فأقول هذا أيضا غير صحيح اذ أن ضمير الفصل يستعمل لقصر المسند اليه على المسند نحو الكرم هو التقوى والحسب هو المال أى لاكرم الا التقوى ولاحسب الا المال الطيب " (٢) .

٢ — فى باب الانشاء عند الحديث عن هل الاستفهامية انتقد السبكي تعبير الطيبى فقال : " وعبارة الطيبى فى التبيان هل مختصه بطلب التصديق وهى فاسدة والصواب أن طلب التصديق مختص بها وذلك كقولك هل قام زيد " (٣) ونحن اذا رجعنا الى كتاب التبيان وجدنا الطيبى يقول فيه : " وهل وهى تختص بطلب التصديق " (٤) .

وهكذا نلاحظ تقارب العبارتين مما يدل على تأثير الطيبى عند السبكي الذى رجع الى كتابه واتخذه مصدرا من مصادره ، أما من حيث حكم السبكي على عبارة الطيبى بالفساد فواضح أنه مبنى على مااستنبطناه من كلامه فيما سبق وقد دحضته هناك بما لايدع مجالا لاعادته ، ونلاحظ أن هذه الفكرة سيطرت عليه فبنى عليها كثيرا من نقداته لعبارات الطيبى فنراه مثلا فى الكناية ينوه بعبارة صاحب التلخيص فى تعليقه على قول الشاعر :

---

(١) حاشية الدسوقى (شروح التلخيص) جـ١ ص٣٨

(٢) انظر بغية الايضاح جـ١ ص١١٧

(٣) شروح التلخيص جـ٢ ص٢٥٥

(٤) التبيان فى البيان الورقة ٣١

ان السماحة والمروءة والندى •• فى قبة ضربت على ابن الحشرج

ناقدا عبارة الطيبى التى تابع فيها السكاكى فيقول : " واعلم أن قول المصنف اختصاص ابن الحشرج بهذه الصفات هو الصواب وهو عكس عبارة السكاكى حيث سماه اختصاص الصفة بالموصوف وتبعه الطيبى والصواب الأول فان المقصود أن السماحة ليست لغير ابن الحشرج لأنه ليس لغيرها " (١) •

وبهذا ندرك بوضوح رجوع السبكى الى كتاب " التبيان فى البيان " حيث نقل منه ونقد بعض عباراته ، وعده من مصادر كتابه وكفى هذا دليلا على تأثير الطيبى بكتابه فى بهاء الدين السبكى حين كتب مؤلفه " عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح " •

* * *

ثانيا : <u>أبو جعفر الغرناطـــى</u> (٢)

شرح أبو جعفر الغرناطى بديعية صاحبه ابن جابر الأندلسى المسماه " الحلة السيرا فى مدح سيد الورى " وسمى شرحه " طراز الحلة وشفاء الغلة " وقد قدم بين يدى شرحه مسائل خمسا والذى يهمنا من كتاب أبى جعفر هو هذه المقدمة التى كتبها لشرحه حيث أورد فيها من النصوص مايدل على نقله من كتاب " التبيان فى البيان " للطيبى كما صرح باسمه واسم كتابه وان خالفه فى جل مانقل عنه ، أما المسائل الخمسة التى تضمنتها المقدمة فالمسألة الأولى فى البديع لغة واصطلاحا والثانية فى الفرق بين الفصاحة والبلاغة والثالثة فى مكان البديع من أخويه المعانى والبيان وأنه منهما بمنزلة المركب من المفرد والرابعة فى تقسيم أنواع البديع بحسب اللفظ والمعنى والخامسة فى بيان أن البديع أحد علوم الأدب الستة وهى اللغة والتصريف وعلم العربية والمعانى والبيان والبديع ونعرض الآن من حديث أبى جعفر فى مقدمة شرحه مايدل على تأثير الطيبى فيه •

---

(١) شروح التلخيص جـ٤ ص٢٦١

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرعينى الأندلسى الغرناطى كان مقتدرا على النظم والنثر عارفا بالبديع وفنونه دينا حسن الخلق حلو المحاضرة صحب ابن جابر الأندلسى فى رحيله الى الديار المصرية فكان ابن جابر ينظم والغرناطى يكتب له وقد شرح بديعية رفيقه ابن جابر وسماه " طراز الحلة وشفاء الغلة " وقد توفى سنة ٧٧٩ هـ •

١ ـ فى المسألة الثانية عند حديثه عن الفصاحة والبلاغة والفرق بينهما قال أبو جعفر :
" واعلم أن شرف الدين الطيبى صاحب التبيان جعل بيت الفرزدق :
وما مثله فى الناس الا مملكا .. أبو أمه حى أبوه يقاربه
وأشباهه من التعقيد المعنوى ..... وجعل التعقيد اللفظى فيما يحدث من الثقل من توالى المضافات والضمائر والصفات والأفعال من غير عطف وتكرار الألفاظ وما جرى مجرى ذلك وسائر أمثلة ذلك " (١) .

وبالرجوع الى " كتاب " التبيان فى البيان " وجدت مانقله أبو جعفر مطابقا لما ذكره الطيبى هناك " (٢) . حيث مثل ببيت الفرزدق للتعقيد المعنوى أو المماظلة المعنوية كما يسميها الطيبى ، وأما التعقيد اللفظى الذى سماه الطيبى بالمماظلة اللفظية فقد جعلها خمسة أقسام هى بعينها التى حكاها أبو جعفر ، وهذا التوافق يدل على رجوع أبى جعفر لكتاب " التبيان فى البيان " وافادته منه .

٢ ـ بعد أن ذكر أبو جعفر أن توالى الصفات هو خامس أقسام التكرار المؤدى الى الثقل متابعا الطيبى عقب على ذلك بما يدل على مخالفته وعدم ارتضائه لرأيه اذ قال : " الخامس توالى الصفات . ذكر الطيبى أن ذلك مما يحدث فى الكلام ثقلا واستشهد على ذلك بقول المتنبى :
دان بعيد محب مبغض بهج .. أغر حلو ممر لين شرس
والحق أن توالى الصفات لايحدث ثقلا لمجىء ذلك فى الكتاب العزيز فقال تعالى :
" التائبون العابدون الحامدون ... الى آخرها وقال تعالى مسلمات مؤمنات .. الى آخرها الى غير ذلك من الآى " (٣) .

ونحن نلاحظ على أبى جعفر أخذه من كتاب " التبيان فى البيان " للطيبى الذى يقول معددا أقسام المماظلة اللفظية : " وخامسها أن ترد صفات مترادفة قال المتنبى :
دان بعيد محب مبغض بهج .. أغر حلو ممر لين شرس " (٤)
وهكذا ندرك صحة مانقله أبو جعفر عن الطيبى فى عده توالى الصفات قسما من أقسام المماظلة اللفظية ، والطيبى فى ذلك متابع لابن الأثير كما بينا ذلك عند الحديث عن

---

(١) طراز الحلة وشفاء الغلة مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٨ بلاغة الورقة رقم ٧
(٢) انظر التبيان فى البيان الورقة ١١٨
(٣) طراز الحلة وشفاء الغلة الورقة ٨ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٨ بلاغة
(٤) التبيان فى البيان الورقة ١١٨

تأثر الطيبى بابن الأثير ، وأبو جعفر وان لم يرفض رأى الطيبى فانه يكفينا منه نقله لرأيه لنتدلل بذلك على تأثير الطيبى فيه .

٣ ـ تحدث أبو جعفر الغرناطى فى المسألة الرابعة من المسائل التى قدم بها شرحه ، عن تقسيم أنواع البديع بحسب اللفظ والمعنى ، وهنا نجده ينقل لنا رأى الطيبى فى ذلك وان رغب هو عنه فقال : " اعلم أن الطيبى وغيره نصوا على أن أنواع البديع تتعلق ببابين باب البلاغة وباب الفصاحة فما كان منها متعلقا بالمعنى أو بالمعنى واللفظ مما فهو من باب البلاغة ، وما كان متعلقا باللفظ فقط فهو من باب الفصاحة فهى ثلاثة أقسام قسم يتعلق بالمعنى فقط كالتورية وتجاهل العارف وما جرى مجراهما مما لا تعلق له باللفظ ، وقسم يتعلق باللفظ فقط كالتجنيس ورد العجز على الصدور ونحوهما مما لا تعلق به بالمعنى ، وقسم يتعلق باللفظ والمعنى كالمطابقة والمقابلة وما أشبههما مما لكل واحد من اللفظ والمعنى فيه حظ ، وأسقط صاحب الايضاح هذا القسم وجعل البديع قسمين قسم يتعلق باللفظ وقسم يتعلق بالمعنى وهو الأبين ، وعليه درج صاحبنا فى القصيدة " (١) .

يقول الطيبى فى " التبيان " عن البديع وتقسيم أنواعه : " علم البديع هو معرفة وجوه تحسين الكلام والتحسين اما راجع الى المعنى أو الى اللفظ أو اليهما جميعا ، والبحث عن القسم الثانى وظيفة الفصاحة وعن الأول والثالث وظيفة البلاغة " (٢) .

وهكذا يكون رأى الطيبى فى تقسيم أنواع البديع هو عين ما حكاه أبو جعفر الغرناطى عنه ولا يهمنا ارتياحه الى رأى غيره ، وانما الذى يستوقفنا هو صحة هذا النقل الدال على أن أبا جعفر حين كتابته لشرحه " طراز الحلة وشفاء الغلة " كان تأثير الطيبى فيه واضحا .

== == ==

* *

---

(١) طراز الحلة وشفاء الغلة الورقة ١٠

(٢) انظر التبيان فى البيان الورقة ٦٢

ثالثا : الحافظ جلال الدين السيوطي : (١)

الامام السيوطي رحمه الله من الذين نستطيع عدهم ضمن من تأثروا بكتاب " التبيان في البيان " للطيبي في مؤلفاتهم البلاغية ، وذلك أن السيوطي قد نظم أرجوزة في علوم البلاغة الثلاثة سماها " عقود الجمان " ثم قام بشرحها مسميا له " شرح عقود الجمان " ، والرجل في مؤلفه يعتمد اعتمادا أساسيا على الخطيب القزويني في تلخيصه اذ سار على نهجه وان تصرف في عبارته حاذفا بعض كلامه حينا ومورداً كلام غيره أحيانا .

يقول في مقدمة الشرح لهذه الأرجوزة : " هذه الأرجوزة حاوية لما في تلخيص المفتاح مع تلخيص في العبارة وترك كثير من الأمثلة والتعاليل معوضا عنها زيادات حسنة بعضها اعتراض عليه وبعضها ليس كذلك " (٢) .

وعلى الرغم من هذا الاعتماد على الخطيب القزويني فاننا نلمح في كتاب " شرح عقود الجمان " حشدا هائلا من آراء البلاغيين التي قد توافق الخطيب وقد تخالفه يأتي بها السيوطي بعد ذكره لما في التلخيص ، ويلقانا الامام الطيبي رحمه الله في مقدمة هؤلاء الأعلام الذين أورد السيوطي من آرائهم اذ لم يخل من النقل عنه باب من أبواب الكتاب تقريبا مع التصريح باسمه واسم كتابه " التبيان " ، وقد تمثل هذا النقل عن الطيبي في ايراد رأيه ازاء المسألة المتحدث عنها ، أو ذكر أمثلة من كتابه " التبيان في البيان " مما يدل على تأثير الطيبي الواضح بكتابه هذا في الامام السيوطي حين كتابته لمؤلفه " شرح عقود الجمان " .

ويحسن بنا الآن أن نورد طرفا من هذه النقول سواء كانت رأيا أو مثالا مقارنة بما في " كتاب التبيان " لنبرهن بذلك عمليا على صحة ماقلناه عن تأثير الطيبي في جلال الدين السيوطي رضوان الله على الجميع .

١ ـ تكلم السيوطي في باب أحوال المسند اليه عن النكات التي من أجلها يحذف ، وفي درج

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي الأصل ، الطولوني الاقامة ، الشافعي ، ويعرف بابن الأسيوطي وقد ولد ليلة مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة هـ ومن أم تركية وأب مصري وله مؤلفات متعددة في علوم مختلفة وترجم لنفسه في كتابه " حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة " حيث ذكر أنه رزق التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع وتوفي رحمة الله سنة احدى عشرة وتسعمائة هـ .

(٢) شرح عقود الجمان ص٣

حديثه عن بعض هذه الأغراض التى اقتضت حذف المسند اليه يسوق لنا أمثلة نقلها من كتاب " التبيان " ونعرض الآن حديثه فى الأغراض المشتملة على النقل من الطيبى حيث يقول السيوطى : " البحث الأول فى حذفه ويكون لنكت منها .... ومنها العدول الى أقوى الدليلين العقل واللفظ والأقوى هو العقل لأن دلالته قطعيه كقوله :

قال لى كيف أنت ؟ قلت عليـــل .. .... لم يقل أنا عليل لذلك ،

ومثله الطيبى بقوله تعالى : " وماأدراك ماهية نار حامية " ..... ومنها ضيق المقـام وهو من زيادتى وذكره فى الايضاح ومثله الطيبى فى التبيان بقوله قلت عليل ومنها كونه سمع كذلك اذ الأمثال لاتغير وهو من زيادتى أيضا . وذكره السكاكى والطيبى ومثله بقوله رمية من غير رام " (١) .

وهكذا حدثنا السيوطى فى النص السابق عن ثلاثة أغراض من أغراض حذف المســند اليه فلننظر ماذا قال الطيبى فى " التبيان " عنها ؟ قال متحدثا عن نكات حذف المسـند اليه : " وهو ـ أى الحذف ـ اما لضيق المقام قال :

قال لى : كيف أنت ؟ قلت عليل .. سهر دائم وحزن طويـــل

..... أو للتعويل على أقوى الدليلين من العقل والنقل قال تعالى : " وماأدراك ماهيه نار حامية " ...... أو لأن الاستعمال وارد على تركه نحو رمية من غير رام " (٢) .

أقول يتضح بالموازنة بين نصّ السيوطى والطيبى الاتفاق التام بينهما فى الحديث عن هذه الأغراض السابقة ، مما يدل على صحة نقل السيوطى عن الطيبى سوى أننا نلاحـظ ايراد السيوطى لقول الشاعر :

قال لى : كيف أنت ؟ قلت عليل .. الخ مثالا للعدول الى أقوى الدليلين بينما أورده الطيبى مثالا لضيق المقام ، ونحن نرجح تمثيل الطيبى به لهذا الغـــرض دون العدول الى أقوى الدليلين كما ذهب السيوطى لأن من أسباب ضيق المقام الضجر (٣) والشاعر أخبر عن نفسه بكونه عليلا ، وهذا يقتضى الضجر والقلق الذى يجعل المتكلم ضائقا بكل ماحوله . أما العدول الى أقوى الدليلين فهو متحقق غالبا فى كل حذف على أن النكات البلاغية لاتتزاحم كما يقولون .

---

(١) شرح عقود الجمان ص١٤
(٢) التبيان فى البيان الورقة ٣
(٣) انظر بغية الايضاح جـ١ ص٧٤

٢ ـ يذكر السيوطى أن من أغراض كون المسند اليه اسم اشارة قصد تعظيمه بالبعد أو قصد تحقيره وقد أورد لنا أمثلة ذلك مما مثل به الطيبى كما صرح السيوطى بذلك حيث قال :
" ومنها قصد تعظيمه بالبعد نحو ذلك الكتاب ، ومنها قصد تحقيره بالبعد نحو ذلك اللعين فعل كذا ، ومثله الطيبى بقوله تعالى : " فذلك الذى يدع اليتيم " (١) ،
وبالرجوع الى كتاب التبيان نجد ما مثل به السيوطى هو عين ما مثل به الطيبى اذ يقول :
" أو يقصد بقربه الى تحقيره ٠٠٠٠ أو ببعده الى تعظيمه قال تعالى : ذلك الكتاب ٠٠٠
أو الى طرده كما تقول ابليس ذلك اللعين وقوله تعالى : " فذلك الذى يدع اليتيم " (٢)
فلا نلمح فرقا سوى تعبير الطيبى عن التحقير بالطرد ٠

٣ ـ ذكر السيوطى وهو يتحدث عن أسرار تقديم المسند اليه أن منها التعظيم وكون الكلام فى المسند اليه كما اذا كان المراد اتصافه بالخبر ، فنراه يصدر حديثه بكلام الطيبى فى التبيان حيث نقله قائلا : " قال فى التبيان وكالتعظيم نحو " الله نور السماوات والأرض " وكون الكلام فيه كما اذا كان المطلوب اتصافه بالخبر نحو أن يقال كيف الزاهد فتقول الزاهد يشرب ويطرب ونحو ذلك " (٣) ٠ ولنقرن مانقله السيوطى بكلام الطيبى نفسه ، لنقف على مدى التطابق أو التقارب بين الكلامين ، ليكون دليلا على تأثر السيوطى بالامام الطيبى الذى يقول : " البحث الخامس ـ يقصد من مباحث تقديم المسند اليه ـ فى كونه مقدما اما لأنه الأصل ٠٠٠٠٠ أو لأن الكلام فيه كما اذا كان المطلوب اتصافه بالخبر نحو الزاهد يشرب ويطرب ٠٠٠٠٠ أو للتعظيم نحو " الله نور السماوات والأرض " (٤) ٠
وهكذا نلاحظ نقل السيوطى من كتاب التبيان مع تصرف ضئيل كما يبدو من قراءة النصين ٠

٤ ـ ذكر السيوطى فى ختام باب الانشاء ، أن لفظ الطلب قد يقع مرادا به الخبر ، ثم سرد علينا أمثلة لذلك مصرحا بأنها مختارة مما مثل به الطيبى فى " التبيان " يقول السيوطى :
" ثم نبهت من زيادتى على أن لفظ الطلب قد يقع مرادا به الخبر ، ولذلك فى كل محل نكت ولطائف تدرك بالفطنة ، وذكر منها فى " التبيان " أمثلة منها قوله تعالى : " قل أمر

---

(١) شرح عقود الجمان ص١٧
(٢) التبيان فى البيان الورقة ٧
(٣) شرح عقود الجمان ص٢٣
(٤) التبيان فى البيان الورقة ١٠

ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم " الآية لم يقل واقامة وجوهكم تأكيدا لمكان العناية بالصلاة
وقوله تعالى حكاية عن هود " انى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون " لم يقل
وأشهدكم حذرا من أن يوازى شهادتهم بشهادة الله تعالى تهاونا بهم وأورد منه
" استغفر لهم أو لا تستغفر لهم " وقول كثير :

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة •• لدينا ولامقلية ان تقلت

وذلك للتسوية كما تقدم فى الأمر "(١) • هذا مانقله السيوطى فماذا قال الطيبى ؟ •

قال : " وقد يخرج الخبر فى معنى الطلب وعكسه فالأول قولك : أعاذك الله من الشبهة وعصمك من الحيرة •••• والثانى _ يقصد ارادة الخبر بلفظ الطلب _ قول كثير :

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة •• لدينا ولامقلية ان تقلت

يظهر الرضا باساءة المحبوبة واحسانها أى لايتفاوت محبتى باحسانك واساءتك ومنه قوله تعالى : " استغفر لهم أو لاتستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم " أى لاترى اختلافا بين حالتى الاستغفار وتركه ، وقوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام " انى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون " ولم يقل واشهدكم لتوازى شهادة الله تهاونا بهم ، وقوله تعالى : " قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد " ولم يقل واقامة وجوهكم تأكيدا لمكان العناية بالصلاة " (٢) •

وهكذا نرى من المقابلة بين النصين السابقين أن السيوطى ناقل حقا ماأورده من أمثلة عن الامام الطيبى فى كتابه " التبيان " كما صرح هو بذلك مما يدل على أثر الطيبى عنده •

٥ _ أورد السيوطى فى باب الايجاز والاطناب والمساواة رأى الطيبى فى تقسيم الايجاز الخالى من الحذف ، بعد ذكره لرأى الخطيب القزوينى فقال : " قسم الطيبى فى التبيان الايجاز الخالى من الحذف الى ثلاثة أقسام : ايجاز قصر وهو أن يقصر اللفظ على معناه كقوله تعالى " انه من سليمان " الى قوله تعالى " وأتونى مسلمين " جمع فى أحرف العنوان والكتاب والحاجة ، فى وصف بليغ كانت ألفاظه قوالب معناه • قلت وهذا رأى من يدخل المساواة فى الايجاز •

الثانى ايجاز التقدير : وهو أن يقدر معنى زائد على المنطوق ويسمى بالتضيق أيضا وبه

---

(١) شرح عقود الجمان ص٥٨

(٢) التبيان فى البيان الورقة ٣٣ ، ٣٤

سماه فى المصباح لأنه نقص من الكلام ماصار لفظه أضيق من معناه نحو فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف أى خطاياه غفرت فهى له لا عليه " هدى للمتقين " أى للضالين الصائرين بعد الضلال الى التقوى . وقال بعضهم فى رجل بلغه عنه كلام قبيح : الحمد لله الذى أحوجه الى الكذب علىّ ونزهنى عن قول الحق فيه أى جعلنى محسودا له فكذب علىّ ، ومع هذا نزهنى أن أقول ما فيه ، الثالث الايجاز الجامع وهو أن يحتوى اللفظ على معان متعددة نحو " ان الله يأمر بالعدل والاحسان " الآية فان العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفى الافراط والتفريط المومئ به الى جميع الواجبات فى الاعتقاد والأخلاق والعبودية ، والاحسان هو الاخلاص فى واجبات العبودية لتفسيره فى الحديث بقوله أن تعبد الله كأنك تراه أى تعبده مخلصا فى نيتك واقفا فى الخضوع آخذا أهبة الحذر الى مالا يحصى ، وايتاء ذى القربى هو الزيادة على الواجب من النوافل ، هذا فى الأوامر وأما النواهى فالفحشاء الاشارة الى القوة الشهوانية والمنكر الافراط الحاصل من آثار الغضبية أو كل محرم شرعا ، والبغى الى الاستعلاء الفائض عن الوهمية . قلت ولهذا روى الحاكم فى المستدرك عن ابن مسعود قال : ما فى القرآن آية أجمع للخير والشر من هذه الآية ، وروى البيهقى فى شعب الايمان عن الحسن أنه قرأ يوما هذه الآية ثم وقف فقال : ان الله تعالى جمع لكم الخير كله والشر كله فى آية واحدة فوالله ماترك العدل والاحسان من طاعة الله شيئا الا جمعه ، ولاترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا الا جمعه وروى أيضا عن ابن شهاب فى معنى حديث الشيخين : بعثت بجوامع الكلم ، قال بلغنى أن جوامع الكلم أن الله تعالى يجمع له الأمور الكثيرة التى كانت تكتب فى الكتب قبله فى الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك " (١) .

واذا عرض علينا السيوطى رأى الطيبى فينبغى أن نتعرف على رأيه من خلال حديثه فى " التبيان " الذى يقول فيه : " والنوع الثانى - يقصد الايجاز بغير حذف - على ضروب آ ايجاز قصر وهو أن يقصر على المعنى كما وصف بليغ كانت ألفاظه قوالب معانيه سئل جعفر ابن يحيى عن أوجز كلام قال انه من سليمان الى قوله وأتونى مسلمين فجمع فى أحرف العنوان والكتاب والحاجة ، وكتب المأمون لمن يعنى بحاله الى بعض عماله هذا كتاب واثق بمن كتب اليه معنى بمن كتب له ولن يضيع بين الثقة والعناية ب ايجاز تقدير وهو أن يقدر معنى

---

(١) شرح عقود الجمان ص٦٩

زائد على المنطوق وقيل هذا تضييق ، لأنه نقص من الكلام ماصار لبأس لنطه أقصر من ... معناه قال تعالى : فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف أى خطاياه قد غفرت فهى له لا عليه ، وقال صلوات الله عليه يوم بدر : هذا يوم له مابعده ..... قال الواثق لابن أبى داؤد قد ذكرك ابن الزيات بكل قبيح ، قال الحمد لله الذى أحوجه الى الكذب على ونزهنى عن قول الحق فيه أى جعلنى محسودا له فكذب على وجعله مواجب المخازى ومع هذا نزهنى أن أقول مافيه وهاتان النعمتان توجبان الحمد

جـ - ايجاز جامع وهو أن يحتوى اللفظ على معان متعددة قال تعالى : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاى ذى القربى ... الآية " فان العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفى الافراط والتفريط الموثى الى جميع الواجبات فى الاعتقاد والأخلاق والعبودية ، وأن الاحسان هو الاخلاص فى مواجب العبودية له ، لقوله صلوات الله عليه أن تعبد الله كأنك تراه أى تعبد الله مخلصا فى نيتك واقفا فى الخضوع آخذا أهبة الحذر الى مالايحصى ، وأن ايتاء ذى القربى هو الزيادة على الواجب من النوافل هذا فى الأوامر وأما النواهى فالفحشاء الاشارة الى القوة الشهوانية الخارجة عن الاذن وماشاكلها والمنكر الى الافراط الحاصل من آثار الغضبية والبغى الى الاستعلاء الفائض عن الوهمية " (١) .

ولعلك ترى معى من خلال مااقتطفنا من حديث الطيبى عن الايجاز أن السيوطى كان بحق ملخصا تلخيصا أمينا لما أورده من كلام الطيبى فى " التبيان " .

ونلاحظ على نص السيوطى ارتياحه لتمثيل الطيبى للايجاز الجامع بالآية الكريمة " ان الله يأمر بالعدل والاحسان ... الآية ، حيث عقب على ذلك بما يبرز معنى الايجاز الجامع فيها ، وان ساير الخطيب القزوينى بالاعتراف بالمساواة التى جعلها الطيبى قسما من الايجاز متأثرا بابن الأثير ولذا قال السيوطى فى أرجوزته رادا على السكاكى والطيبى حيث يريان عدم تيسر تعريف الايجاز والاطناب تعريفا حقيقيا (٢) كما رد على ابن الأثير والطيبى اللذين يريان عد المساواة من الايجاز فقال :

ومن نفى حدهما أو ادعى .. فقد المساواة فلن يتبعا (٣)

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٢٧ ، ٢٨

(٢) انظر المفتاح ص ١٥٠ والتبيان الورقة ٢٥

(٣) شرح عقود الجمان ص ٦٧

٦ ـ جعل السيوطى التكرير سببا من أسباب الاطناب مسايرة للخطيب القزوينى ولكنه قسم التكرير الى أنواع هى الأنواع التى ذكرها الطيبى ، ومن بين هذه الأنواع الترجيع الذى أورده السيوطى مصرحا بنقله من الطيبى الذى جعل التكرير من المحسنات البديعيــــة الراجعة الى اللفظ والمعنى ، والذى يهمنا فى هذا المجال هو عرض ما نقله السيوطـــى عن الترجيع ثم إردافه بما قاله الطيبى لنقف على صحة نقل السيوطى لكلام الطيبى مما يثبت لنا رجوع السيوطى الى كتاب " التبيان " • يقول السيوطى : " ثالثها ـ يقصد أنـــواع التكرير ـ الترجيع قال الطيبى : وهو أن يكون المعنى مهتما بشأنه ، فاذا شرع فى نوع من الكلام نظر الى ما يتخلص اليه فاذا تمكن من ايراده كر اليه كقوله تعالى : " ولا تعجبــك أموالهم " الآية • قال الزمخشرى فى تجديد النزول له شأن فى تقدير ما نزل له وتأكيـــده وارادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه لقوته فأشبه الشىء الذى أهم صاحبه فهو يرجع اليه فى أثناء حديثه ويتخلص اليه " (١) • ولنقرن ذلك بكلام الطيبى الذى يقول : " الترجيع وهو أن يكون المعنى مهتما بشأنه فاذا شرع فى نوع من الكلام نظر الـــى ما يتخلص اليه ، فاذا تمكن من ايراده كر اليه كتكرير قوله تعالى : " ولا تعجبك أموالهـــم وأولادهم •• الآية ، قال جار الله فى تجديد النزول له شأن فى تقرير ما نزل له وتأكيده ، وارادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه لقوته ، فأشبه الشىء الذى أهم صاحبه فهو يرجع اليه فى أثناء حديثه ويتخلص اليه " (٢) •

وهكذا نرى الاتفاق التام الدال على الأثر الواضح لكتاب " التبيان " فى شـــرح السيوطى " شرح عقود الجمان " وكما قلت فى صدر الحديث عن كتاب السيوطى لم يخــل باب بل صفحة منه من النقل عن الطيبى ، ويكفينا ما عرضناه من نماذج للتدليل بها علـى صحة ما قلناه •

== == ==

* *

---

(١) شرح عقود الجمان ص٧٣

(٢) التبيان فى البيان الورقة ٨٢ ، ٨٣

رابعاً : ابن معصوم المدنـــي :

هو السيد على صدر الدين المدنى بن الأمير نظام الدين أحمد بن محمد معصـوم الحسينى ولد رحمه اله بالمدينة المنورة ١٠٥٢ هـ وتوفى بحيدر آباد فى سنة ١١١٧ وقيل فى سنة ١١٢٠ هـ ووفاته كانت بشيراز (١) .

وقد نظم ابن معصوم قصيدة تضمن كل بيت منها الاشارة الى لون من ألوان البديـع كما هو معهود لدى أصحاب البديعيات مثل ابن حجة الحموى وصفى الدين الحلى وابـن جابر وغيرهم ، وقد عد فيها بعض مابحثه المتأخرون فى علم المعانى أو البيان كالايجـاز والتشبيه والاستعارة ضمن الألوان البديعية التى تحدثعنها ويدو من صنيعه هذا تأسيه بكثير من المتقدمين الذين توسعوا فى البديع حتى جعلوه شاملا لكل البحوث البلاغية ، ثم شرح ابن معصوم منظومته هذه فى كتاب سماه " أنوار الربيـع فى أنواع البديع " وقد قال فيه : " .... فنظمت هذه البديعية التى فاقت بديعية ابن حجة ..... ثم عن لى أن أشرحها شرحا حافلا يكون بابراز مخدرات معانيها كافلا ، وأورد فيها جملة من البديعيات ، ليتأمل الناظر فى هذا المضمار مجرى السوابق (٢) ويميز بثاقب نظره بين اللاحق منها والسابـق وليكن على ذكر ما قاله أبو العباس المبرد فى الكامل وهو القائل المحق : ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدث يهتضم المصيب ، بل يعطى كل مايستحق ، وسميته " أنـوار الربيع فى أنواع البديع " (٣) .

وعندما نتتبع هذا الشرح نجد ابن معصوم ينقل فى بعض المواضع من آراء الطيبـي فى "التبيان " مستحسنا لها مرة ومنبها على سبق الطيبى لغيره مرة أخرى مما يدل علـى افادته من كتاب " التبيان " ورجوعه اليه حين كتابته لمؤلفه ، ويحسن بنا أن نعرض طرفا مما نقله عن الطيبى لندلل بذلك عمليا على أثر "التبيان " فى " أنوار الربيع " .

١ ـ بعد أن ذكر ابن معصوم رأى الخطيب القزوينى فى تقسيم اللون البديعى المسمـى " القول بالموجب " الى ضربين الثانى منهما حمل كلام وقع فى كلام الغير على خلاف مراده ، أخبر عـن السيوطى ادعاءه السبق فى التمثيل لهذا الضرب من القرآن الكريم ، وقـد رد عليه ابن معصوم بأنه مسبوق فى ذلك بالطيبى ثم أورد لنا كلام الطيبى عن ذلك ، فلنعـرض

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص٣٦٤ ومقدمة كتاب أنوار الربيع ص٦ الى ص٣٢ للأستاذ شاكر هادى شاكر .

(٢) اشارة الى قول المتنبى :

تذكرت مابين العذيب وبارق .. مجرعوالينا ومجرى الســوابق

(٣) المقدمة جـ١ ص٢٨ ، ٢٩

كلام ابن معصوم الذى قال عنه " قال الحافظ السيوطى ولم أر من أورد لهذا الضرب مثالا من القرآن وقد ظفرت بآية منه وهى قوله تعالى : " ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم " وسبقه الى ذلك الطيبى فى التبيان فقال بعد تلاوة الآية كأنه قيل : نعم ، هو أذن ولكن نعم الأذن ، أى هو أذن كما قلتم الا أنه أذن خير لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه ، الا أنه فسره بما هو مدح له ، وان كان قصدوا به المذمة ، ولاشىء أبلغ فى الرد من هذا الأسلوب ، لأن فيه اطماعا فى الموافقة وكرا الى اجابتهم فى الابطال وهو كالقول الموجب فى الأصول "(١) .

هذا ماأورده ابن معصوم . أما الطيبى فقد سمى هذا اللون ـ القول بالموجب ـ الرجوع وعرفه بأنه هو أن يذكر شيء ثم يرجع عنه كقولهم مامعه من العقل شيء بل مقدار مايوجب الحجة عليه ثم قال : " " ومنه قوله تعالى : ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين . كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ، أى هو أذن كما قلتم الا أنه أذن خير لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه الا أنه ضربما هو مدح له وان كانوا قصدوا به المذمة ولاشىء أبلغ فى الرد من هذا الأسلوب ، لأن فيه اطماعا فى الموافقة وكرا الى اجابتهم بالابطال وهو كالقول بالموجب فى الأصول "(٢) .

وهكذا نلاحظ بالموازنة بين النصين اتفاقهما التام الدال على تأثير الطيبى بكتابه " التبيان " فى ابن معصوم حين كتب هذا الشرح لمنظومته .

٢ ـ عندما تحدث عن الكلام الجامع بين أولا رأى جمهور البديعيين فى تعريفه ثم أردفه برأى الطيبى ناقلا جميع الأمثلة التى ذكرت فى " التبيان " مما يدل على تأثره فى مؤلفه بالطيبى فى كتابه " التبيان " يقول ابن معصوم : " الكلام الجامع هو عبارة عن أن يأتى الشاعر ببيت يكون جملته حكمه أو موعظة ، أو نحو ذلك من الحقائق الجارية مجرى الأمثال . هكذا قال غير واحد من البديعيين ، وقال الطيبى فى التبيان : هو أن يحلى المتكلم كلامه بشيء من الحكمة والموعظة وشكاية الزمان والاخوان ، وهذا أعم من الأول ......

تعلم يافتى والعود رطب .. وطينك لين والطبع قابل

فان الجهل واضع كل عال .. وأن العلم رافع كل خامل

فحسبك يافتى شرفا وعزا .. سكوت الحاضرين وأنت قائل

(١) أنوار الربيع فى أنواع البديع جـ٢ ص ٢٠٠

(٢) التبيان فى البيان الورقة ٩

ومنها ماكتب به الصاحب بهاء الدين الجوينى الى ابنه شمس الدين :

بنى اجتهد فى اقتناء العلـــوم •• تفز باجتناء ثمار المـــنى
ألم تر فى رقعة بيدقـــــا •• اذا جد فى سيره فرزنـــا
فأجدادنا الغر قد أسســـوا •• من المجد شم المبانى لنا
فان لم نشدها بمجهودنـــا •• سينهار والله ذاك البنـــا

وقول أبى تمام :

واذا أراد الله نشر فضيلـــة •• طويت أتاح لها لسان حســـود
لولا اشتعال النار فى جزل الغضا •• ماكان يعرف طيب عرف العـــود

وقول الآخر :

من عاشر الشرفاء شرف قـــدره •• ومعاشر السفهاء غير مشـــرف
فانظر الى الجلد الحقير مقبـــلا •• بالثغر لما صار جار المصحـــف

وقول ابن الرومى :

وما الشرف الموروث لادر دره •• بمحتسب الا بآخر مكتســـب
اذا الغصن لم يثمر وان كان شعبة •• من الثمرات اعتده الناس فى الحطب

وقول التهامــى :

لاتحسبن حسب الآباء مكرمـــة •• لمن يقصر عن غايات مجدهـــم
حسن الرجال بحسنى لابحســـنهم •• وطولهم فى المعالى لابطولهـم

وقول أبى فراس :

كانت مودة سلمان له نســـبا •• ولم تكن بين نوح وابنه رحـــم

وقول الآخـــر :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعـــه •• وليس عليه أن يساعده الدهـــر
فان نال بالسعى المنى تم أمـــره •• وان عرض المقدور كان له عـــذر

وقول الآخـــر :

غرست غروسا كنت أرجو لقاحهـــا •• وآمل يوما أن تطيب جناتهـــا
فان أثمرت لى غير ماكنت آمـــلا •• فلا ذنب لى ان حنظلت نخلاتها

وقول الآخـــر :

حاول جسيمات الأمور ولاتقـــل •• ان المحامد والعلـــى أرزاق

فارغب بنفسك أن تكون مقصــــرا .. فى غاية فيها الطلاب سبـــاق

وقال العتابى يخاطب محبوبته :

تحبين أنى نلت ما نال جعفـــر .. من الملك أو ما نال يحيى بن خالد

فقالت نعم ، فقال :

وان أمير المؤمنين أحلـــــنى .. محلهما بالمرهفات البــــوارد

فقالت لا ، فقال :

دعينى تجئنى ميتتى مطمئنـــة .. ولم أتجشم هول تلك المــــوارد

فان جسيمات الأمور منوطــــة .. بمستودعات فى بطون الأســـاود

هذه جملة ما أورده الطيبى من أمثلة الحكمة " (١) .

ونحن نلاحظ أن الاستشهادات ليست كلها فى مستوى بلاغى واحد ، فمنها الركيك الشبيه بالنظم المتكلف مثل : تعلم يا أخى ... الخ فانه يقول الوعاظ فى مساجد العامـــة أشبه ، ومنها العالى المحلق كأبيات أبى تمام ، ولابد لمؤلف البلاغة أن يفرق بين الصاعد المحلق والمتواضع الهين .

ثم ذكر ابن معصوم بعد ذلك ما أورده الطيبى من أمثلة للموعظة وشكاية الزمـــان ، حتى ختم كلامه باستحسانه لرأى الطيبى فى تعريف الكلام الجامع فقال : " قد بينا لـك أن تعريف صاحب التبيان للكلام الجامع أعم من تعريف سائر البديعيين له ، وعلى تعريفه جرى كثير من هذه الأمثلة ..... وانى لأستحسن تعميمه هذا " (٢) .

ولكى نثبت صحة نقل ابن معصوم لكلام الطيبى فى التبيان عن الكلام الجامع نعـــرض الآن من كلام الطيبى ما يقابل النص المنقول مكتفين بذلك لتحقيق الغرض المنشود ، يقول الطيبى : " والكلام الجامع وهو أن يحلى المتكلم كلامه بشىء من الحكمة والموعظة وشكاية الزمان والاخوان فمن الحكمة قول الشافعى رحمه الله :

تعلم يا فتى والعود رطـــب .. وطينك لين والطبع قابـــــل

فان الجهل واضع كل عـــال .. وان العلم رافع كل خامـــــل

فحسبك يا فتى شرفا وعـــزا .. سكوت الحاضرين وأنت قائـــل

---

(١) أنوار الربيع فى أنواع البديع جـ٢ ص ٣١٨ الى ص ٣٢١
(٢) المصدر السابق ص ٣٤٧

وماكتب الصاحب بهاء الدين الجوينى الى ابنه الصاحب شمس الدين طاب ثراهما :

بنى اجتهد فى اقتناء العلـــوم •• تفز باجتناء ثمار المنـــى

ألم تر فى رقعة بيدقـــــــا •• اذا جد فى سيره فرزنـــا

فأجدادنا الغر قد أسســوا •• من المجد شم المبانى 'نـا

فان لم نشدها بمجهود نـــا •• ستنهار والله تلك البنـــى

وقول أبى تمام :

واذا أراد الله نشر فضيلـــة •• طويت أتاح لها لســان حسـود

لولا اشتعال النار فيما جاورت •• ماكان يعرف طيب عرف العـــود

وقال الآخر :

من عاشر الشرفاء شرف قـــدره •• ومعاشر السفهاء غير مشـــرف

فانظر الى الجلد الحقير مقبــلا •• بالثغر لما صار جار المصحـــف

وقال ابن الرومى :

وما الشرف المـــوروث لادر دره •• بمحتسب الا بآخر مكتســـب

اذا الغصن لم يثمر وان كان شعبة •• من الثمرات اعتده الناس فى الحطب

وقال التهامـى :

لاتحسبن حسب الآباء مكرمـــة •• لمن يقصر عن غايات مجدهـــم

حسن الرجال بحسنى لابحسنهم •• وطولهم فى المعالى لابطولهـم

وقال أبو نواس :

كانت مودة سلمان له نســـبا •• ولم يكن بين نوح وابنه رحـــم

وقال الآخـــر :

سأنفق ريعان الشبيبة آنفـــا •• على طلب العلياء أو طلب الأجـــر

أليس من الخسران أن ليا ليــا •• تمر بلانفع وتحسب من عمـــرى

وقال الآخـــر :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعـه •• وليس عليه أن يساعده الدهـــر

فان نال بالسعى المنى تم أمـره •• وان عرض المقدور كان له عـــذر

وقال الآخـــر :

غرست غروسا وكنت أرجو لقاحهــا •• وآمل يوما أن تطيب جناتهــا

فان أثمرت لى غير ماكنت آمــلا •• فلا ذنب لى ان حنظلت نخلاتها

وقال الآخـــر :

حاول جسيمات الأمور ولاتقــل •• ان المحامد والعلى أرزاق

فارغب بنفسك أن تكون مقصــرا •• عن غاية فيها الطلاب سباق

وقال العتابى يخاطب محبوبته :

تحبين أنى نلت مانال جعفــر •• من الملك أو مانال يحيى بن خالد

فقالت : نعم ، فقال :

وان أمير المؤمنين أحلــنى •• محلهما بالمرهفات البــوارد

فقال : لا ، فقال :

دعينى تجئنى ميتتى مطمئنــة •• ولم أتجشم هول تلك المــوارد

فان جسيمات الأمور منوطــة •• بمستودعات فى بطون الأســاود " (١)

وهكذا نرى بالمقارنة بين النصين أن ابن معصوم قد نقل ماقاله الطيبى من تعريف للكلام الجامع وأمثلة لــه • (٢)

٣ ــ أورد ابن معصوم تعريف الطيبى للتشبيه عند عده لآراء العلماء فى تعريفه دون ترجيح منه لرأى على رأى ، ونكتفى بايراده لتعريف الطيبى الذى قال عنه : " هو وصف الشــىء بمشاركة الآخر فى معنى " (٣) لندلل بذلك على رجوعه الى كتاب " التبيان " •

٤ ــ نقل ابن معصوم ماقاله الطيبى عن تعريف التطريز وأمثلته بعد أن ذكر أن له معنييــن أحدهما للطيبى والآخر لغيره ، والذى يهمنا هو مانقله عن الطيبى ، لنقارنه بما ورد فى " التبيان " يقول ابن معصوم : " التطريز فى اللغة : مصدر طرزت الثوب اذا جعلت لــه طرازا أى علما ، وهو معرب ، وثوب مطرز بالذهب وغيره ، أى معلم وفى الاصطلاح يطلق على معنيين :

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٧٤ ، ٧٥

(٢) انظر فى أمثلة الموعظة وشكاية الزمان جـ٦ ص٣٢٧ الى ص٣٤٧ من أنوار الربيع فى أنواع البديع •

(٣) انظر التبيان الورقة ٣٤ وأنوار الربيع فى أنواع البديع جـ٥ ص ١٩٥

أحدهما : أن يؤتى فى الكلام بمواضع متقابلة كأنها طراز ، هكذا عرفه الطيبى فى التبيان ومثله بقول أبى تمام :

أعوام وصل كاد ينسى طولها .. ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت .. بأسى فخلنا أنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها .. فكأنها وكأنهم أحلام " (١)

هذا ما ذكره ابن معصوم فماذا قال الطيبى ؟ انه يقول : " والتطريز وهو أن يؤتى فى الكلام بمواضع متقابلة كأنها طراز قال أبو تمام :

أعوام وصل كاد ينسى طيبها .. ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت .. بأسى فخلنا أنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها .. فكأنها وكأنهم أحلام " (٢)

وهكذا نرى أن ما أورده ابن معصوم هو عين ما قاله الطيبى فى التبيان مع ملاحظة اتفاقهما فى رواية أبيات أبى تمام ، وهذا الاتفاق فى الرواية مع الاختلاف عن رواية الديوان يؤكد أن الطيبى كان مصدر ابن معصوم الأول .

٥ ــ فى أثناء حديثه عن العقد ذكر أمثلة أوردها الطيبى فى التبيان ، وقد صرح ابن معصوم بذلك حيث قال : " أورد الطيبى فى التبيان من أمثلة هذا النوع عدة مقاطيع ، منها ما روى ابن الضحاك أن أبا نواس سمع صبيا يقرأ : " يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا " فقال فى مثل هذا يجىء صفة للخمر حسنة ثم قال :

وسيارة ضلوا عن القصد بعد ما .. تراءت فهم جنح من الليل مظلم
فلاحت لهم منا على النأى قهوة .. كأن سناها ضوء نار تضرم
اذا ما حسوناها أناخوا مكانهم .. فان مزجت حثوا الركاب ويمموا

فحدثت بذلك محمد بن الحسن الشيبانى فقال : لا ، ولا كرامة ، بل أخذه من قول الآخر :

وليل بهيم كلما قلت غورت .. كواكبه عادت فما تتزيل
به الركيب اما أومض البرق يمموا .. وان لم يلح فالقوم بالسير جهل

---

(١) أنوار الربيع فى أنواع البديع جـ٥ ص ٣٤٢
(٢) التبيان الورقة ٩٦

ومنها قول ابن مطروح :

وذا ياكليم الشوق واد مقــدس •• لذى الحب فاخلع ليس يمشيه محتذ

قال : عقد فيه قوله تعالى : " فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى "

ومنها قول المأمون فى رسوله الى حبيبتـه :

بعثتك مشتاقا ففزت بنظـــرة •• وأغفلتنى حتى أسأت بك الظنــا

ورددت طرفا فى محاسن وجههــا •• ومتعت فى أسماع نغمتها الأذنــا

أرى أثرا منها بعينك لم يكـــن •• لقد سرقت عيناك من وجهها حسنا

قال : عقد قول عثمان لأنس وكان قد وقعت عينه على أمرأة فدخل عليه فقال : أراكم تدخلون على وآثار الزناء عليكم • قال أنس أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : لا ولكن فراسة صادقة " (١) ولنكتف بهذا القدر من الأمثلة التى أوردها ابن معصوم مـــن كتاب " التبيان " حيث نجده ينهل من أمثلته فى أبواب متعددة يطول بنا الحديث لـــو سردناها ، ولكن المذكور اذا ثبتت صحة نقله عن الطيبى دل على المتروك ، فلنقـــرن ماذكره ابن معصوم بما يقابله فى كتاب " التبيان " حيث يقول فيه الطيبى عن المعقـد : " وهو أن ينظم نثر إما قرآن أو حديث أو أثر أو حكمة فمن الأول ماروى ابن الضحاك أن أبا نواس سمع صبيا يقرأ : "يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا " فقال فى مثل هذا تجىء صفة الخمر حسنه ثم قال :

وسيارة ضلوا عن القصد بعد مـــا •• ترادفهم جنح من الليل مظلـــم

فلاحت لهم منا على النأى قهــوة •• كأن سناها ضوء نار تضـــرم

اذا ماحسوناها أناخوا مكانهـــم •• وان مزجت حثوا الركاب ويممـــوا

فحدثت محمد بن الحسن فقال لا ولاكرامة بل أخذه من قول الشاعر :

وليل بهيم كلما قلت غـــورت •• كواكبه عادت فما تتزيـــل

به الركب اما أومض البرق يممـــوا •• وان لم يلح فالقوم بالسير جهل

وقال ابن مطروح :

وذا ياكليم الشوق واد مقــدس •• لذى الحب فاخلع ليس يمشيه محتذ

وقفنا وسلمنا على كل مـــنزل •• تلذذ فيه العين أى تلـــذذ

---

(١) أنوار الربيع فى أنواع البديع جـ ٦ ص ٣٠٣ الى ص ٣٠٥

.... ومن الثانى ... قول المأمون فى رسول بعثه الى المحبوبة

بعثتك مشتاقا ففزت بنظـــــرة .. وأغفلتنى حتى أسأت بك الظنــا

وردت طرفا فى محاسن وجهها .. ومتعت فى استمتاع نغمتها اذ نـا

أرى أثرا منها بعينك لم يكــــن .. لقد سرقت عيناك من وجهها حسنا

عقد قول عثمان رضى الله عنه لأنس وكان وقد وقعت عينه على امرأة ، أراكم تد خلون علـــى وآثار الزنى عليكم قال أوحى بعد رسول الله ؟ قال لا ولكن فراسة صادقة " (١) .

وهكذا نرى بوضوح صحة النقل عن الطيبى مما يدل على تأثيره فى كتاب " أنـــوار الربيع " وجل هذا النقل بـل كله يتمثل فى ايراد مثال أو ذكر رأى دون تعليق يدل على التأثر الصادق وهذه الملاحظة نجدها فى جميع المؤلفات البلاغية التى تحدثنا عنهـا ، ولذا قلت فى صدر حديثى عن تأثير الطيبى بكتابه التبيان فيمن أتى بعده ان تأثيره كـان قليلا وان كان مجرد نقل كلامه والتعرض له بالنقد أو الاستحسان مما يعطى الكتاب قيمـة بلاغية من أجلها تداولته المؤلفات اللاحقة ، واذا اقتصرت على أربعة منها فليس ذلك على طريق الحصر والتحديد لأنى واثق أن المخطوطات الكثيرة التى تنحو منحى السكاكى ، ولم تظهر قد تأثرت بالطيبى فى كتابه " التبيان فى البيان " ولولا طبع كتاب أنوار الربيــــع مؤخرا لما عرفنا تأثره بالرجل وكم لابن معصوم من أمثال .

* * *

واذا تركنا المؤلفات البلاغية ، بعد الطيبى الى ماكتب فى هذا العصر عن تاريـخ البلاغة فاننا لانكاد نعثر للطيبى على تقدير بلاغى خاص يجعل مكانه واضح الدلائل الا ما كان من صنيع الشيخ أحمد مصطفى المراغى اذ خصه بترجمة موجزة (٢) دلت عـلى أن المراغى يحفظ له قيمته العلمية فى هذا المضمار ، فى حين نرى الدكتور شوقى ضيف الـذى تحدث عن البلاغة فى عصر الطيبى ومن تلاه حديثا مسهبا بالنظر الى سعة كتابه " البلاغـة تطور وتاريخ " نراه نسى الطيبى فلم يلمم بشىء عنه ، وجاء صاحب الصبغ البديعـــى

---

(١) التبيان فى البيان الورقة ٩٧ ، ٩٨

(٢) انظر تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص١٣٦

لينقل عن الفوناطو رأيا عزاه للطيبى وغيره مكتفيا بذلك (١) ٠

وان من العجب العاجب أن يخمل حديث الطيبى لدى المؤرخين هذا الخمول ، وان لم يكن وحده فى حظه الخامل لأن مؤرخى العلوم عادة يأخذون ويدعون ولم تكـــن شهرة المشتهر الذائع دليلا على رسوخه قدر ماهى دليل على توفيق حظه ومواتاة ظروفـــه للتسجيل والتأريخ ٠

= = = = = =

* *

*

(١) انظر الصبغ البديعى للدكتور أحمد موسى ص٥٠٨

منهج التحقيق الذى اتبعتـــه

عندما شرعت فى تحقيق كتاب " التبيان فى البيان " للامام شرف الدين الطـــيبى عثرت له على خمس نسخ ، فاتخذت أقدمها أصلا وقمت بنقل أصل الكتاب منها ، لكنـــنى وجدت فى هذه النسخة الأصل ــ كما قلت فى وصفها سابقا ــ عدة خروم أودت ببعـــض الكلمات ، فكان ذلك مما اقتضانى أن أقوم بعد اتمام عملية النقل بمقابلة النسخة الأصـــل على كل واحدة من النسخ الأربعة الأخرى ، لبيان أوجه الاختلاف بينها من ناحية ولاثبات مانقص من النسخة الأصل بسبب خرم أو سقط من ناحية أخرى واضعا له بين قوسين ، وقـد استغرقت هذه المقابلة بين النسخ منى جهدا ووقتا غير قليل .

ولما كان الكتاب خاليا من الفواصل بين الفقرات ، وكذا علامات الاستفهام فقـــد وضعت فواصل بين الفقرات ، وعلامات الاستفهام فى أماكنها لتتم الفائدة ، أما عـــن الترقيم فقد رقمت الكتاب نظرا الى عدد أوراقه كما يوجد فى النسخة الأصل ، وجعلت هذا الترقيم فى هامش الصفحة جهة اليسار تمييزا له عن ترقيم الكتاب حسب النقل ، وقد حرصت على أن تكون كتابتى فى نقل الكتاب متفقة بقدر الامكان مع قواعد الاملاء المتداولة حاليـــا فى الطباعة ، كما أعجمت الكلمات التى تخلو حروفها من الاعجام .

هذا وقد استشهد المؤلف رحمه الله فى كتابه بكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأبيات الشعرية ، كما ذكر جملة من الأمثال العربية ، وأورد أيضا كثيرا من الآراء دون تعيين لأصحابها أحيانا ، لهذا رأيت أن أقوم فى التحقيق بمايلى :ــ

١ ــ درست الآيات القرآنية الكريمة ووثقت قراءاتها التى ذكرها الطيبى ، ثم ميزتها عـــن بقية الكلام بأن وضعتها بين قوسين هكذا (( )) كما أثبت فى التحقيق رقم الآيـــة واسم السورة .

٢ ــ خرجت الأحاديث النبوية الشريفة بتوثيق كل حديث من مصدره فى الكتب الصحيحـــة واضعا له بين قوسين كالآيات .

٣ ــ خرجت الأبيات الشعرية بنسبة غير المنسوب الى قائله ما أمكن ذاكرا المراجع الـــتى ورد

فيها البيت مثبتا اختلاف الروايات ان وجد ، ومكملا أنصاف الأبيات ما استطعت الى كل ذلك سبيلا .

٤ - شرحت بعض المفردات الغريبة كما علقت أحيانا على بعض العبارات بما يزيل ابهامها ويكشف غموضها .

٥ - ترجمت ترجمة مختصرة لبعض الأعلام الوارد ذكرهم فى الكتاب مكتفيا بالترجمة مرة واحدة لمن يتكرر اسمه أكثر من مرة فى الكتاب .

٦ - خرجت النصوص البلاغية بارجاع كل نص الى مصدره واسناد كل رأى لصاحبه قدر الطاقة .

٧ - وضعت عدة فهارس فى نهاية الكتاب تيسيرا للافادة منه ، فصنعت فهرسا للآيات القرآنية وثانيا للأحاديث النبوية وثالثا للأمثال العربية ورابعا للأبيات الشعرية ، وخامسا لأهم المصادر والمراجع ، وسادسا لموضوعات الكتاب .

وقد رجعت فى عملية التحقيق والدراسة الى المصادر والمراجع العربية ، كمراجع البلاغة والأدب واللغة ، والتفسير والحديث ، وكذا كتب التاريخ والتراجم وغيرها من المراجع سواء منها المطبوع أو المخطوط مستعينا بالله سبحانه ثم مستضيئا بتوجيهات أستاذى الجليل الدكتور كامل الخولى الذى لم يدخر وسعا فى ابداء الرأى واسداء النصح وبذل التوجيه كلما رجعت اليه ملتمسا منه التوجيه والارشاد ، ولم تكن توجيهاته لى مقصورة على مرحلة الدكتوراة فقط بل عرفت الرجل العظيم أستاذا ووالدا من السنة الثالثة بكلية اللغة العربية ، ثم توطدت علاقتى به فى مرحلتى الماجستير والدكتوراة فكان بحق نعم الاستاذ الموجه والأب الحانى فى كل من المراحل الثلاثة .

هذا وقد عملت جاهدا خلال التحقيق والدراسة على أن يخرج هذا البحث على الصورة القريبة من الكمال اذ الكمال المطلق لله وحده .

ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

== == ==

خاتمـــة

كان من دوافع هذا البحث أن نبرز شخصية الامام الطيبي ونظهرها ، فالرجـــل ـ على الرغم من كثرة ترددد اسمه في مؤلفات الفنون المختلفة ناقلة آرءه أو موردة نصوصا مـــن مؤلفاته ـ لم يتناوله باحث بالدراسة المستفيضة التي توضح لنا كل جوانب حياته سوى نبـــذ تناقلتها المراجع التي ترجمت له ، وبذا كان صاحبنا غير معروف الترجمة حتى لدى مـــن اهتموا بتحقيق شيء من تراثه ، فاننا نجد الأستاذ صبحي السامرائي محقق كتاب " الخلاصة في أصول الحديث " للطيبي قد اكتفى في ترجمته بسطور نقلها عن ابن حجـر ، ومثله فــي اطلاعه الذي نطق به تحقيقه كان لايدخر وسعا في اثبات مايعثر عليه من أقوال تتصل بحياة الطيبي لو اتيحت له ، ولهذا يعد هذا البحث أول رسالة علمية جاءت كاشفة عن شخصيـــة الامام الطيبي محققة جانبا من تراثه البلاغي .

ومن هنا جعلت الفصل الأول من هذه الدراسة عن الامام شرف الدين الطيـــبي ، فتحدثت عن اسمه ونسبه ذاكرا خلاف المترجمين له في ذلك ، ثم حققت المسألة مبينـا أن اسمه الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي ، ودعمت هذا البيان بما ورد عنه صريحا فــي بعض مؤلفاته وما أورده بعض تلاميذه في مؤلفاتهم التي لازالت مخطوطة ، وتحدثت في هــذا الفصل عن آثار شرف الدين الطيبي العلمية مبينا المطبوع منها والمخطوط ورقم المخطوط في المكتبات التي يوجد فيها ، مشيرا الى بعض الآثار التي لم نعثر عليها ، كما تحدثت عــن ثقافة الطيبي مدللا بما خلفه من آثار علمية على أن ثقافته لم تكن محصورة في فن بعينـــــه أو مقصورة على لون من ألوان المعرفة ، ولكنها تعدت هذا النطاق الضيق وتجاوزت ذلـــك القدر المحدود فتنوعت حتى شملت ألوانا متعددة من المعرفة . شملت البلاغة والحديـــث والتفسير واللغة والقراءات كما شملت أيضا الرياضيات من حساب وجبر وهندسة .

ومن خلال مؤلفاته وماذكره المؤرخون عنه وماأورده بعض تلاميذه له من نعوت وصفـات استطعت أن أتبين شخصية الرجل وأخلاقه ومكانته العلمية حيث ظهر لنا أنه كان ذا منزلـــة علمية سامية ومكانة رفيعة بين أقرانه من العلماء ، يتمتع بشخصية ممتازة وأخلاق اسلامية عالية فقد شهد له نفر غفير من العلماء والمؤرخين بالفضل والعبادة والذكاء ، والتواضع والسخاء ،

والحرص على تعليم العلم ونشره .

وأردفت ذلك بالحديث عن شيوخه وتلاميذه منبها على أن كتب التراجم لم تجد علينا بما كنا نتطلع اليه من حديث عن شيوخ الطيبى وتلاميذه ، ولكننى بتوفيق الله عز وجل ثم باستنطاق النصوص واستشفاف العبارات الواردة عن بعض العلماء فى شأنه استطعت الاهتداء الى معرفة شيخين من شيوخه وتلميذين من تلاميذه ، أما عن الشيخين فأحدهما هو أحمد ابن الحسن الجاربردى والآخر هو أبو حفص السهروردى وقد رجحت أن مشيخة السهروردى للطيبى لم تكن مباشرة وانما كانت بطريق الواسطة على نمط الرواية فى الحديث ، أما عن التلميذين فهما على بن عيسى صاحب " حدائق البيان " وولى الدين محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى صاحب " مشكاة المصابيح " فى الحديث .

وقد تحدثت أيضا فى هذا الفصل عن مولده ووفاته وبان لنا أن جميع المراجع والمصادر التى تعرضت للحديث عنه قد اتفقت على تحديد زمن الوفاة بأنها كانت فى يوم الثلاثاء الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة هـ ولكنها لم تحدد مكانها كما أنها لم تشر الى متى ولا أين ولد ، وقد استطعت من خلال البحث عن مكان ولادته الاهتداء الى تأرجح موطنه بين مدينة الطيب وتوريز ، ومن هنا قررت أن الرجل من أهل ايران لوقوع تلك المدينتين فى دولة ايران .

واقتضانا ذلك أن نتحدث عن ايران بلد الطيبى من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية فى الفترة التى تسبق وفاة الطيبى ، وظهر لنا من خلال تلك الدراسة أن ايران كانت فى هذه الفترة ــ القرن السابع وأوائل الثامن ــ يسيطر عليها المغول الايلخانيون كما بان لنا أن هذا العصر الذى عاش فيه الطيبى قد اتسم من الناحية السياسية بالثورات المتعددة والفتن والقلاقل والاضطرابات ولكن على الرغم من ذلك وجدنا العلوم والمعارف ظلت مزدهرة بل كانت هذه الفترة من التاريخ غنية غنى هائلا بالانتاج الأدبى ، وذلك لتقدير ملوك المغول للعلم والعلماء وتشجيعهم على البحث العلمى لاسيما بعد تشرفهم بالاسلام ولذا قال القلقشندى : " وأما عاداتهم ــ يقصد المغول ــ فى الأدب فكان من طريق جنكيزخان أن يعظم رؤساء كل ملة ، ويتخذ تعظيمهم وسيلة الى الله تعالى ، ومن حال التتر فى الجملة اسقاط المؤن والكلف عن العلويين وعن الفقهاء والفقراء والزهاد ،

والموقنين والأطباء وأرباب العلوم على اختلافهم ومن جرى هذا المجرى " .

ثم انتقل بنا الحديث عن الكتاب المحقق وهو " التبيان فى البيان " لشرف الدين الطيبى فحققت عنوانه وبينت أن العنوان الذى وضعه له مؤلفه هو التبيان فى البيـــان وأن كثرة وروده باسم التبيان فقط من باب الاختصار ، أما تسميته بالتبيان فى المعانى والبيان فذلك من تصرف النساخ ، ووثقت بعد ذلك نسبة الكتاب لصاحبه ثم تحدثت عن مصـــادر الكتاب وبينت أنها متعددة لم تقتصر على كتب البلاغة بل وجدناها متضمنة كتبا فى اللغـــة والتفسير والأدب وهذا يدل على أن الطيبى كان ذا ثقافة واسعة بكتب الأقدميـــن وآراء السابقين ، ثم عرضت لنسخ الكتاب التى عثرت عليها واعتمدت عليها فى التحقيق فبينـــت عددها ووصف كل نسخة منها .

وبعد ذلك انتقلت الى الحديث عن منهج الطيبى فى كتابه التبيان مقدما بـــين يدى البحث كلمة موجزة عن المدرسة الأدبية والكلامية فى البحث البلاغى وخصائص كل منهما ، ذاهبا الى أن فن البلاغة كان فى عهده الأول أدبيا ثم اتجه منذ الرازى والسكاكى وجهـــة كلامية فلسفية ، ولهذا خالفت بعض الكاتبين الذين يذهبون الى أن قدامة بن جعفـــر فى "نقد الشعر " وعبد القاهر الجرجانى فى " دلائل الاعجاز " والزمخشرى فى كشافه مـــن أعلام المدرسة الكلامية ذاكرا أن هؤلاء من المدرسة الأدبية جد قريب .

أما عن منهج الطيبى فى كتابه فأبرزت للتعرف عليه أهم السمات المنهجية التى لاحت لنا من خلال دراسة الكتاب بادئا بعرض اجمالى لموضوعات الكتاب لنقف على خطة المؤلـــف فى البحث وقد تبين لنا من خلال العرض أن الرجل فى حديثه عن البلاغة يتفرع من جـــدول السكاكى وان لم يتقيد بمنهجه تقيدا مطلقا ، حيث كانت له نظرات أبرزت شخصيته ودلت على أثره البلاغى واستقلاله الفكرى ، وكان من أهمها التنبيه على اعتبار حال المتكلم فـــى الاسناد ، ورأيه فى منزلة التشبيه من علم البيان ونظرته الى البديع وصنيعه فيه ، وانـــى وان حمدت للطيبى هذه النظرة التى ردت للبديع اعتباره لكننى أخذت عليه تقسيمه الجديد لألوان البديع .

أما عن الفصاحة فقد رأيناه مهتما بها اهتمام المتقدمين سائرا فيها على هـــدى ابن الأثير حتى جاء حديثه عنها تلخيصا واحتذاء لما قاله ابن الأثير . كما لاحظت علـــى الطيبى فى منهجه محاولته أن يكون كتابه ذا اتجاه جديد مبرهنا على ذلك بجمعه بـــين

الاتجاهات والآراء المختلفة فى تناوله للموضوع الواحد • ولما كانت شخصية الطيبى بارزة فى كتابه حيث لم يكن عبدا التقليد من تأثر بهم تحدثت عن شخصيته فى النقد ضاربا الأمثلة الدالة على ما يتمتع به من سمات ناقدة •

ثم ذكرت من السمات المنهجية للطيبى فى كتابه ميوله الشديد الى الاختصار الذى سرى بسببه كثير من الغموض والتعقيد فى أسلوب الكتاب مما يجعل القارئ يلهث وراء فهم المراد فلا يكاد يدركه الا بعد مشقة وعناء ، وظلت بذلك قيام عدة شروح على الكتاب •

كما أن من سمات المنهجية اكثاره من الاستشهاد بالقرآن والحديث مبينا أن ذلك يرجع الى مايتمتع به الطيبى من ثقافة اسلامية واسعة ، ثم انتقل بنا الحديث الى الطيبى بين التأثر والتأثير فقارنت بينه وبين أبرز من تأثر بهم وأثر فيهم بكتابه موردا نصوصا لكلا الرجلين فى الموضوع الواحد فوقفنا بذلك على مدى تأثره بالسابقين وأثره فى اللاحقين مما يعطى لكتابه التبيان قيمة بلاغية بين كتب البلاغة فى مدرسة السكاكى •

وأخيرا تحدثت عن المنهج الذى اتبعته فى التحقيق مبينا الخطوات التى سرت عليها فى أثناء تحقيق نص كتاب التبيان فى البيان للامام شرف الدين الطيبى •

هذا وأرجو أن أكون فيما قمت به قد وفيت البحث حقه ، فان وفقت لما أردت فبالله ومن الله وان كانت الأخرى فحسبى مابذلت من جهد وعانيت من مشقة ، والمجتهد ان أخطأ فله أجر وان أصاب فله أجران لاسيما و أن الباحث المبتدئ عامة وفى مجال التحقيق والدراسة خاصة قد يخطئ مرات ليصيب مرة ، شأنه فى ذلك شأن كل مولود فى هذا الوجود حتى مظاهره الكونية يسبق فيها الحسن الأحسن والجميل الأجمل •••• فبياض الفجر يأتى بعد زرقة الليل وظلمته ودجاه ثم تجئ أشراقة الشمس الدافئة بما فيها من سنا وضياء وحياة وبهاء ولله در القائل :

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه •• وأول الغيث قطر ثم ينسكب

والحمد لله على ماهدى اليه وأعان عليه له الحمد فى الأولى والآخرة •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم •

== == ==

* *

*

موضوعات القسم الأول
(الدراسة)

الموضـــــوع	رقم الصفحـــــة

* * * * * *

* * * *

* *

*